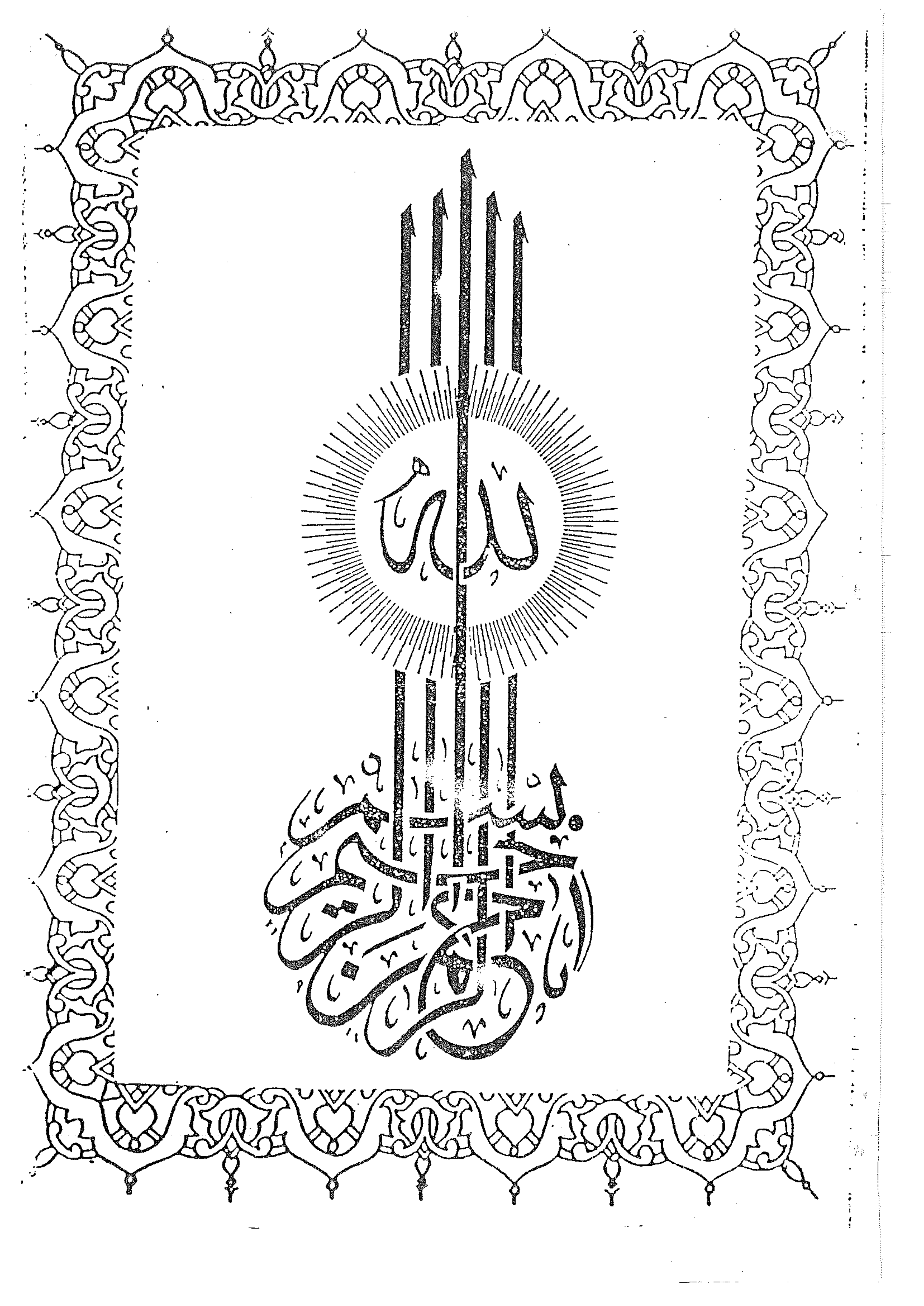
منهج القرآن الكريم

في

إثارة الأرض وعمارتها

فريد مصطفى السلمان


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مورث النّعم ، مانع السقم ، كاشف الغُمم ، محيي العظام والرّمم ، معزّ الممالك والأمم ، مزيل الهمّ والحزن والظُّلَم .

أحمده تعالى وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،﴿ الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) . وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله أرسله الله رحمة للعالمين ، بشيرا ونذيرا وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

أصلي وأسلم عليه وعلى آله وصحبه ، والسائرين على دربه إلى يوم الدين ، أما بعد :

فكنت كلما أقرأ كتاب الله منذ زمن ليس بقصير ، يحلو لي أن أردد الآيات القرآنية الكريمة ، التي تتحدث عن إبداع الله عزّ وجل لهذا الكون بكلّ ما فيه من دقائق الخلق وجلائل النعم .

وكنت أسرح ببصري أتأمل جمال الطبيعة كأنني أفسّر هذه الآيات المقروءة بآيات الله المبثوثة في الأرض والسماء . وكنت أتلقّف كل تلك المحاولات البسيطة لبعض كتاب المسلمين الذين يؤكدون في إصرار ، أنّ القرآن الكريم فوق أنه دستور تشريع ومنهج عبادة ، فهو أيضا دستور حياة يربط الإنسان بالكون كما يربطه بخالقه وبأخيه الإنسان .

وكنت أشعر بالضيق عندما أرى هذه المحاولات الضعيفة تتهاوى أمام ما يكشفه العلم كلّ يوم ، لأنها لم تكن مرتكزة ارتكازا قويا على الأهداف الأصيلة لهذا الكتاب الكريم ، وكأنّ المراد هو مجرّد التوفيق بين كتاب الله ولغة العلم المعاصر بأيّ ثمن .

---

(١) سورة العلق ٤،٥ .

ولقد اخترت عنونان هذه الرسالة وهو :

(منهج القرآن الكريم في إثارة الأرض وعمارتها)

والإثارة هي تحريك الشيء حتى يرتفع ترابه . وإثارة الأرض حراثتها وقلبها للزراعة . قال مجاهد والفراء (١) :

وقال غيرهما قلبوا وجه الأرض لاستنباط المياه واستخراج المعادن وإلقاء البذر فيها للزراعة (٢) .

والعمارة من العمران وهي طول مدة البقاء مع التعمير ، وهو استصلاح الأرض الخراب ، وبناء المنشآت ، وتوفير أسباب الحياة المختلفة لرقيّ الإنسان وتقدمه . ولقد وردت الإثارة في القرآن الكريم مع العمارة في قوله تعالى : ﴿ كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾(٣).

كما وردت الإثارة بمعنى التحريك في قوله تعالى :﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا ﴾ (٤) .

وكذلك في شق الأرض وحرثها ما جاء في قوله تعالى :﴿ إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ﴾ (٥) .

من هذا نرى أنّ الإثارة والعمارة شاملة لكل ما يمكن استخراجه من خيرات في باطن الأرض ، وما يمكن التوصل إليه من تقدم وعمران على سطحها ، وما يتعلق بذلك من المنافع والخيرات .

---

(١) ، (٢) البحر المحيط جـ٧ ص١٦٤. أبو حيان الأندلسي . دار الفكر بيروت .

(٣) سورة الروم٩ .

(٤) سورة الروم ٤٨ .

(٥) سورة البقرة ٧١ .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، مرتبة كما يلي :

الباب الأول : إعداد الأرض للحياة .

وقسمت هذا الباب إلى أربعة فصول وهي :

الفصل الأول : (سطح الأرض) وقد بيّنت فيه ما هيأه الله من مدّ وتمهيد واتزان في هذه الأرض ، وموافقات منتظمة ، لها أثرها البالغ في حفظ الحياة على الأرض .

الفصل الثاني : (الغلاف الجوي وفوائده) بيّنت فيه أثر الرياح في تسيير الفلك وإثارة السحاب ، وحفظ الغلاف الجوّي ، وآثار الرياح في الحياة على الأرض .

الفصل الثالث : (ما على الأرض من نباتات وحيوانات) بيّنت فيه الفوائد العظيمة والمنافع الجليلة التي يجّل عنها الحصر ، لما بثّه الله تعالى من حيوان وما هيّأه من نبات .

ومن ذلك ظاهرة الهداية في الحيوانات ، وأنها مسخرة بأمر الله لمصلحة الإنسان ، فيجب عليه الاهتمام بها والانتفاع بها ، كما أمر الله من غير لهو أو عبث ، وكذلك تلك الثروات العظيمة في الأشجار والنبات وأثر ذلك في الحياة على الأرض .

الفصل الرابع : (باطن الأرض وما فيه من خيرات) بينت في ذلك ما جاء في الآيات الكريمة من توجيه لاستثمار كنوز الأرض والبحار وما فيها من لحم طريّ ومعادن مختلفة ، وما في مياه البحار والأنهار ، والحكمة فيما بينها من اتصال وانفصال ، وخصائص الماء الفريدة التي جعلته ضروريا لبقاء الحياة واستمرارها .

الباب الثاني : الإنسان القائم على العمارة :

ولقد قسمت هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : (تعريف الإنسان بنفسه وفطرته) وقد بيّنت فيه أصل نشأة الإنسان وحسن تقويمه ، وما فيه من إبداع جسدي ، وأسرار تخلّقه في الأرحام كما يصور ذلك القرآن الكريم والعلم الحديث .

الفصل الثاني : (خلافة الإنسان في الأرض) .

بيّنت اختيار الإنسان للخلافة في الأرض ، ومعنى هذه الخلافة ، وصلة الأمانة بالخلافة .

وما في الإنسان من خصائص جسدية وفكرية ، تجعله خلقا متميزا فريدا عن باقي الخلق ، وليس كما يصوّره الماديون نوعا من الحيوان الراقي .

الباب الثالث : حياة الإنسان على الأرض :

ولقد قسمته إلى فصلين أيضا :

الفصل الأول : (الاهتمام بالإنسان) :

تحدثت فيه عن اهتمام الإسلام بالإنسان ، ومحافظته عليه في أحكامه وتشريعاته بصفته ذلك المخلوق المكرّم عند الله عز وجل .

الفصل الثاني : (علاقة الإنسان بالأرض) :

بينت صلة القرآن الكريم بالعمارة ، وحثه على العمل والاهتمام بمصالح الدنيا، من زراعة وصناعة وغيرها ، وتنظيم ملكية الإنسان للأرض ، فلا يسمح بطغيان نفر من الناس في ملكيتها ، بينما تبقى عامة الأمة عالة يتكففون الناس .

وأشرت إلى أن حياة الإنسان على الأرض ، إنما هي طريق لحياته الأبدية في الآخرة ، فعلى الإنسان أن يهتم بهذه الدنيا لكونها طريقا موصلا إلى الآخرة.أمّا إذا أصبح الاهتمام بذات الدنيا وزخارفها مرافقا للاعراض عن

منهج الله ، فإن في ذلك الهلاك والخسران ، كما وقع ببعض الأمم السالفة التي تحدث عنها القرآن الكريم .

وفي الخاتمة أجملت نتائج هذا البحث ، والتوصيات التي أراها ضرورية في ضوابط مثل هذه الدراسة .

هذا وقد أعدّت هذه الدراسة لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر تحت إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيّد طنطاوي أطال الله عمره [وهو شيخ الأزهر حاليّا سنة ١٤١٨هـ] وتمّت مناقشة هذه الرسالة سنة ١٩٧٩م من قبل كلّ من فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الغني عوض الراجحي يرحمه الله وفضيلة الأستاذ الدكتور الحسيني أبو فرحة أمدّ الله في عمره ، وقد استحقت هذه الرسالة تقدير (جيد جدا) .

وإنني إذ أشكر لأهل العلم فضلهم وعلمهم ، أسأله سبحانه أن يتقبل مني هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

فإن كنت أحسنت فبفضل الله وتوفيقه ، وإن أخطأت فأسأله سبحانه الصفح والمغفرة .

وقد آثرت أن أقدّم هذه الدراسة كما هي دون تعديل أو تقويم ، لتكون صورة عن جهد علمي قدّم قبل أكثر من عقدين من الزمن . وهناك دراسة مستقلة أخرى وملاحظات قد تظهر قريبا (حول هذا الموضوع) ، وأرجو الله تعالى أن يعينني في ذلك .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى ، وأن يهدينا سبلنا إنه سميع قريب مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(البـــاب الأول)

*　　*　　*

إعداد الأرض للحـــياة

الفصل الأول : سطح الأرض .

الفصل الثاني : الغلاف الجوي .

الفصل الثالث : ما على الأرض من نبات وحيوان .

الفصل الرابع : باطن الأرض والبحار وما فيها من خيرات .

*　　*　　*

الفصـــل الأول

(ســطح الأرض)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفصل الأول)

مدّ الأرض وتمهيدها :

إن كتاب الله الكريم الذي بني عليه الإسلام ، وتكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل ، فيه تبيان لكل شيء ، مما يصلح أمر الناس في الدنيا والآخرة . وخفاء بعض ما يراد منه ، يرجع إلى قصور في فهم البشر لا إليه في ذاته بعباراته وإشاراته إلى حقائق الأشياء كلها وصفاتها وشؤونها .

قال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (١) .

وهو مشتمل على جميع القوانين والنظم التي يحتاج إليها البشر وينتظم أمرهم بها في معاشهم ومعادهم .

ولا فرق في ذلك بين الأمور الاقتصادية أو النواحي السياسية أو الأخلاقية والاجتماعية . قال تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٢) .

والإنسان مهما تقدم في علومه الإنسانية أو الرياضية فهو على كثرته قليل من كثير قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (٣) والله عز وجل خلق الإنسان على هذه الأرض من خيرها يتغذى ، وعليها يعيش ، وأودع الله عز وجل في تربتها من الخصب والنماء وقوام الرزق ووسائل الإعمار والتصنيع ، ما يكفيه ويكفي خلفه من بعده .

---

(١) سورة النحل ٨٩ .

(٢) سورة الأنعام ٣٨ .

(٣) سورة الإسراء ٨٥ .

ومن سنن الله تعالى في هذه الأرض ألاّ تجود بخيراتها ما لم يبذل الإنسان جهده في استثمار نبتها ، واستخراج معدنها ، وتفجير مياهها ، وليس في هذه الدنيا شيء إلا سخّره الله تعالى للإنسان حتى مجاهل الأرض وكواكب السماء ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا ﴾ (١) .

وكما جعلت عمارة الأرض من أسباب القوة وزيادة الإنتاج ، جعلت أيضا من أسباب الفوز في الدار الآخرة والثواب العظيم عند رب العالمين ، ودعوة الإسلام إلى عمارة الأرض واستغلالها دعوة قديمة راسخة في الكتب السماوية السابقة قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٢) .

ولو أنّ المسلمين أخذوا بالأسس الثابتة التي وضعها لهم كتاب الله في عمارة الأرض والاستخلاف فيها لتغيّر وضعهم الآن ، ولعادوا سادة الدنيا كما كانوا.

ولو تأملوا ظواهر الإبداع والهداية والتقدير في هذا الكون ، لما تخلّفوا عن غيرهم في علوم الحياة بشتى فروعها وأنواعها .

وقد يتساءل البعض ، لماذا لم يفهم السابقون هذه الآيات الكريمة على المعنى الذي نريد ، وهذه آراء جديدة مستحدثة في عامتها ؟

والجواب ليس بمحيّر فلقد اجتهدوا وفسّروا ، ولهم أقوال في هذه الآيات غلبت عليها علوم زمانهم ، فجاءت بعيدة عما قصده القرآن الكريم ، وأشار

---

(١) سورة الجاثية ١٣ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٥ .

إليه ، ونحن لا نريد أن نسير كما ساروا ، فنفسر الآيات الكريمة بكل ما استحدث من أنواع العلوم غثّها وسمينها ، ولكن نريد أن نتلمس سنن ا لله الثابتة في إعمار هذه الأرض من خلال كتاب ا لله الكريم .

إن هذه الأرض التي نعيش عليها معدّة للحياة ومجهّزة لاستقبالها بكل خصائصها ، على نحو متميّز فريد لم يظهر للآن لنا مثله في هذا الكون الرحيب، فسطحها بمجمله قابل للزراعة والإنبات ، وهناك عوامل متعددة تساعد في توفير هذه الطبقة الصالحة . وهي على قلّة وبساطة عمقها ، فإن لها دورا أساسيا في استمرارية الحضارة على الأرض ، لأنها البيئة الصالحة لنمو النباتات بأنواعها ، وهذه بالتالي تتوقف عليها حياة الإنسان والحيوان .

وهذا الفراش الثمين يساعد في استمراريته وبقائه عوامل متعددة ، منها اختلاف درجة الحرارة بين الليل والنهار في الفصول المختلفة ، والهواء الجوي ومياه الأمطار ، والسيول ، والأنهار ، إذ لذلك دور في عملية حتّ وتعرية الصخور وتفتيتها ، كما تنقل الرياح هذا الفتات وتلقي به في السهول والأراضي المنبسطة .

وتحمل السيول والأنهار معها في مجاريها ترسبات تصلح لتكوين طبقة جديدة صالحة للزراعة . وهذا التمهيد للأرض يفهمه كل إنسان حسب ما آتاه ا لله من فهم وعلم ، ولذلك جاء ذكره في مجال الاستدلال لقدرته تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا﴾ (١) .أي ممهدة للخلائق ذلولا لهم يسكنون على ظهرها(٢).

---

(١) سورة النبأ ٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٤٩٢ ابن كثير دار المعرفة بيروت .

والمهاد الفراش الموطأ ، وفي القاموس (١) المهد الموضع الذي يتهيأ للصبي . وجعل الأرض مهاداً إما في أصل الخليقة أو بعدها ، وليس في ذلك ما ينافي كرويتها كما هو المشهور عند العلماء (٢) قال تعالى:﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا﴾(٣) . والمهاد جمع مهد وهو ما يتخذ للصبي ، وإن كان مفردا الفراش الذي هو أعم من المهد (٤) . وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها (٥) . فهذا المهاد الرباني الذي نحرص عليه من أجل استمرارية حياتنا ، فيه دليل واضح على العناية والرعاية الربانية بحيث يجد الإنسان قوته ، فالحضارة مرهونة بأمتار معدودة من عمق سطح الأرض .

ولقد عّبر الله عزّ وجلّ عن سطح الأرض بالفراش قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ﴾ (٦) ومعنى جعلها فراشا ، جعل بعضها بارزا من الماء وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فإن كروية شكلها مع عظم جرمها مصححة لافتراشها (٧) ، فهي على عظمها وكثرة جبالها ووديانها ممهدة كالفراش مقررة موطأة بالرواسي الشامخات (٨) .

---

(١) القاموس المحيط جـ١ ص٣٥٢ الفيروز آبادي دار الجيل بيروت .

(٢) روح المعاني جـ٣٠ ص٦ الألوسي دار الفكر بيروت .

(٣) سورة الزخرف ١٠ .

(٤) جواهر القرآن جـ٢٥ ص٨ طنطاوي جوهري المكتبة الإسلامية بيروت .

(٥) لسان العرب جـ٣ ص٤١١ ابن منظور دار بيروت للطباعة .

(٦) سورة البقرة ٢٢ .

(٧) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ١ ص٦١ أبو مسعود دار المصحف بالقاهرة .

(٨) تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٥٧ ابن كثير دار المعرفة بيروت .

وذكر الزمخشري في الكشاف أن معنى جعلها فراشا وبساطا ومهادا للناس ، أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده ، وليس في ذلك دليل على أن الأرض مسطحة أو كروية ، فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع بكونها كرة ، لعظم حجمها وتباعد أطرافها ، وإذا كان الافتراش متسهلا في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض ، فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل (١) .

وإذا أدركنا ماهية الفراش بالنسبة إلى السرير ، لأدركنا دقة التشبيه القرآني بجعل سطح هذه الأرض كالفراش بالنسبة لما تحتها من صخور ، ولم يكن التعبير بالفراش والمهاد عبثا أو من قبيل التكرار .

وغني عن البيان أن سنن الله الطبيعية في المحافظة على هذا الفراش ، أفضل بكثير مما يحاول الإنسان أن يبتكره من وسائل مادية مختلفة ، ولقد صرح العلماء الماديون في أكثر من مجال بأن الطبيعة تحافظ على توازنها بالرغم من يد الإنسان التي تعبث فيها هنا وهناك .

فهذا السطح الخارجي للأرض الذي يغلب عليه الماء ، لو انعكست نسبة التوزيع بين الماء واليابس فيه ، لما استمرت حياة على الأرض إذ تقل كمية التبخر تبعا لضيق سطح البحار ، ولأصبحت كمية الأمطار النازلة لا تكفي لنمو النبات .

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٣٤ دار الكتب العلمية طهران - الزمخشري .

هذا عدا عن فوائد اتساع البحار الأخرى ، من تلطيف الجو وامتصاص كمية كبيرة من الغازات السامّة لو بقيت في الجو لأدّت إلى تلوّثه وفساده (١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (٢) تنبيه قرآني إلى كيفية خلق الأرض وشكلها النهائي الذي ذكره الله عز وجل في مقام المنّة والفضل إذ تبع ذلك قوله تعالى : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ (٣) .

ودحاها بسطحها ومهّدها للسكنى ، ولقد فسّر هذا التمهيد بما لا بد منه ، في تأتّي سكنها من أمور المأكل والمشرب ، وإمكان القرار والسكون عليها ، وإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال حتى تستقر ويستقر عليها الناس (٤) .

عن ابن عباس: دحاها بأن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقّق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والآكام ، لتستقر ويستقر أهلها عليها ، وكل ذلك متاع لخلقه ، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها في حياتهم الدنيا ، وذكر الماء والمرعى يدل على عامّة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض (٥) .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٦٣ مؤسسة الحلبي / القاهرة ترجمة : الدمرداش سرحان .

(٢) سورة النازعات ٣٠ .

(٣) سورة النازعات ٣١ .

(٤) الكشاف جـ٤ ص٢١٥ ، ابن كثير جـ٤ ص٤٦٨ .

(٥) ابن كثير جـ٤ ص ٤٦٩ ، قاموس قرآني ص٤٥٠ حسن محمد موسى مطبعة خليل إبراهيم الاسكندرية .

وهذا ما أثبته العلم الحديث إذ أن دحوّ الأرض وإنباتها إنما كان في مرحلة متأخرة عن خلقها وإيجادها (١).

والدحوّ في أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجوز والحصى ورميها ، ويسمون المطر الداحي لأنه يدحو الحصى ، وكذا اللاعب بالجوز وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضي ا لله عنهم بالمداحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الأحجار فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها وإن لم يقع غلب (٢).

وقال الراغب في مفردات القرآن ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أي أزالها عن مقرها كقوله ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ وهو من قولهم دحي المطر الحصى أي جرفها (٣) ، ولكن هناك فرق بين دحوّ الأرض ودحرجتها من مكانها عند التكوين ، ورجفها قبيل خرابها عند قيام الساعة ، ولا يبعد أن يكون المراد لدحوّها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكها (٤) قال تعالى:﴿وكل في فلك يسبحون ﴾ (٥) وهذا لا ينافي ما قيل من أن معنى دحاها بسطها ، أي وسّع فيها ومدّ فيها وأنه سطحها أي جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم (٦).

---

(١) جواهر القرآن. طنطاوي جوهري جـ٢٥ ص٣٨ المكتبة الإسلامية ، بيروت .

(٢) تفسير المنار جـ١ ص٢٤٨ مكتبة القاهرة . محمد رشيد رضا .

(٣) المفردات ص١٦٥ دار المعرفة / بيروت .

(٤) المنار جـ١ ص٢٤٩ .

(٥) سورة يس٤٠ .

(٦) المنار جـ١ ص٢٤٩ .

والعرب تقول دحوت الشيء أدحوه إذا بسطته ، ويقال لعشّ النعامة أُدحيّ ، لأنه مبسوط على وجه الأرض ، وقيل دحاها حرثها وشقّها قاله ابن زيد ، وقيل دحاها مهّدها للأقوات (١) .

وقيل دحاها سواها ، واستشهدوا بقول زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدّها   بأيدٍ وأرسى عليها الجبالا

ولكن الظاهر أن الدحو إنما كان بعد الخلق ، فقد روي أن رجلا قال لابن عباس آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى . ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين ثم استوى إلى السماء .. ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (٣) . فقال ابن عباس إنما أوتيت من قبل رأيك . فإن الله عز وجل إنما خلق الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحى الأرض بعدما خلق السماء (٤) .

---

(١) القرطبي جـ١٠ ص٦٩٩٦ لسان العرب مجلد ١٤ ص٢٥٢ .

(٢) سورة فصّلت ٩ .

(٣) سورة النازعات ٣٠ .

(٤) تفسير الألوسي ١٠٥/٢٤ وقال أخرج هذه الرواية الحاكم والبيهقي بسند صحيح وانظر مذكرة في تفسير سورة فصلت ، للشيخ مصطفى الحديدي الطير .

والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي ، ويستحيل أن يكون هذا الجسم مخلوقا ولا يكون ظاهره مدحوّا مبسوطا .

وقيل لعلّ المراد من الدحوّ إظهاره على هذه الصورة والشكل .

وقيل إن تخلّق القرآن ودحوّها وإخراج مائها ومرعاها وإرساء الجبال عليها ، إنما كان قبل خلق السماء كما يقتضيه ظاهر آية البقرة : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ﴾ (١) .

ونقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السماء مقدّم على خلق الأرض ، واختاره جمع لكنهم قالوا : " إن خلق ما فيها مؤخر ، وأجابوا عن آية البقرة بأن الخلق فيها بمعنى التقدير أو الإيجاد " (٢) .

وهذا المعنى للدحوّ تفسّره آيات قرآنية أخرى بمعنى المدّ والتمهيد قال تعالى : ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة ٢٢ .

(٢) روح المعاني الألوسي جـ٣٠ ص٤٢ دار الفكر بيروت .

(٣) سورة الرعد ٣ .

(٤) سورة الحجر ١٩ .

(٥) سورة ق ٧ .

والمدّ هو البسط والتسوية ، ويقال مددت الأرض مداً إذا زدت فيها ترابا أو سمادا يكون أعمر لها وأكثر ريعا لزرعها (١) .

قال تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ (٢) فهذه الأرض الممدودة الممهدة وضعها الله عز وجل وذللها لتصرف الإنسان ، والانتفاع بصنوف النعم فيها، فلم تستعص في حرثها وتعبيد طرقها وقطع جبالها وإخراج ركازها (٣) .

وقد يكون المراد من الدحوّ أنه عندما فتقها هي والسماوات من المادة الدخانية التي كانت رتقا . وفيه إشارة على الأقل إلى أنها كرة أو كالكرة في الاستدارة، ولا يبعد أن يكون المراد بدحوها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى ، وهذا لا ينافي ما قيل من أن معناه بسطها أو وسّعها ومدّ فيها ، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين ، يقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيّقوا في اللغة والدّين واسعا بقلة بضاعتهم فيهما معا (٤) .

وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السماوات التي فوقنا بالتدريج ، وما أشهدنا خلقهن ، إنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته ، وللامتنان علينا بنعمته ، لا لبيان تاريخ تكوينهما بالترتيب لأن هذا ليس من مقاصد الدين .

---

(١) لسان العرب ابن منظور جـ٣ ص٣٩٧ دار بيروت للطباعة والنشر .

(٢) سورة الرحمن ١١ .

(٣) قاموس قرآني ص٤٥٠ ، حسن محمد موسى مطبعة / خليل إبراهيم الاسكندرية .

(٤) تفسير المنار جـ١ ص٢٤٨ .

فهذه الآيات القرآنية إنما تذكر سطح الأرض ، وتحث على النظر للوقوف على الأسرار المبثوثة في الأرض جميعا ، وتعلّم العلوم للانتفاع بكل ما في الأرض من كنوز وما عليها من خيرات . إذ أن ما في الكون محبوس على منافعنا وهو ما امتاز به الإسلام في تربية الإنسان (١) .

توازن الأرض :

إن توازن الأرض الدقيق مهمّ جدا لاستمرار الحياة عليها ، فلو كانت مائدة مضطربة لما استقر عليها عيش ولا حياة .

ومن أهم عوامل التوازن في سطح هذه الأرض هو ما ذكره القرآن الكريم عن الجبال بقوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ (٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ (٣) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا ﴾ (٤) .

والرواسي هي الجبال ، أرسى الأرض بها وقرّرها وثقّلها لئلّا تميد بالناس – أي تضطرب وتتحرك – فلا يحصل لهم قرار عليها .

---

(١) المنار جـ١ ص٢٤٩ .

(٢) سورة النحل ١٥ .

(٣) سورة النبأ ٧ .

(٤) سورة الأنبياء ٣١ .

والفجاج:السبل،هي الطرق التي تكون بين الجبال ويمكن استخدامها كممرات سهلة التنقل بين البلدان المختلفة (١).

وفي قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ (٢). أي قرّرها وثبّتها وأكّدها في أماكنها . والرواسي هي الجبال الثوابت .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ (٣). إعلام بأن هذه الجبال ثابتة راسية لئلا تميد بأهلها (٤).

وفي قوله تعالى : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ أي جعلها كالأوتاد في الأرض ، أرساها بها وثبّتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها (٥) .

ويرى القرطبي أن وتدية الجبال ، هو لسكون الأرض وعدم انكفائها أو ميلها بأهلها (٦).

ولقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها واستقرت،فتعجب الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا ربّ هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟قال : نعم، الحديد . قالت : يارب . فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟قال : نعم، النار. قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟قال : نعم الماء ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير جـ٣ ص١٧٧ .

(٢) سورة النازعات ٣٠ .

(٣) سورة الغاشية ١٩ .

(٤) ابن كثير جـ٤ ص٥٠٣ .

(٥) ابن كثير جـ٤ ص٤٦٢ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي جـ١٠ ص٦٩٦٢ دار الشعب القاهرة .

قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟قال : نعم،الريح قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله) (١) .

وكأنّ في هذا الحديث إشارة إلى أن هذه المخلوقات مسخّرة جميعا لهذا الإنسان الذي يسيطر عليها ويستغلها ويستفيد منها وهو أقوى منها جميعا .

ومازال العلم يكشف الجديد كلّ يوم حول أهمية وجود الجبال في حفظ توازن الأرض ، وإن كان لم يستقر به الحال إلى رأي قاطع عن كيفية عمل الجبال في حفظ هذا الاتزان .

ولقد ذهب العلماء في تفسير ظاهرة وجود الجبال إلى آراء متعددة كلها تكاد تتضافر على رأي وهو أن هذه الجبال تحفظ الأرض وسطحها من الميدان والاضطراب .

ومن هذه الآراء أن كلّ جبل من الجبال يكون غائصا في المادة الصلبة التي يرتكز عليها ، فهو في وضعه يشبه جبل الجليد الطافي على سطح الماء ، جزء منه تحت الماء وجزء آخر أعلى منه (٢) . وهو بهذا الوضع وتد في الأرض يساعد بثقله الكبير على حفظ توازنها أثناء دورانها المستمر .

ومعنى الوتدية واضح هنا تمام الوضوح ، إذ ينزل منه جزء إلى الطبقة الأكثف وهي التي يسمونها (سيما) بينما الجزء الظاهر من الجبل هو في طبقة أخرى يسمونها (سيال) فهو يحفظ تماسك طبقتي الأرض كالمسنّنات .

---

(١) التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول منصور علي ناصف جـ٤ ص٧٠ دار إحياء التراث العربي بيروت ، والترمذي في التفسير جـ٥ ص٤٥٤ ، مسند أحمد جـ٣ ص١٢٤ المكتب الإسلامي بيروت .

(٢) كوكبنا النابض بالحياة ص٦٠ محمد سعيد النعناعي/دار نهضة مصر .

وصورة الوتد هنا واضحة تماما حسّا ومعنى ، ولا شك أن من وظائف الجبال حفظ توازن القشرة الأرضية بالإضافة إلى العمل على تماسك طبقات القشرة الأرضية الصلبة كما تمسك الأوتاد بالخيمة (١) .

ويقول العالم الجيولوجي (أ . فيشر) " إن البحث يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوي غازات مذابة وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة في منصهر سائل مادته أثقل من مادتها " (٢).

ومعلوم أن متوسط كثافة السفينة أقل من كثافة الماء ، ولذا عبر تعالى بقوله (أرسى ، أرساها) ولذلك نجد القرآن الكريم يذكر الجبال الرواسي مقرونة بمنع ميدان الأرض في قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ (٣) .

كما يذكر الجبال الرواسي تابعة للأرض الممدودة الممهّدة ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ (٤) .

﴿ وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ﴾ (٥) .

فمدّ الأرض كان قبل إرساء الرواسي لتثبيتها ، وبالتالي هناك إشارة إلى علاقة ما بين مدّ الأرض وإرساء الرواسي ، وهو أن تفتّت الجبال بعوامل الحتّ المختلفة يزيد في مدّ هذه الأرض وتمهيدها .

---

(١) الله والكون ص٢١٩ محمد جمال الدين الفندي/الهيئة المصرية العامة للتأليف .

(٢) الإسلام في عصر العلم ص٢٩٣ محمد أحمد الغمراوي مطبعة السعادة القاهرة .

(٣) سورة النحل ١٥ .

(٤) سورة الحجر ١٩ .

(٥) سورة الرعد ٣ .

وهناك رأي آخر يقول إن التوازن كائن في اختلاف الكثافة ، فالجبال على ارتفاعها يقابلها في الطرف الآخر في أعماق المحيطات طبقات شديدة الكثافة ، وبالتالي لابد من بروز هذه الجبال لتحفظ التوازن مع الطبقات الصخرية الكثيفة (1) فكان وجود الجبال لتثقيل المناطق الموجودة بها ، لأن كثافة الصخور فيها أقل من الصخور الموجودة في أسافل البحار ، فكان وجودها لاستمرارية التوازن والتعادل بين تلك المناطق .

وقشرة الأرض ميزان دقيق وحساس ، فكل مكان فيها متزن مع الآخر والمعروف أن الميزان الدقيق تتزن فيه الكفتان تماما ، ويظل هذا الاتزان قائما مادامت الأثقال التي على إحدى الكفتين تساوي التي على الكفة الأخرى ، فإذا تغير الثقل على إحدى الكفتين اضطربت هذه الكفة وتأثرت المقابلة لها حتما " (2) .

وهناك تحليل آخر قريب من هذا مؤدّاه " أنّ الأرض في دورانها المستمر حول نفسها لها محور ثابت ، ومعلوم أن الجسم المتماثل في الكتلة لا يضطرب إذا دار حول محور ، والأرض لاتضطرب ولا تميد في دورانها ، فلا بد طبقا لذلك أن أيّ مستوى يقطع الأرض مارّا بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين في الكتلة لكل جزء في أحد القسمين نظير في القسم الآخر ، يساويه في الكتلة والوزن لا في الهيئة والحجم " (3) .

---

(1) كوكبنا النابض بالحياة ص٦٠ .

(2) الله والكون ص٢٢٣ .

(3) الإسلام في عصر العلم ص٣٠١ .

وكأنّ الجبال أثقال على كفتي ميزان تحفظ التوازن الدقيق على هذه الأرض التي يتصل عيشهم بها وعليها يتوقف صفاؤهم .
ولا شك أن ثقل الجبال وارتفاعها له أثره في الجاذبية بشكل من الأشكال ، فهي تحافظ على الغلاف الجوي وتثبته كالأوتاد ولو نقصت الأرض بقدر كتلة جبالها فربما تكون غير قادرة على الاحتفاظ بالغلاف الجوي المحيط بها (١) .
ولكن على هذا المعنى يمكن أن يكون دور الجبال أحد جوانب التثبيت ، ويمكن أن يكون هذا التفسير شيقا وملفتا للنظر ، ولكن الآيات القرآنية تؤكد أن الجبال رواسي في الأرض خشية أن تميد بكم ، ومعلوم أن انفلات الغلاف الجوي أو تخلخله يؤثر في حياة البشر بشكل مخيف وعلى هذا يكون الميدان والاضطراب في حياة الناس على الأرض وليس في حفظ توازن الأرض ذاتها .
ولقد ذهب البعض إلى معنى آخر لوتديّة الجبال ، فقال إنّ الخيمة في العادة تكون ملفوفة على الأوتاد ، ثم تنحل عنها رويداً رويداً عند إرادة نشرها وبسطها . وطبقات سطح الأرض ملفوفة ثم تتحلل بفعل عوامل الحت والتعرية فيتكوّن سطح الأرض وتنتقل إلى منطقة أخرى لتشكل خيمة مفروشة هناك ، وتهبط الأرض في المناطق التي وصلتها الطبقة الرسوبية وترتفع في المناطق التي تأثرت بعوامل التعرية وبذلك يتحقق التوازن (٢) .
وأعتقد أن هذا الرأي فيه من التكلف ما فيه ، فالضغط العنيف على كلمات الآية لتوافق ظاهرة علمية ليست له ضرورة ، ولست أدري أيّ فائدة لوجود الجبال إذا اعتبرناها أوتادا ملفوفة داخل طيّات الخيمة .

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص٢٩٠ .

(٢) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٣٩٦ دار المعارف بمصر .

وكثيرا ما تكون أوتاد الخيمة بارزة للخارج أثناء لفّ القماش ، ناهيك عن أنّ القماش ليس من جنس الأوتاد ، ويمكن أن يكون ما ذكر حول ظاهرة الحتّ والتعرية في الجبال ، هو مزيد فرش وتمهيد لسطح الأرض حتى تزداد الطبقة الصالحة للزراعة وتصبح أكثر فائدة للإنسان .

فوائد الجبال :

وللجبال فوائد متعددة بالإضافة إلى حفظها لتوازن الأرض ، فقممها المرتفعة تلاقي السحب والغيوم المحمّلة بالمطر ، فيتكاثف بخار الماء وينزل غيثا فيه خير الناس وسعادتهم ، وتظهر بجانبها الينابيع العذبة يرتوي منها الناس ، ولذا نرى الترابط الجميل في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ (١) .

فبعد ذكر الجبال يأتي الماء الفرات الذي إما أن ينزل نتيجة لاصطدام السحاب بهذه الجبال وتكاثف بخار الماء ، وإما أن يراد به الماء المخزون في الوديان والممرات أسافل الجبال فيخرج منه ماء طاهر سائغ للشاربين .

وفي قوله تعالى : ﴿ وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج ﴾ (٢) ففي هذه الآية تذكير بما للجبال من دور في إنزال المطر المنبت للزرع (٣) .

---

(١) سورة المرسلات ٢٧ .

(٢) سورة ق ٧ .

(٣) قاموس قرآني ص٤٤٩ .

" والجبال مصايف جميلة عند ارتفاع درجة الحرارة صيفا لانخفاض الحـرارة في أعاليها ، كما تحد من سرعة الريـاح القوية العنيفـة ، وعلى جنباتها الفجـاج والسبل ليعرف النـاس طرقهم ومقاصدهم في هـذه الأرض " ﴿ فجاجا سبلا لعلهم يهتـدون ﴾ (١) . واتخاذ القصور والبيوت الحجرية منها من نعـم الله الواسعة على عباده قال تعالى : ﴿ وبوّأكـم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا ﴾ (٢) .

واتخاذ الأكنان في الجبال وذكرها مع السرابيل التي تقي البرد والحـر ، إشارة لطيفة إلى أن هذه الأكنان والبيوت المتخذة من الحجارة تقي الإنسان الحـر والبرد أكثر من غيرها ، قال تعالى : ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبـال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكـم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ (٣) .

وثبت علميّا أنّ هذه البيوت المتّخذة من الحجارة أكثر ملائمة للإنسـان ، فهي في الشتاء تمنع من وصول البرودة داخل البيت ، وفي الصيف كذلك تمنع وصول الحرارة الشديدة وتحتفظ بهواء لطيف في داخلها فتوفّر الدفء للإنسان شتاء والبرودة صيفا ، بعكس البيوت المبنيّة بالطّوب الاسمنتي بسبب سرعة توصيل الطّوب الاسمنتي للحرارة والبرودة .

هذا فضلا عن احتفـاظ الجبال بثروة ضرورية لسعادة الإنسان من المعادن المتنوعة التي لا غنى عنها .

---

(١) سورة الأنبياء ٣١ .

(٢) سورة الأعراف ٧٣ .

(٣) سورة النحل ٨١ .

وزيادة على ذلك فلقد اكتشف مؤخرا أن القارة الأمريكية ، تندفع بسرعة تزيد عن المتر في السنة ، وهذه القوة يمكن أن تدفع القارة بسرعة كيلو مترات عديدة لو كانت ملساء السطح ، ملساء القعر ، أي لو لم يكن عليها الجبال لامتنعت فوقها الحياة الحضارية (١). وهذا ما يسمّى علميّا بظاهرة انسياح القارّات .

وفي قوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك إنما يخشى ا لله من عباده العلماء ﴾ (٢) لك أن تعلم مدى ما تثيره هذه الآية القرآنية من شعور بروعة خلق ا لله ، ومطابقة أدقّ ما توصل إليه العلم الحديث ، لما تضمّنته هذه الآية الكريمة من علم ، ونذكر هنا ما حدث مع العالم الهندي المسلم الدكتور (عناية ا لله المشرقي) عندما قابل عالم الفلك الفرنسي الشهير (السير جيمس) وبدأ الحديث حول التفاصيل العلمية الدقيقة المبثوثة في الكون .

ويقرأ الشيخ المسلم على ذلك العالم الفلكي هذه الآية الكريمة وإذا بذلك العالم الفرنسي يصيح : " إن هذا مدهش وغريب ، فالأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة لخصّها كتابكم في كلمات قليلة . اكتب عنّي شهادة أنّ القرآن كتابٌ موحى من عند ا لله عز وجل " (٣) .

---

(١) براهين ص٣٢ / محمود القاسم. دار الهجرة دمشق .

(٢) سورة فاطر ٢٦ .

(٣) الإسلام يتحدى ص١٣٣ وحيد الدين خان / المختار الإسلامي ، القاهرة .

موقع الأرض وحركتها :

يلاحظ أن حجم الأرض وموقعها وحركتها غاية في التصميم والروعة ، بحيث لو اختلّ أيّ منها عمّا هي عليه لتعذّرت الحياة على الأرض .

فأيّ اختلال في موقعها أو سرعة أو تباطئ في حركتها أو زيادة ونقصان في حجمها يؤثر في الحياة عليها تأثيرا خطيرا ويهدّد حياة الإنسان عليها .

فلو كان قطرها ربع القطر الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي، ولأصبحت درجة الحرارة تؤدّي إلى الموت .

ولوزاد هذا القطر إلى الضعف ، لزادت مساحة الأرض الباردة فيها كثيرا ، ولتضاعف الضغط الجوي وتناقصت الأرض الصالحة للسكنى نقصا ذريعا وأصبحت غير قابلة لمعيشة الإنسان (١) .

هذا بالإضافة إلى موقع الأرض نفسها بالنسبة للشمس ، فلو تضاعفت هذه المسافة لتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض ، ولو نقصت المسافة إلى نصف ما هي عليه ، لصارت الحياة على ظهرها لا تطاق من شدة الحرارة (٢) .

وموقع الأرض من حيث هي أصلح المواقع لتوفّر هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة في الصورة التي نعرفها ، ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن .

فعلى الرغم من الاكتشافات المذهلة في مجال الفلك والتعرف على عدد هائل من النجوم ، لم يتوصل بعد إلى حياة كاملة كالتي نحياها على سطح الأرض .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٨ ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة .

(٢) قصة الإيمان ص٣١٧ نديم الجسر المكتبة الإسلامية بيروت .

ويذكر القرآن الكريم تعاقب الليل والنهار في أكثر من موضع حيث يقول ا لله عز وجل : ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ﴾ (١) .

في الآية بيان واضح أن تعاقب الليل والنهار ودحوّ الأرض وإخراج الماء كلّ ذلك من نعم ا لله على عباده ، لا تستقرّ حياتهم بدونها ، ولا أحد يستطيع أن يغفل التتابع والترابط بين دحوّ الأرض وإغطاش الليل وإخراج النهار .

فالعلاقة بينهما أكيدة ولا انفكاك بينهما . ثم عند ذكر الماء في قوله تعالى : ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ إشارة إلى أن الماء كلّه سواء ما كان ينابيع في الأرض أم مطراً من السماء إنما هو ماء الأرض منها وإليها .

وفي قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكلّ شيء فصّلناه تفصيلا ﴾ (٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾ (٣) .

في الآية كما نرى نص صريح في كروية الأرض وفي بيان حقيقة الليل والنهار(٤) على الوجه المعروف : ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ﴾ (٥) .

---

(١) سورة النازعات ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء ١٢ .

(٣) سورة الزمر ٥ .

(٤) المنار جـ١ ص٢١٠ .

(٥) سورة الأعراف ٥٤ .

وهذا التعاقب بين الليل والنهار من أكبر النعم على الإنسان وأجلّها ، وفي الليل يرتاح جسد الإنسان من كدّ النهار وأعبائه قال تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ (١) .

فأكثر الأحياء من الإنس والحيوان تترك العمل والسعي في الليل ، وتأوي إلى مساكنها للراحة ، حيث تسكن خواطرها وترتاح أعضاؤها ، فعند النوم يقلّ إفراز خلايا الجسم من السوائل والعصارات ويبطئ التنفس ويقلّ ضغط الدم في الشرايين ويستريح الجهاز العصبي ويقلّ إخراج الفضلات ، وتستريح الأعضاء والدماغ لتجدد نشاطها في اليوم التالي (٢) .

والتناسق ظاهر بين الإنسان والكون ، فالإنسان يعمل ويكدّ ثم يحتاج إلى وقت يستريح فيه ، فيأتيه الليل لنومه ويكون النهار لعمله وسعيه .

ولم تكتف الآيات القرآنية ببيان الحكمة من تعاقب الليل والنهار ، بل وجّهت الأنظار إلى البحث عن السر الكامن وراء تلك الظاهرة ، فتكوير الليل على النهار والنهار على الليل،وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل بتعاقب منظّم، مدعاة للنظر والبحث ، لأصحاب الألباب ، ليتدبروا آيات الله في الكون ويصلوا إلى أسرارها ومبادئها فيدركوا أن هذا التنظيم والإبداع من صنع العليم الخبير فيفردوه بالعبودية ولا يختاروا على حكمه وشرعه شيئا سواه .

---

(١) سورة الروم ٢٣ .

(٢) المنار جـ٧ ص٦٣٥ .

ولو فصّلت الآيات القرآنية للناس في ذلك العهد هذه الظواهر ، فبيّنت أسرار هذا التعاقب بين الليل والنهار ، وأن سببه دوران الأرض حول نفسها ، ومقابلتها للشمس في ذلك الدوران على محور ثابت مائل على خط الأفق ، لما صدّق بذلك أحد ، ولكان ذلك مدعاة إلى عدم إيمانهم ، ولكن الآيات القرآنية توجه الأنظار إلى البحث وراء هذه الظواهر ، وبيّنت الحكمة من وجودها وأنها مسخرة لما فيه خير الإنسان .

وهذا التسخير يفهمه كلّ أناس وفق ما آتاهم الله عز وجل من العلم والفهم ، وفي هذا الزمان الذي استطاع فيه الإنسان أن يصل إلى مستوى علميّ متقدم ، نراه يكشف عن ذلك التدبير الحكيم وراء هذه الظاهرة التي لا تثير في كثير من الناس نظرا ولا تدبرا لتكرّرها وطول الألفة بها .

فيقرّر العلماء أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ومن دورانها حول نفسها تنشأ ظاهرة الليل والنهار .

وهذا الدوران وحده لا يكفي ، فعطارد مثلا يدور حول نفسه وحول الشمس ولكن نصفه شمس ونصف الآخر زمهرير لأنه يقابل الشمس بوجه واحد في دورانه بعكس الأرض التي يتغير وجهها المقابل للشمس باستمرار أثناء دورانهاوذلك لأن محور دورانها يميل عن خط الأفق بزاوية مقدارها (٢٣°) وهذا المدار الإهليجي للأرض حول الشمس له أثره في تغيّر الفصول ، وبالتالي تتغيّر ظروف الطقس فينشأ من هذا الاختلاف تنوع في النباتات والأشجار مما يزيد من سعادة الإنسان وهنائه (١) .

---

(١) قصة الإيمان ص٣٢٢ .

ولو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل كما ذكرنا ، لاختلّ نظام الفصول الأربعة ، ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق في صيف دائم وشمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام الثلوج .

ولو أن درجة هذا الميل زادت عمّا هي عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين إمّا في ليل وشتاء طويل أو في نهار وصيف طويل (١) .

ولذلك ذكر الله عز وجل تعاقب الليل والنهار في مقام الامتنان بقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾(٢).

ونستطيع أن نؤكد أن ظروف الأرض فريدة من نوعها بين الكواكب والنجوم المحيطة بها ، فالزهرة مثلا تشبه عطارد بأنها تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس وتبلغ درجة حرارته ٩٠ مئوية بينما الوجه الآخر تصل درجة حرارته إلى ٢٠ مئوية تحت الصفر . وهي خلوّ من الماء والهواء .

والمريخ ببعده عن الشمس تصل درجة حرارته نهارا إلى بضع درجات فوق الصفر وفي الليل إلى ٧٠ مئوية تحت الصفر (٣) .

---

(١) قصة الإيمان ص٣٢٢ .

(٢) سورة القصص ٧١ .

(٣) قصة الإيمان ص٣١٦ .

ولو تتبعنا باقي الكواكب في المجموعة الشمسية لوجدناها على هذا الحال بظروفها المحيطة بها وبتكوينها لا تصلح لظهور الحياة عليها ؟ فكان إعداد الأرض من بينها ، دليل على أن العناية الربانية اهتمت بهذا الإنسان فهيأت له الظروف المناسبة من حوله ، ورسمت له منهج السعادة ، ولكن أنّى لهذا المخلوق الضعيف المتكبّر أن يعي . قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾[1] .

وحياة الإنسان على الأرض هادئة مستقرة فلو كانت أصغر مما هي عليه ، لما استطاع الاحتفاظ بخطواته الواثقة على الأرض ، ولو زادت عما هي عليه لاضطر إلى قلع جسمه قلعاً إذا استطاع الحراك .

ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية التي تلصقنا بالأرض ، وقوة البعد عن المركز التي تطردنا عن سطحها ، لطِرْنا وطارت بيوتنا ، وما كان هذا ليتم لو تغيّرت قوة جذب الأرض زيادة أو نقصا [2] . قال تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا ﴾ [3] .

وربما يجهل الكثيرون أن الأرض أكثف السيّارات بمجموعتنا ، بل إنها أكثف من الشمس ، وكثافة الشمس تبلغ ربع كثافة الأرض ، وهذه الكثافة لها أثرها في الجاذبية فتحافظ على غلافها الجوي ، كما أنها متناسبة مع الحجم والسرعة، فلو تغيّر أي منها لتغيّر نظام الأرض .

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥ .

(٢) قصة الإيمان ص٣٢٠ .

(٣) سورة غافر ٦٤ .

فالأرض التي تسير بسرعة (ألف ميل / الساعة) لو انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة ، لترتب على ذلك أن تحرق الشمس كل شيء فوق الأرض وما بقي بعد ذلك ستقضي عليه برودة الليل الشديدة (١) .

ولقد نبهت الآيات الكريمة إلى صلة الأرض بالقمر في أكثر من موضع فقال سبحانه :﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) .

وقال عزّ وجلّ :﴿ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(٤).

فالقمر نور ، وإضاءته مستمدّة وليست ذاتية . وقدّره منازل لمعرفة عدد السنين وحساب الأيام .

وهو بموقعه المناسب له تأثيره في حركة المدّ والجزر والفيضان ، بالإضافة إلى ما يثيره القمر في النفس من معان شعورية جمالية وخاصة في ليالي الريف الهادئة الوادعة .

---

(١) الإسلام يتحدى ص٤٨ وحيد الدين خان .

(٢) سورة يس ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام ٩٦ .

(٤) سورة يونس ٥ .

والنجوم البعيدة لها أثرها كذلك في حياة الناس على الأرض ، ولذا ذكرها الله عز وجل بقوله : ﴿ هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر ﴾ (١) .

ولقد برع العرب والمسلمون في الاستعانة بهذه النجوم في ظلمات البرّ والبحر، واستفادوا فائدة جليلة من مواقع النجوم في السماء فطافوا مسالك الأرض في برّها وبحرها ، ولقد ألّفت كتب مختلفة في هذا الموضوع ، وهي وإن قلّ الاعتماد عليها في مجال الاهتداء لمعرفة الطرق والجهات إلا أن الاهتمام بها قد زاد في مجال الكشف عنها والبحث عن أسرارها .

---

(١) سورة الأنعام ٩٧ .

الفصل الثاني

(الغلاف الجوي)

((الفصـــل الثاني))

الغلاف الجـــوي

إثارة الرياح للسحاب :

لقد وجّه الله سبحانه وتعالى نظر الإنسان ودعاه إلى الاهتمام والبحث بكلّ ما يحيط به ، موجها تفكيره إلى أن هذه الظواهر الطبيعية المحيطة به وراءها أسرار وأسباب أشار القرآن الكريم إلى بعضها ، وترك للفكر الإنساني أن يدرسها ويتوسع فيها ، وأزال من العقول تلك الأوهام والأساطير المتعلقة بتلك الظواهر ، فاتحاً له باب النظر والاستقصاء وراء كل ما يشاهده .

ومن المعلوم أنّ جوّ الأرض المحيط بها له أثره البالغ في الحياة على سطحها ، ولذلك نرى الآيات القرآنية توجّه النظر في أكثر من موضع إلى هذه النعمة الجليلة وتأثيرها الحاسم في حياة الإنسان على الأرض واصفة إياها بشكل علميّ دقيق ، جعلت غفلتنا عن فهم مراد هذه الآيات ألماً وحسرة في صدورنا، إذ سبقنا غيرنا إلى ما كان من حقّنا أن نسبقهم إليه في تحليل هذه الظواهر والاستفادة منها .

ففي قوله تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ (١) .

---

(١) سورة الروم ٢٧ .

فالإرسال هو الإطلاق مع التوجيه . والإثارة هي الهيجان والظهور معا والبسط هو النشر . والكسف جمع كسفة وهي القطعة . والودق هو المطر .

في الآية تنبيه واضح بأن الرياح تثير السحاب وتبسطه في السماء ، وهذه الرياح تهيج السحاب وتظهره ، بعد أن تثيره بتلقيحه ببخار الماء ونوى التكاثف لكي يوجد المطر (١) .

وعندما حاول الإنسان أن يقلّد صنع الله في إنزال المطر الصناعي وقام بتغذية السحب بنوى التكاثف الصناعية ، لم تنجح تلك العملية نجاحا تاما لأنه لا بدّ من توفير الرياح الصاعدة التي تلقّح السحب ببخار الماء ، وتوفير الرياح بحاجة إلى تدبير كبير وتكاليف أكبر (٢) .

وأهم مصادر نوى التكاثف في السحب أملاح البحار والأكاسيد الناجمة عن احتراق الشهب في أعالي الجو ، وبذلك فإن كثرة احتراق الشهب إحدى علامات موسم أمطار جيّد .

كما أنّ بخار الماء المتصاعد من المحيطات يحمل معه الكهرباء إلى طبقات الجوّ العليا ، وكل جزء من جزيئات هذا البخار المكهرب كغيره من الأيونات يصحّ أن يكون نواه يتكاثف عليها البخار (٣) .

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٢٦٣ .

(٢) رسالة العلم والإيمان ص٣٩ محمد جمال الدين الفندي / المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة.

(٣) الإسلام في عصر العلم ص٣٤٢ .

كما أنّ أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أيّنته ، وكذلك الأشعة النافذة التي تخرج من العناصر المشعة الموجودة في القشرة الأرضية .

ولقد استطاع الإنسان أن يوجد نوى تكاثف صناعية ، إلا أنها سريعة التلف ، ولا يفهم من ذلك أنهم استطاعوا تكوين السحاب وإنزال المطر فهذا أمر ما زال بعيد المنال ، ولقد قرّر مهندس عام الأرصاد الجوية في دائرة المعارف (أونيفر ساليس) أنه لن يمكن أبدا إسقاط المطر من سحابة لا تحتوي على سمات السحابة القابلة للهطول أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور أو النضج .

وبالتالي فإن الإنسان يستطيع أن يعجّل بعملية هطول المطر على شرط أن تكون الظروف الطبيعية لذلك جاهزة سلفا (١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميّت ﴾ (٢) .

جاء تعبير الإثارة مع السوق هنا ، ومن معاني الإثارة كما ذكرنا الهيجان والظهور ، ولا يصح أن يكون معنى الإثارة هنا هو الظهور فقط لأن ذلك إنما يتم بعد أن تعمل على تكاثف جزيئات بخار الماء .

ويصح أن يكون المراد هنا بالإظهار هو إظهار السحاب بعد خفائه بالمساعدة في تكوينه .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص٢٠٣ / موريس بوكاي. دار المعارف بالقاهرة.

(٢) سورة فاطر ٩ .

وتحوّل هذه القطيرات السحابية ، تتحكّم فيه عدة عوامل أهمها الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، ولكن العلم لم يستطع للآن أن يبتّ في كيفية ذلك التحول تماما (١) .

ففي قوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾ (٢) .

يمكن أن يكون التلقيح هنا هو ما يتم في السحاب بين الموجب والسالب ، لأن ما بعدها يتكلم عن إنزال الماء من السماء ، والعلاقة قوية بين إنزال الماء والتلقيح بين السحب ، ومن يرى أنّ التلقيح إنّما يقصد به التلقيح بين أصناف النباتات ، فتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى فيتمّ التكثير في إعطاء الثمار. وفي ذلك أيضا دعوة إلى الاهتمام بظواهر الطبيعة والاستفادة منها وتأكيد على أنّ ما يجري في هذا الكون المترامي إنّما يتم بعناية فائقة لحن أجدر أن نتلمّس عللها وأسبابها ونستفيد من نتائجها .

ولقد ذكر الألوسي في تفسيره أن الله تعالى أرسل الرياح مبشرات أو ناشرات للسحب ، من النشر بمعنى البعث أي باعثات للسحاب أو بمعنى التفريق أي سائقات للسحاب (٣) .

وفي قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلّف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ (٤) .

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص٣٤٢ .

(٢) سورة الحجر ٢٢ .

(٣) روح المعاني جـ٢١ ص٥٢ ، الألوسي .

(٤) سورة النور ٤٣ .

بيان أنّ الله عزّ وجل يسوق السحاب بقدرته ويؤلّف بينه ، ثم يجعله مجتمعاً بعضه فوق بعض ، فترى المطر يخرج من خلاله ، وينزل البرد من سحب كأنها الجبال في عظمها ، ويتبع ذلك برق شديد السرعة يكاد يخطف بالأبصار ، وهذا الإزجاء إمّا أن يكون بمعنى إعداد سحاب من صنف واحد ، وإمّا أن يكون إعداد كتل سحابية من صنفين أحدهما موجب والآخر سالب .

وبعد أن عبّر الله تعالى عن إعداد السحب ذي الحالتين المتضادّتين للاجتماع ذكر أنه يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتصبح السحب بعضها مركوم فوق بعض قد تمتد رأسيا إلى علو ١٥كم فتصير كالجبل الشامخ فينزل منها البرد (١) .

والبرق ينتج عن السحب الركامية أكثر من غيرها ، ففي بعض المناطق الحارّة يحدث البرق في السحابة الركامية الواحدة بمعدل أربعين مرة في الدقيقة ، وبالتالي فإن البرق يشكل خطراً على الناس وخاصة الطيارين الذين قد يأخذ ببصرهم فيصابون بالعمى أحيانا .

ولقد ذكر القرآن الكريم البرق في موضع ذكر السحاب الثقال المركوم فقال عز وجل:﴿وهو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ﴾(٢) .

وقد يكون في هذه الآية تقديم وتأخير تقديره ينشئ السحاب الثقال ويريكم البرق الحادث خوفا وطمعا (٣) . لأن واو العطف هنا لا تفيد الترتيب، ولأنّه قد ورد في سورة النور ، أنّ البرق يحدث من السحاب المتراكم الضخم الثقيل .

---

(١) رسالة العلم والإيمان ص٣٧ .

(٢) سورة الرعد ١٢ .

(٣) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٣٧٠ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ (١) .

بيّن تعالى أنه مع إنشاء السحاب الثقال ، يحدث البرق والرعد والصواعق ، ومن ذكر البرد مع السحب الركامية المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها الجبال ما يفيد أن هناك في طبقات الجو العليا مناطق باردة جدا، لأنّ هذا البرد يتشكّل في طبقات الجوّ العليا .

وهذا البرق الذي يأخذ بالأبصار ، إنما يحدث بمرور الكهرباء في الهواء بين كتل السحاب نتيجة التفريغ الكهربائي ، فيسخّن الهواء إلى درجة كبيرة ، ويتمدد بسرعة ثم يبرد بسرعة ويرجع إلى حالته الأصلية بسبب برودة الجو فيتولّد من هذا التمدد والانكماش موجات صوتية عظيمة يصدر عنها الرعد .

ومعلوم أنّ سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت ولذلك نرى البرق أوّلاً ثم الرعد .

وللبرق أثره في تثبيت النيتروجين في التربة ، وبذلك يكون عاملا مهمّا بالمساعدة على توفير التربة الغنية الصالحة للزراعة ، لأن ذلك يؤدي إلى تكوين أكاسيد النيتروجين التي تحصل عليها التربة على صورة نيترات بما يقرب من خمسة أرطال للفدّان الواحد سنويّا ، وهو ما يعادل ٣٠ رطلا من نترات الصوديوم (٢) .

---

(١) سورة الرّعد ١٣ .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص١٢٠ .

قال تعالى : ﴿ وهوالذي يريكم البرق خوفا وطمعا ﴾ (١) فكمـا ينتـج عـن البرق الصواعق ، ينتج عنه المطر الغزير والبرد ، وكثير ممـا ينفـع الإنسـان ، عَلِمـه من علمه وجهله من جهله .

ولقد ذكرت العلاقة بين الرياح والسحاب ، أكثر من آية قرآنيـة توجّـه الأنظـار إلى الفهم والاعتبار .

منها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابـة وتصريف الرياح والسحاب المسـخّر بين السـماء والأرض ﴾ (٢) .

وفي سورة الأعراف نقرأ قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بـين يـدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به مـن كلّ الثمـرات ﴾ (٣) . ويقـول عـزّ وجـلّ في سـورة فـاطر : ﴿ والله الـذي يرسـل الريـاح فتثير سحـابا فسقناه إلى بلـد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ (٤) .

فالرياح بشرى بين يدي رحمته تؤذن ببدأ تكوّن السحاب ثم يساق هذا السحاب إلى البلد الميّت فيخرج به من الثمرات المختلفة ما فيه صـلاح الإنسـان والنبـات وباقي الكائنات .

وفي ذكر السحاب بعد تصريف الرياح تنبيـه إلى أنهـا هـي الـتي تثيره وتجمعـه ، وهي التي تسوقه إلى حيث يمطر،فيتفرق شمله أحيـاناً.

---

(١) سورة الرعد ١٣ .

(٢) سورة البقرة ١٦٤ .

(٣) سورة الأعراف ٥٧ .

(٤) سورة فاطر ٩ .

مع أنه سببه المباشر ليرشدنا إلى أنه في نفسه آية ، فهو يتكون بنظام ويعترض بين السماء والأرض بنظام . ومن له عقل فإنه ينظر في هذه الأسباب والحكم والأسرار ويميز بين المنافع والمضار (١) .

قال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ (٢) .

فالرياح تثير بخار الماء في الجوّ حتى يتكاثف بالبرودة ، ويكون كسفاً يتحلّل منه الماء ويخرج من خلاله . فيستبشر به الناس وتهتز الأرض وتربو وتخرج من أصناف النبات المختلفة من كل زوج بهيج (٣) .

والهواء عامل مهم من عوامل الحياة على الأرض ، فلولاه لما وجدت حياة نباتية أو حيوانية على هذه الأرض ، وكلّ ذلك بتقدير الله عزّ وجل .

فالإنسان والحيوان يستنشق الهواء فيأخذ الأكسجين حيث يطهّر دماءها من الكربون السام ، ويخرج بالتنفس إلى الجوّ ويتغذى به النبات .

ولو احتبس ما يتولد في دم الإنسان من السموم لمات مسموما ، كما يحدث للغريق بعدم دخول الهواء إلى رئتيه (٤) .

---

(١) المنار جـ٢ ص٦٣ .

(٢) سورة الروم ٤٨ .

(٣) المنار جـ٢ ص٦٠ .

(٤) المنار جـ٨ ص٤٨٨ .

والهواء ضروري أيضا للحيوانات البحرية ، فهي تمتصّ الأكسجين مذابا في ماء البحار ، كما أنه يساعد جذور النبات على امتصاص الغذاء من التربة (١) .

والهواء يمتصّ السموم التي تخرج من بدن الإنسان على شكل عرق ، ويبخّرها ويدفعها إلى الجوّ الواسع .

ولو اعتمد على ما يدخل الرئتين ويخرج منها لما كفت في وقاية الإنسان والحيوان من السموم التي يحملها دمه باستمرار (٢) .

ومن منافع الهواء تطهير الأرض من الرطوبات القذرة ، وما يتولّد فيها من الأحياء الضارة ، ومكروبات الأمراض ، فيمتصّها ويدفعها في الجو فيتفرق شملها وقد تموت محترقة بأشعة الشمس .

ولقد قدّر العلماء أن ما يحتاجه الإنسان من الهواء للتنفس ما يقارب ١٦م^3 في الساعة الواحدة . وهو ينفث في كل ساعة ٢٢ لترا من غاز الكربون .

ويمكن إجمال منافع الهواء الحار بإفراز العرق وتطهير البدن من الفضلات والمواد السّامة ، ولكنه يحمل معه من الأكسجين القليل فيسبب استرخاء الجسم وضعف الهضم .

أمّا الهواء البارد فيشدّ الأعصاب وينشط الجسم ، ويحدث حرارة في الباطن لكثرة ما يدخل معه من الأكسجين في الجوف ، فيحتاج الجسم إلى الكثير من الغذاء، ولذلك يكثر الأكل ويقوى الهضم في الجو البارد وتشتد فيه الحاجة إلى الحركة والعمل لدفع الدم إلى الشرايين التي في ظاهر الجسم لتدفئته ، فهو يفيد الأقوياء والأصحّاء ويضرّ الضعفاء والمصابين بالأمراض الصدرية (٣) .

---

(١) ، (٢) ، (٣) المنار جـ٨ ص٤٨٨ .

حفظ الغلاف الجوي :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ (١) .

فالسماء سقف محفوظ فوق الأرض كالقبّة عليها ويتفكر الناس قديما وحديثا فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم وما زيّنت به من الكواكب والسيارات المختلفة (٢) " ويرى القاضي أبو السعود أن السماء سقف محفوظ من الوقوع ، وخالية من الفساد والانحلال ، إلى أن يأتيها وقتها المعلوم وهو يوم القيامة "(٣).

وفي تفسير القرطبي أن هذا السقف محفوظ من أن يقع ويسقط على الأرض(٤). فهو يشترك مع أبي السعود في خلوّ السماء من الفساد والانحلال في المعنى العام .

قال تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ (٥) .

ذكر صاحب الكشاف في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ (٦) أي معرضون عمّا وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيّرات ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القديم ، والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة وأيّ جهل.

---

(١) سورة الأنبياء ٣٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير جـ٣ ص١٧٧ دار المعرفة بيروت .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم (أبو السعود) جـ٦ ص٦٥ دار المصحف بالقاهرة.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٢٨٣ دار الكاتب العربي - القاهرة .

(٥) سورة الحج ٦٥ .

(٦) سورة الأنبياء ٣٢ .

أعظم من جهل من أعرض عنها ، ولم يذهب به همّة إلى تدبّرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها من عدم . ودبّرها وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه " (١) .

ويعلّق أبو السعود على هذه الآية بقوله : " وهم عن آياتها الدالة على وحدانيته وحكمته وقدرته التي بعضها محسوس ، وبعضها معلوم بالبحث عنه في علمي الطبيعة والهيئة معرضون لا يتدبرون " (٢) .

والسماء هي كلّ ما علاك ، والأرض محاطة بهذا السقف المحفوظ الذي له أكبر الأثر في حفظ الحياة على الأرض ، فهذا السقف المليء بالأسرار ، والذي يقدم العلم فيه كل يوم كشفا جديدا يحوي فيما يحوي عنصر الحياة للكائنات ، ألا وهو الأكسجين ، ومن غيره تستحيل حياة الكائنات الحيّة على اختلافها برّية وبحرية .

ويغير الماء وثاني أكسيد الكربون لا يعطي النبات مركباته المختلفة التي هي أساس الغذاء . ومن غير الأوزون والأكسجين الذرّي في أعالي الجو ، لا يمكن امتصاص الأشعة الضارة المقبلة من الفضاء ، والتي لا تستقيم معها الحياة(٣) .

ونسب تكوّن هذا البناء دقيقة دقّة متناهية ، إذ لو اختلّت نسبة وجود أحدها إلى غيرها لاختلت الحياة على الأرض .

---

(١) الكشاف للزمخشري جـ٢ ص٥١٧ .

(٢) أبو السعود جـ٦ ص٦٥ .

(٣) رسالة العلم والإيمان – جمال الدين الفندي ص٨٠ .

وهي فوق ذلك الوسط الذي نرى من خلاله ضوء النهار - ففي هذه الطبقة يتناثر ويتشتّت ضوء الشمس ، وأكثر ألوان الطيف المتناثر هو الأزرق ولذلك نرى أن السماء من فوقنا زرقاء .

فوائد الغلاف الجوي :

وهذا السقف المحفوظ يقي الأرض من الشهب والنيازك المتساقطة بأعداد هائلة، فيعمل اصطدام هذه الشهب بالغلاف الجوي على تفتّتها وسقوطها على هيئة غبار ترابي يزيد في خصب الأرض ويقدّر ما يصيب الأرض من الشهب في اليوم الواحد بحوالي ٢٠ مليون شهاب تزن أكثر من ٤٠ ألف طن ، على أن هذه الأطنان المتزايدة ليس لها تأثير على حركة الأرض ، ويقدر العلماء أنه بعد مضيّ أربعمائة مليون سنة ، فإن الأرض تتغطى بطبقة من هذا الرماد سمكها (١) سم وعندئذ يقلّ طول السنة بمقدار $\frac{١}{١٠٠}$ من الثانية (١) .

وهذه التيارات الهوائية المستمرّة تعمل على توزيع درجات الحرارة بين أجزاء الأرض المختلفة ، كما تنقل بخار الماء من المحيطات إلى السماء لينزل مطرا من جديد على اليابسة يفرح به الناس .

وهذا السقف ملطّف للغطاء الحراري للأرض ، فإنّ ما تفقده الأشعة الشمسية من حرارتها بفعل الغلاف الجوي ٣٤٪ أثناء انعكاسها ، وتمتصّ المواد العالقة بالجوّ من حرارتها ١٩٪ فيبقى نصيب سطح الأرض ٤٩٪ .

---

(١) تاريخ الحياة ص١٥ محمد كمال سند - الهيئة المصرية العامة للتأليف - القاهرة .

ولقد ذكر عالم الفلك الأمريكي (شارل البرت) أنّ ما يستقبله سطح الأرض من حرارة الشمس في النهار يكفي لتحويل ٣٥ ألف مليون طن من الثلج إلى ماء يغلي عند درجة ١٠٠م خلال خمس ثوان فقط .

ولكن الأرض لا تحتفظ بكل ما يصلها من الحرارة ، فالجزء الأعظم ينعكس ويمتد إلى الفضاء .

والمعروف أن كمية الحرارة التي تصيب الأرض ليست سوى جزء واحد من ألفي مليون جزء مما تشعه الشمس إلى الفضاء الكوني (١) .

وتكوين هذا السقف المحيط بالأرض يختلف اختلافا بيّنا ، إذ أنّ لكل منها دوره وأثره في الحفظ – حفظ هذه الأرض وما يحيط بها – .

فهناك طبقة بسمك ٧٠ كم بها غازات الجو العادي ، وتنقص درجة الحرارة كلما ارتفعنا ألى أعلى حتى نصل –٩٠ م .

ويليها طبقة بسمك ٦٠ كم هي منطقة احتراق الشهب الساقطة وبها رياح سريعة ، وبعدها ترتفع درجة الحرارة حتى تصل إلى ٣٠٠٠ م على مسافة ٥٠٠ كم من سطح الأرض . وهناك منطقة التأيّن بين ارتفاع ١٠٠ – ٥٠٠ كم وبها الكترونات بجانب الأيونات الموجبة وتستعمل في الاتصال اللاسلكي العالمي .

وبعد ٥٠٠ كم يتلاشى الغلاف الهوائي وهي ممتلئة بالأشعة الكونية ، وهي أشعة نفّاذة ذات طاقة عالية تنبعث من الكون الخارجي إلى الأرض (٢) .

---

(١) تاريخ الحياة ص١٢ محمد كمال سند – الهيئة المصرية العامة للتأليف – القاهرة .

(٢) بجلة منبر الإسلام ص٣١ سنة ٣٥ عدد ٨ ، د .أحمد حسنين القفل سنة ١٣٩٧ هـ .

وعلى الرغم من الاشعاعات الغازية السامّة من الأرض ، وما يفعله الإنسان من تلويث قديم وحديث بمختلف طرقه ووسائله ، فإن توازن هذه الغازات اللازمة لوجود الإنسان يكاد يكون ثابتاً ، لما تمتص المحيطات من غازات سامة، وكأنّ المحيطات هي عجلة التوازن في الحياة (١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقا حرجا كأنما يصعّد في السماء ﴾ (٢) نجد أن أغلب المفسرين قد ذكروا أن هذا تشبيه بما لا يكاد يقدر عليه،ويمتنع ويبعد عن الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة ، فالكافر عندما كلّف بالإيمان كأنه كلّف بما لا يطيق من الصعود في السماء (٣) .

ولكن لا مانع أن يكون في هذه الآية زيادة عن هذا المعنى ، ولم تقرن الآية ضيق الصدر بالتصعد في السماء عبثا ، فلا بدّ أن بينهما ارتباطاً .

وهذا ما أثبته العلم حديثا ، إذ وجد أن نسبة الأكسجين اللازم للتنفس تقلّ كلما ارتفعنا ، ومعلوم أن بقاء الأكسجين بنسبة معينة ضروري للحياة ، إذ كلّما قلت كمية الأكسجين كان لذلك أثر على النشاط الجسماني والعقلي للإنسان خمولاً وانحطاطاً .

كما أن الضغط الجوي الواقع على سطح الأرض ، يقلّ كلما ارتفعنا في السماء ، فإذا قل الضغط على جسم الإنسان ، فإنه يكاد يختنق وتخرج الدماء منه ، ولا يستطيع مواصلة الصعود إلا تحت ظروف تشبه ما هو عليه قرب

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص١٤٠ سيد قطب دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص٢٥١٨ القرطبي دار الشعب القاهرة .

سطح الأرض ، لأن الإنسان يحمل في الضغط الجوّي العادي على سطح الأرض من ١٢ - ١٤ طنا وهذا يعادل في الأحوال العادية ضغط الدم في داخل جسم الإنسان (١) .

فإذا ما قلّ الضغط الجوي في الطبقات العليا ، فإن ضغط الدم يزداد على الشرايين ويؤدّي إلى تفجّرها ، كما يحتوي هذا الغلاف على الهيدروجين الذي يكوّن مع الأكسجين الماء الذي يقول الله سبحانه وتعالى عنه : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ (٢) .

ولقد اتّضح لنا مسبقا كيفية اعتماد النبات على غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الجو وإطلاق الأكسجين نتيجة لتلك العملية .

ولقد اكتشف العلماء مؤخراً طبقات لهذا الغلاف الجوي أمكن الاستفادة منها كثيراً في بثّ الإشارات اللاسلكية والتقاطها ، فقربت المسافات بشكل مذهل بين أقطار هذه الدنيا الفسيحة .

وحركات الرياح والأمطار إنما تتم في هذه المنطقة ، وغنّي عن الذكر أن حركة الرياح ونقلها لبخار الماء تساعد كثيراً على تلطيف درجة الحرارة على اليابسة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣) .

---

(١) كوكبنا النابض بالحياة ص١٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء ٣١ .

(٣) سورة الجاثية ١٢ .

تفيد الآية بوضوح إلى أنّ ما في السماوات سُخّر للإنسان كما سُخّر لـه ما في الأرض .

وتسخير ما في السماوات عامّ شامل ، يقف العقل البشري مشدوهاً وهو يكتشف كل يوم جديدا عما تمّ تسخيره للإنسان في هذه السماوات من طاقة شمسية وطبقات جويّة ورياح وسحب وغازات ونجوم وإشعاعات مختلفة ، استطاع الإنسان أن يهتدي إلى بعض أسرارها ، وما زال كل يوم يتقدم ويأتي بجديد ويواصل تقدمه لعلّه يستفيد أكثر من هذا التسخير الربّاني لما في السماوات والأرض .

ومن هذا التسخير الذي استفاد الإنسان منه وبدأ باستغلاله ، الطاقة الشمسية، وهي مصدر الطاقات جميعا على الأرض ، إذ أن الطاقة المشعّة التي تصل إلى سطح الأرض في الثانية الواحدة ، تساوي في طاقتها ما ينتج عن حرق ثلاثة ملايين طن من الفحم الحجري .

وهذه الكمية من الطاقة تزيد أضعافا مضاعفة عن احتياجات الإنسان في العصر الحاضر وفي المستقبل البعيد (١) .

ولكن كمية كبيرة من هذه الطاقة يمتصها جوّ الأرض أو تنعكس إلى الفضاء الخارجي ، ولقد استطاعوا الاستفادة من هذه الطاقة مباشرة في مركبات الفضاء والأقمار الصناعية .

ولقد شجّع هذا على تعميم الاستفادة من هذه الطاقة على سطح الأرض ، ومازالت الفكرة في بدايتها إلا أنه يمكن تعميمها بسرعة ،ولقد بدئ باستعمال

---

(١) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٢٥١ زهير الكرمي / عالم المعرفة الكويت .

حمامات تسخن بواسطة حرارة الشمس وذلك لتجميع هذه الطاقة وتخزينها بواسطة ألواح خاصّة ، وتنتقل هذه الحرارة إلى أنابيب خاصة يجري فيها الماء المستعمل (١) .

كما تمّ الاستفادة من طاقة الشمس بتحويل الطاقة الحرارية إلى طاقة كهربائية تخزّن في بطاريات خاصّة تستخدم بشكل متواصل .

وممّا يثير حماس العلماء ويدفعهم إلى مواصلة جهودهم ، هو إمكانية توليد الهيدروجين من أشعة الشمس ، فالهيدروجين مرشح كوقود ممتاز للمستقبل ، فهو يحترق في وجود الأكسجين مولّدا طاقة ومنتجاً الماء ، بينما نجد في حالة احتراق الفحم خروج ثاني أكسيد الكربون ، وفي احتراق النفط خروج ثاني أكسيد الكربون والماء ، فاحتراق الهيدروجين لا يصاحبه غازات ، ملوثة ناهيك عن أنّ المصدر الرئيسي للهيدروجين هو الماء المتوفر بكثرة على سطح هذه الأرض ، وبتحليل الماء نحصل على الهيدروجين والأكسجين ويمكن ضغط الهيدروجين في اسطوانات وإسالته بالضغط والتبريد ليسهل نقله واستعماله (٢).

وهناك تفكير لدى العلماء بالاستفادة من الكهربائية الجويّة من بروق وصواعق وشحنات كهربائية على السحب ، غير أنّ ذلك ما زال يلاقي صعوبات مختلفة، وإذا تمّ نجاح هذه الفكرة ، فإنّ حوالي ثلث احتياجات العالم من الطاقة سيكون في الوسع توفيره (٣) .

---

(١) مجلة العربي عدد ٢١٦ سنة ١٩٧٦ أنباء العلم والاختراع .

(٢) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٥٥ زهير الكرمي .

(٣) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٢٥٠ زهير الكرمي

ولقد بدأ تشغيل قرى بأكملها في الولايات المتحدة في كهربائها ومياه بيوتها وكل ما يلزمها من الماء الساخن عن طريق التسخين بواسطة الطاقة الشمسية(١) .

وهناك أفران الصهر الخاصّة التي تقوم على الطاقة الشمسية ، إذ تعمل عدة مرايا على تجميع أشعة الشمس إلى فرن الصهر ، حيث تصل درجة الحرارة هناك أربعة آلاف درجة مئوية تقريبا . وبمجرّد دقيقة واحدة يتمّ فيها تسليط هذه الأشعة على صفيحة فولاذيّة بسماكة اثني عشر ملليمتر فإنّه يحدث فيها خرق بقطر نصف متر تقريبا ، وهذا يدلّنا على مدى قدرة وعظم الفائدة المرجوّة منها .

وتقدّر مساحة أربعة وستون مترا مربعا من الخلايا الشمسية كافية لتزويد مدينة كمدينة نيويورك بكافة حاجاتها من الطاقة ، والجدير بالذكر أن كلفة مزارع الشمس على الأرض أقل بكثير من معامل الطاقة المستعملة في السفن الفضائية(٢) .

ولقد أمكن اكتشاف أنواع مختلفة من الأمواج منها أمواج الضوء والحرارة والأشعة السينية والأشعة اللاسلكية والأشعة البنفسجية وتحت الحمراء والأمواج فوق السمعية ، وهذه كلها مما سخّر الله في السماء ، وحقّ على الإنسان أن يستفيد منها ويستغلّها فيما يعود عليه بالنفع .

ويستفيد الإنسان من هذه الأشعة ، إذ يستخدم بعضها في العلاج الطبيعي وتصوير داخل جسم الإنسان والاهتداء بواسطتها ليلا واستعمالها في الحروب والاتصالات الدوليّة .

---

(١) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر زهير الكرمي ص٢٥٢ .

(٢) المجلة العربية عدد (١٠ - ١١) [السنة الثانية] سنة ١٩٧٨ (ا لسعودية) .

وهذه الاشعاعات لا يصلنا منها إلا ما فيه الخير والبركة ، على الرّغم أن الاشعاعات الفتّاكة والقاتلة تحيط بالغلاف الجوّي ، وتأتي من شتّى المراكز المشعّة في الفضاء ، فإنّ هذا الاتزان بين ما يصل إلى الأرض من أشعة وما يحيط بها يثير في العلماء كثيراً من التأمّل والتفكير (١) .

ومن الملاحظ أن نسب تكوّن الغازات في الغلاف الجوي تتحكم في مقدار الاشعاع الذي يسمح بوصوله إلى الأرض ، بالإضافة إلى كون هذه النسب تتحكم إلى حدّ بعيد في مصير الأحياء على الأرض (٢) .

ولذا نجد في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ (٣) .

(إشارة قرآنية إلى أن الرزق هنا عام يشمل كل ما يؤثر في حياة الإنسان ، من أشعة الشمس وطبقات الجوّ والرياح واختلاف الليل والنهار ، فكل هذه تتعاون لتحقيق مشيئة الله في توفير الرزق لهذا الإنسان .فالمراد عنا أعمّ من المطر) (٤) .

---

(١) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر زهير الكرمي ص٢٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص٢٣٠ .

(٣) سورة الجاثية ٣ .

(٤) في ظلال القرآن جـ٧ ص٣٨٢ .

الريح والفلك :

لقد أشار القرآن الكريم إلى بعض المنافع الذي توصّل إليها الإنسان في تسخير الرياح لمصلحته ، سواء في ذلك ما كان مخصوصاً كمعجزة من المعجزات ، كما جرى لنبيّ الله سليمان ، أو في صورة عامّة للناس جميعا في حركة السفن التي تمخر عباب البحار والمحيطات .

كما جاء ذكر الريح في مجال عقوبة الكافرين والظالمين بعد أن جاءتهم البينات والرسل .

ومن التسخير العام للرياح ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور . أو يوبقهنّ بما كسبوا ويعفُ عن كثيرٍ ﴾ (١) .

والله عزّ وجلّ قد ذكر تسخير البحر والرياح ، بقدر الحاجة المتعلّقة بمصالح العباد . ولو شاء الله لأرسل الريح قويّة عاتية فأخذت السفن وجرفتها عن سيرها ولأدّى ذلك إلى إهلاكها .

ومن لطف الله عزّ وجلّ أنه يرسل الرياح حسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، فلو أرسله كثيراً لهدم البنيان ، ولو كان قليلاً لما نبت الزرع وظهرت الثمار (٢) .

وذكر القرطبي في تفسير هذه الآية (أنّ الله عزّ وجلّ إذا شاء يجعل

---

(١) سورة الشورى ٣٢-٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص١١٧ .

الرياح عواصف فيهلك السفن بذنوب أهلها ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجّيهم من الهلاك) (١). وحركة الرياح هذه التي تستخدم في المراكب الشراعية ، وحركة الرياح كلّها، إنما تتم بقدرة ا لله عزّ وجلّ ، وبواسطة حركة الريح وقوة الدفع نستطيع أن نحلّق في السماء أو نركب البحر .

فلو لم تكن هناك حركة رياح مستمرّة بنظمها الثابتة التي وضعها ا لله لها لاختلّت الحياة على الأرض .

وفي نطاق أثر الرياح على الحركة في البحار يقول ا لله عزّ وجلّ : ﴿ هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوا ا لله مخلصين له الدّين ﴾ (٢) .

فالريح قد تكون طيّبة تساعد الفلك على السير في البحار ، وقد تكون عاصفة هوجاء تأتي بالموج من كلّ مكان . قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣) .

في هذه الآية تنبيه إلى أنّ الفلك تجري بأمر ا لله اوّلاً وأخيراً ، وإلى أنّ هناك إمكانية التوصّل إلى سفن لا تعتمد في سيرها على الريح ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ فالإنسان يبتغي من فضل ا لله دائما ويسعى ليصل إلى ما هو أحسن وأفضل .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١ ص ٥٨٥٣ .

(٢) سورة يونس ٢٢ .

(٣) سورة الروم ٤٦ .

وفي قوله تعالى : ﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسّحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

جاء ذكر الفلك بعد الليل والنهار ، ومناسبة ذلك أنّ المسافر في البحر اشدّ الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به (٢) .

وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس بدون ذكر الرياح وربط الرياح بالسحاب في الآية فقط تنبيه على أن الفلك تجري بدون الرياح أيضا ، وإن نفعها جليل عظيم للناس جميعا .

ولا يخفى ما لدراسة الغلاف الجوّي من نتائج هامة على سير الحياة ، فدراسة سرعة الرياح وطبقات الجوّ تدخل في توجيه الطائرات أثناء طيرانها وهبوطها ، كما تؤثّر معرفة ظروف الطقس على الحاصلات النباتية ، فيمكن اختيار أنسب الأوقات لزراعة المحاصيل وتحاشي ظروف الطقس غير الملائمة لبعض المحاصيل بعدم زراعتها . كما أنّ دراسة السحب والعواصف تقي الإنسان كثيراً من أخطارها وصواعقها المدمّرة ، وذلك بتكاليف سهلة ، وهي إنشاء مانعات صواعق على رؤوس البنايات لكي يتمّ التفريغ الكهربائي دون أضرار في المباني والممتلكات .

---

(١) سورة البقرة ١٦٤ .

(٢) تفسير المنار جـ٢ ص٥٩ .

وهذا الصوت الذي نتكلّم به لولا الهواء لما تمّ نقله إلينا .
ويستفاد من معرفة ظروف الطقس في اختيار الوقت المناسب لدخول الحرب، فلقد اختار الألمان هجومهم على بولندا في الحرب العالمية الثانية بعد أن درسوا ظروف الطقس الملائمة لذلك .
وعندما أراد نابليون غزو روسيا استشار العلماء في ظروف الطقس هناك ، وأخطأوا في تقديرهم فكانت نهاية جيشه على الثلج والزمهرير (١) .
وعندما أرادت القوّات المصرية عبور قناة السويس كان لا بدّ من معرفة حركة الرياح وشدّة الأمواج ، لأن ذلك يتعلّق بعمليات العبور ونقل الإمدادات عبر القناة .
وكثير من الدول المتقدمة تدرس الغلاف الجوّي دراسة مركّزة ، لأنه كما يقولون من ملك السماء فقد ملك الأرض . إشارة إلى السيطرة على الأرض من أعلى بواسطة الطائرات أو الصواريخ .
ولقد ذكر القرآن الكريم حالة تسخير خاصّة للريح ، وهي ما جرى لنبي الله سليمان ، حيث كانت الريح تجري بأمره رخاء حيث أراد ، قال تعالى :
﴿ فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ (٢) .
وقال عزّ وجلّ : ﴿ ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ﴾ (٣) .
وقال تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره ﴾ (٤) .

---

(١) طبيعات الجوّ وظواهره ص٢٣٠ محمد جمال الدين الفندي مكتبة نهضة مصر .

(٢) سورة ص ٣٦ .

(٣) سورة سبأ ١٢ .

(٤) سورة الأنبياء ٨١ .

كما ذكر القرآن الكريم أنّ الريح كان عقاباً وهلاكاً لأقوام طغت وانحرفت عن منهج الله ، ومن هؤلاء قوم عاد الذين ذكر الله عزّ وجلّ هلاكهم بقوله تعالى : ﴿ وأمّا عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيّام نحسات ﴾ (٣) . وقال تعالى: ﴿ إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلّوا من بعده يكفرون ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم تدمّر كل شيء بأمر ربّها وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ (٧) وكأن هذه الآيات تصف وصفاً دقيقاً شدة العواصف وعنفها وما يرافقها أحياناً من تدمير مخيف . فمن المعلوم أن سرعة الريح قد تصل إلى أكر من ٢٠٠ ميل في الساعة، وتقلع الأشجار وتهدم المساكن وتؤدي إلى هلاك ما تصادفه من إنسان أو حيوان. فهذا الريح كما يكون نعمة ربّانية جليلة ، يكون أيضا نقمة يسلّطها الله على من ضلّ وتكبّر وأفسد في الأرض وتجبّر .

---

(١) سورة الحاقة ٦ .

(٢) سورة الذاريات ٤١ .

(٣) سورة فصّلت ١٦ .

(٤) سورة القمر ١٥ .

(٥) سورة الروم ٥١ .

(٦) سورة الأحقاف ٢٤ .

(٧) سورة فصّلت ١٣ .

(الفصل الثالث)

ما على الأرض من نبات وحيوان

لقد بثّ الله عزّ وجلّ على سطح هذه الأرض من الكائنات وذرأ من النباتات أصنافاً وأنواعاً كثيرة العدد مختلفة النفع ، وجعلها كلّها تحت يد الإنسان يستثمرها ويستفيد منها .

ولقد لفتت الآيات القرآنية نظر الإنسان في أكثر من موضع إلى هذه النّعم ، ووجّهته إلى إدراك أهمية هذه الثمار ومنافعها على اختلاف أنواعها ، ففي ثمرات النخيل والأعناب يقول الله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسنا ﴾ (١) .

في ذلك توجيه قرآني لكيفية استغلال هذه الثمار . فالإنسان يستفيد منها على وجهين : اتخاذ المواد المسكرة .

والثانية : الرزق الحسن على اختلاف طرقه وأحواله .

والآية الكريمة تشير إشارة واضحة إلى أن تخاذ المسكرات ليس برزق حسن ، وأنّه من الأفضل استغلال هذه الثمار في مجالات أخرى غير صنع المسكرات ، ليتحقّق الرزق الحسن الذي يعود على الإنسانيّة بالخير والنفع والبركة (٢) .

---

(١) سورة النحل ٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن جـ٥ ص٢٦٠ .

وفي قوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وهُزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا فكلي واشربي وقرّي عينا ﴾ (١) .

إرشاد وتعليم قرآني لما في التمر من فوائد عميمة وغذاء كامل ، وخاصّة للمرأة الحامل التي تحتاج غذاء يعوّضها ما تفقده من جسمها أثناء حملها ووضعها (٢) .

ويأتي العلم الحديث ليكشف أنّ التمر من أكثر أنواع الأغذية احتواء على العناصر اللازمة لبناء الجسم ، حتى أنّ بعض العلماء أسموه منجم المواد المعدنيّة، لكثرة ما يحتويه من أملاح معدنية في تركيبه كالصوديوم والبوتاسيوم والماغنيسيوم والمنجنيز والحديد والنحاس والفوسفور والكبريت والكلور .
ويساعد الفوسفور الذي يحتوي التمر على نسبة عالية منه في تركيب العظام والأسنان كما أنّه الغذاء المفضّل للدماغ .

والتمر غنيّ جدا بالمواد السكّرية والنشوية الطبيعية سريعة الذوبان ، ولذلك جاء العلم مؤخراً ليدرك فائدة إفطار الصائم على قليل من التمر ، لأنّ ذلك يبعث النشاط في جسد الصائم في أقلّ من ساعة ، بينما يحتاج الأمر إلى أكثر من ست ساعات حتى يسهل ذوبان المواد السكّرية في المواد الأخرى وامتصاصها (٣) .

---

(١) سورة مريم ٢٤ .

(٢) روح المعاني ، جـ١٦ ص٨٥ الألوسي، في ظلال القرآن جـ٥ ص٤٣٣ دار الفكر / بيروت .

(٣) الغذاء لا الدواء ، صبري القبّاني ص١١٩ - ١٣٠ دار العلم للملايين / بيروت .

كما يضفي التمر على النفس السكينة والدعة ، وذلك بحدّه من نشاط الغدّة الدّرقية ، ولذلك ينصح الأطبّاء كل طفل عصبيّ المزاج ببضع تمرات لتحدّ من تصرفاته ، ولقد أجريت في المختبر تجارب على حيوانات غذيت بالسكّر وحده فضعفت وهزلت وتساقط شعرها . وعنما غُذّيت بالتمر عادت إلى نموّها ونشاطها من جديد . ويمكننا القول إن بضع حبات من التمر تزيد في مفعولها عن زجاجة كاملة من شراب الحديد ، أو إبرة من الكالسيوم ، ويعتقد كثير من العلماء أن احتواء التمر على عنصر المغنيسيوم يمنع من الإصابة بمرض السرطان .

والتمر يجعل البصر نافذاً ثاقباً في الليل فضلاً عن النّهار ، وقد استعمله الطيّارون الأمريكيّون إبّان الحرب العالمية الثانية أثناء غاراتهم الليليّة ، كي يعينهم على تمييز الأهداف في الظلام ، ومن المعروف أنّ سكان الصحراء مشهورون بالروية من مسافات بعيدة ، وذلك لاعتمادهم في غذائهم على التمر ، ويعمل التمر كَمُلَيِّن ممتاز يتخلّص الإنسان بتناوله من حالات الإمساك المزمن ، ويقدّر العلماء ما ينفقه سكان الولايات المتحدة الأمريكية على الحبوب الملّينة بما يزيد على عشرة ملايين دولار سنويّاً ، ولذلك بدأ الأطبّاء يوجّهون مرضاهم إلى التمر بدلاً من الحبوب الملّينة (١) .

وقد استعمل التمر كعلاج لوقف النزيف الدموي المتسبب عن البواسير ، والتهابات اللثة ، وهو يعمل على تنظيف الكلى والكبد من الرمال والأوساخ

(١) الغذاء لا الدوّاء ص١٢٧ د. صبري القبّاني .

بالإضافة إلى احتوائه على نسبة جيّدة من المواد البروتينيّة والدهنيّة (١) .

وهناك فوائد تعجز عشرات الكتب عن الإحاطة بها في مختلف أنواع النباتات، وما زال العلم كلّ يوم يكشف الجديد منها ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى أهميّة التين والزيتون بقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين ﴾ (٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ (٤) . فشجرة الزيتون المباركة تحوي فيتامين (د) الذي يقي الأطفال شرّ الكساح وتقوّس الساقين ، ويضفي على الوجه حمرة وإشراقا ، كما يمتاز زيت الزيتون عن غيره من الزيوت باحتوائه على موادّ لها أثر فعّال في تغذية النسيج السنجابي في الدماغ ، وبهذا يمكن القول إنّ لها أثراً جيداً في زيادة القدرة على التفكير ، بالإضافة إلى احتوائه على مواد عطريّة تعتبر من المشهيات أثناء تناول الطعام . ونظراً لغنى الزيت بفيتامين (و) فهو مقوّ للنسل ويفيد الشيوخ في منحهم القوة الجنسيّة . ويعتبر الزيت من خير الأدوية المحرّضة للكبد على الإفراز ، وتناول ملعقتين كبيرتين منه قبل الطعام دواء ممتاز من أدوية الإمساك (٥) .

---

(١) المجتمع عدد ٣٨٢ السنة الثامنة : الكويت .

(٢) سورة التّين ١ ، ٢ .

(٣) سورة المؤمنون ٢٠ .

(٤) سورة النّور ٣٥ .

(٥) القرآن وإعجازه العلمي ص١٦٢ . محمد اسماعيل إبراهيم ، الغذاء لا الدواء ص٣٣٢ .

وهو أسهل الزيوت هضماً وقريب التركيب من الأدهان الموجودة في حليب الإنسان لذا فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم (١). والأطبّاء يوجهون الأمهات لإطعام أطفالهنّ الخبز مع الزيت ، لأنهما يحتويان على جميع العناصر اللازمة لتنمية أجسام الأطفال ، ويطيب لنا أن نذكر قوله ﷺ : (كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة) . وفي رواية أخرى عن أبي هريرة : (ائتدموا بالزيت ومن عرض عليه طيب فليصبْ منه) (٢) . ومن فوائده تحسين الألوان وشدّ الأعصاب وتفتيت الحصى وإصلاح الكلى وتقوية البصر (٣) . كما يخرج الدود ويشدّ اللثّة وله منافع أخرى عديدة (٤) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه مرّ بشجرة زيتون فأخذ منها سواكاً فاستاك به وقال سمعت النبيّ ﷺ يقول : (نعم السّواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيّب الفم ويذهب بالحفرة هو سواكي وسواك الأنبياء من قبلي)(٥) . والنبات الآخر المشار إليه في الآية هو التين الذي يعتبر من أغنى الموادّ الغذائية بالفيتامينات،وينصح باستعماله على نطاق واسع للحوامل والرضع ولأصحاب

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي ص١٦٢ / دار الفكر العربي / القاهرة .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة/الألباني جـ٤ ص٣٧٩ المكتبة الإسلامية/بيروت ، سنن الترمذي جـ٤ ص٢٨٥، كشف الخفاء ١٦٥/٢ رقم ١٩٩٥ وقال:أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم .

(٣) روح المعاني الألوسي جـ٣٠ ص٢٢٣ .

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد جـ٢ ص١٦٧ ابن قيّم الجوزيّة،دار الكتب العلمية / بيروت .

(٥) روح المعاني الألوسي جـ٣٠ ص٢٢٣ ، كشف الخفاء للعجلوني ٤٢٣/٢ رقم ٢٨١٤ وقال رواه الطبراني في الأوسط .

الامساك المستعصي وينفع منقوعه في التهابات الجهاز التنفسي ، كما أنّه يقوّي الكبد ويذهب عسر البول والسّعال وأوجاع الصدر ، وخشونة القصبة والبواسير ، كما يزيل رائحة الفم (١). ولقد ذكر الألوسي فضل هاتين الثمرتين فقال : إنّ الله خصّهما بالإقسام بهما من بين الثمار (٢) لاختصاصهما بخواصّ جليلة ، فإنّ التين فاكهة طيّبة وغذاء لطيف سريع الانهضام ، بل قيل إنّه أصحّ الفواكه غذاء إذا أكل على الخلاء ولم يتبع بشيء ، وهو دواء كثير النفع في معالجة الأمراض .

وروي عن علي الرضا بن موسى الكاظم على جدّهما وعليهما السلام أنّه يزيل نكهة الفم ويطوّل الشعر وهو أمان من الفالج ، وروى أبو ذرّ أنّه أهدي إلى النبي ﷺ طبق من تين فأكل منه ، وقال لأصحابه : (كلوا ، فلو قلت إنّ فاكهة نزلت من الجنّة لقلت هذه ، لأنّ فاكهة الجنّة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس) . ويعقّب الألوسي على هذه الرواية فيقول : لم أقف للمحدثين على شيء في هذا الحديث ، لكن قال داود الطبيب بعد سرد نبذة من خواصّ التين وفي نفعه من البواسير – حديث حسن – وذكر أن نفعه من النقرس إذا دقّ مع دقيق الشعير أو القمح أو الحلبة (٣) . ثم أطال في وصف منافع التين والزيتون وفي فضل الأرض المقدسة التي هي منابت التين والزيتون في دمشق وفلسطين .

ولقد ذكر الرازي في تفسيره بعض فوائد التين فقال : إنّه يطهّر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرّمل ويفتّح مسام الكبد والطّحال (٤) .

---

(١) الغذاء لا الدواء د. صبري القبّاني ص١٠٦ .

(٢) عند من يرى أنّ المراد بالتين والزيتون الثمرتان المعروفتان ، ولا تعارض من وجهة رأيي بين القولين فإذا أريد بالقسم الأرض المباركة فهي كذلك تنتج الثمر المبارك ، والعدول عن ذكر اسم المكان إلى ما يخرج منه دليل على حصول الفضل والبركة في الاثنين .

(٣) روح المعاني جـ٣٠ ص٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٤) التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ ص٨ .

ولقد نبّهت الآيات القرآنية إلى أهمية النبات في حياة الإنسان والحيوان أيضا قال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (١) . فهذه المراعي بما فيها من نباتات هي من أجل نفع الإنسان والحيوان على السواء .

وبعد أن ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً من التصرّفات الفاسدة للمشركين في زروعهم وثمارهم وأنعامهم بقوله تعالى:﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾(٢).

بيّن عزّ وجلّ أنّ من الواجب استغلال هذه النعم العميمة فيما خلقت له ، فيأكلوا من هذه الخيرات ويستثمروها فيما يعود عليهم بالنفع والفائدة وليؤدوا حقّ الله فيها كذلك (٣) . وفي قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكُلُه والزيتون والرمّان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين ﴾ (٤) . يبيّن الله عزّ وجل أنّ هذه الثمار المختلف طعمها ولونها ، وهذه الجنّات المعروشة وغير المعروشة ، إنما خلقت من أجل الاستفادة منها ، فإيّاكم أن تتبعوا خطوات الشيطان كما اتّبعها المشركون ، فحرّموا عليهم ما رزقهم الله،وأساءوا الاستفادة من هذه الزروع والأنعام(٥) .

---

(١) سورة النازعات ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٠ .

(٣) تفسير سورة الأنعام ص٢٦٠ أحمد السيد الكومي،محمد سيّد طنطاوي مطبعة السعادة /القاهرة .

(٤) سورة الأنعام ١٤١.

(٥) تفسير سورة الأنعام ص٢٦١ .

الناحية الجمالية :

إنّ لمنظر الأزهار المتفتّحة والبراعم الخضراء أثر نفسيّ وجماليّ يروّح عن النفس همومها ، فهذه الأشجار الوارفة وتلك الأزهار المختلفة الألوان ومنظر النبات وهو يكسو وجه الأرض بحلّة خضراء ، كلّ ذلك غذاء نفسيّ وروحي جميل يشعر الإنسان بجمال الطبيعة وبهجتها ، قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمّان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ (١) .

فعقّبت الآية الكريمة على ذكر هذا النبات الأخضر ، والحبّ المتراكب والنخل والأعناب والزيتون والرمّان بالنظر ، ولم تعقّب بالأكل أو البيع أو الشراء .

ومجال النظر هذا هو مجال تفكّر واعتبار كما هو مجال استمتاع بهذه المناظر الطبيعية الخلاّبة ، لتستروع النفس الإنسانية هذا المشهد الجميل وتستشف ما وراء هذا الإبداع والجمال (٢) .

وقال عزّ وجل : ﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ (٣) . ولم تقتصر الإشارة إلى النواحي الجمالية في النبات بل وردت

---

(١) سورة الأنعام ٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب جـ٣ ص٣١٠ .

(٣) سورة النحل ٦٠ .

في الحيوانات وفي مظاهر الطبيعة الأخرى كالجبال . قال تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ (١) . وقال عزّ وجلّ : ﴿ والنخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ (٢) .

فبالإضافة إلى الفوائد العمليّة في هذه الحيوانات من أكل للحومها وشرب لألبانها وانتفاع بأوبارها وجلودها ، واستعمال بعضها في الركوب ، أشارت الآية الكريمة إلى مشهد الجمال والزينة في هذه المخلوقات (٣) . وفي الجبال قوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٤) .

ففي الآية اهتمام بذكر اختلاف ألوان في الثمار والجبال والنّاس والدواب والأنعام .

وقد يقول قائل : إن المقصود بذلك هو اختلاف الأصناف والأنواع ، ولكنّ القرآن الكريم عندما يعدل إلى كلمة الألوان عن غيرها فمعنى ذلك أن هناك زيادة في المعنى المقصود ، فلا بدّ أن يكون لاختلاف الألوان أثر على حياة الإنسان لأن ذكره جاء بهذا الشمول مع عناصر الأرض جميعاً فهذه ثمرات مختلف ألوانها ، وهذه جبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .

---

(١) سورة النحل ٦ .

(٢) سورة النحل ٨ .

(٣) في ظلال القرآن جـ٥ ص٢٢٩ .

(٤) سورة فاطر ٢٦ .

وهؤلاء بشر يختلفون في ألوانهم كذلك ، ولا يصحّ أن يكون المراد أنّ البشر يختلفون في أنواعهم فمعلوم أنّ النّاس جميعا من نوع واحد (كلّهم لآدم وآدم من تراب) (١) .

واختلاف الألوان في النوع الواحد آية من آيات الله ، جاء العلم الحديث ليفتح لها باباً واسعاً في علم الوراثة ، فأدرك العلماء سرّ اختلاف النّاس في ألوانهم وصفاتهم عن بعضهم البعض بل حتّى عن أقاربهم وذويهم .

وهذا الاختلاف في الألوان يثير في النفس مشاعر مختلفة ، وما زال علم النفس يبحث في مدى تأثير هذه الألوان على نفسيّة الإنسان ، فالأحمر يرمز إلى الإثارة والجاذبية ، والأزرق يدعو إلى الهدوء والسكينة ، وعلى هذا قاموا بطلاء حجر المستشفيات الحديثة باللون الأزرق بدلاً من الأبيض لما لها من أثر في النفس (٢) . وإن عدم التناسق في الألوان له أثره على الرؤية وبدئ باستعمال السبورات الخضراء بدل السوداء ، لأنهم وجدوا أنّ ذلك أفضل لرؤية التلاميذ داخل فصول الدراسة (٣) .

ولقد استفيد من الألوان أيضاً في التحكم بدرجة الحرارة فالسفينة المطليّة باللون الأبيض ، تنخفض درجة الحرارة بداخلها في مياه المناطق الاستوائية عشر درجات على الأقل ، بينما ترتفع درجة الحرارة بهذه النسبة داخل السفينة المطليّة باللون الأسود (٤) .

---

(١) جواهر القرآن جـ٨ ص١١٥ طنطاوي جوهري .

(٢) في سبيل موسوعة علمية ص٣٩٧ د. أحمد زكي ، دار الشروق القاهرة ، بيروت .

(٣) ، (٤) المصدر السابق ص٣٩٩ .

وقد يكون لتأثّر الإنسان بلـون معيّن ، مدخل لمعرفة شخصيته ، فالشخص الانطوائي يفضّل الألوان الرزينة بصفة عامة ، والمتزن يختار الأخضر والودود يحبّ البرتقالي وهكذا . وما زال الحكم على هذه الأمور ظنيًا ولكن لا خلاف في تأثير الألوان على حياة الناس .

وعندما ذكر الله عزّ وجل بعض نعمه على الإنسان لم يغفل الجانب الجمالي ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحبّ ذو العصف والريحان ﴾ (١) .

ففي الآية ذكر للحبوب والفواكه بأنواعها ، وذكر للريحان الذي هو أحد الرياحين التي تنعش صدر الإنسان وتزيد من سروره وسعادته ، وقد جاء ذكر الريحان في أكثر من آية قرآنية ، وكلّ ذلك في موضع الثناء والبشرى ، وهذا يؤكد اهتمام القرآن بالناحية الجمالية التي تهمّ النفس الإنسانية .

---

(١) سورة الرحمن ١١ .

الزوجية والتلقيح في النبات :

يعلّمنا القرآن الكريم بأن للنبات أعضاء مذكرة وأخرى مؤنثة ، وعندما يتمّ التلقيح بينها ينعقد الثمر قال تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ (١) .

وهذا التلقيح الذي يتمّ في الأزهار يساعد على نجاحه الرياح التي تحمل الحبوب المذكّرة إلى أعضاء التأنيث قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ (٢).

وعلى هذا يعلق أحد المستشرقين بجامعة أكسفورد ببريطانيا بقوله : (إنّ أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقّح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا) (٣) .

وهذه الزوجيّة ليست في النباتات أو الحيوانات فقط ، وإنما في أمور لا نعلمها قد بدأ العلم يهتدي إلى بعضها كالشحنات السالبة والموجبة في الكهرباء وغيرها .

قال تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ (٤) .

وهذه النباتات بالإضافة إلى الزوجية في أعضائها سواء في الزهرة الواحدة أو بين الأزهار المختلفة ، فإن ثمارها مؤلفة من عناصر ومقادير معيّنة بدقّة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدقّ الموازين ، قال تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الذاريات ٤٩ .

(٢) سورة الحجر ٢٢ .

(٣) تفسير المنار جـ١ ص٢١٠ .

(٤) سورة يس ٣٦ .

(٥) سورة الحجر ١٩ .

فهذا الاتزان يشمل ما فيه توازن الحياة على الأرض ، وتعدّد المنافع كما يشمل اتزان العناصر المكوّنة لهذا النبات فلا خلل ولا اضطراب (١) .
قال تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى ﴾ (٢) .
وقال عزّ وجلّ : ﴿ ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ (٣) .

دورة الحيــاة :

مهما استعمل الناس من النبات والمواد الغذائية بأصنافها فإنّ هذه تتعفّن وتتحلّل لتضيف المزيد إلى سطح الأرض من التربة الصالحة للزراعة ، لينمو فيها نبات آخر من جديد ، والأمر كذلك مع الحيوانات على اختلافها ، فلو استمرت هذه الجيف والمواد العضويّة على حالها ، لضاقت الأرض بها ، ولكن شاءت حكمته تعالى أن تكون هناك على الأرض مخلوقات صغيرة الحجم عظيمة التأثير ، وهي ما نسمّيها اليوم بالبكتريا ، التي تحلّل المواد العضوية النباتية والحيوانية إلى عناصرها الأولية ، لتصبح جزءا من التربة ينمو عليها النبات ويتغذى به الإنسان والحيوان قال تعالى : ﴿ يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ (٤) . وقال عزّ وجلّ : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ﴾(٥) .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص٢١٠ .

(٢) سورة طه ٥٣ .

(٣) سورة الرعد ٣ .

(٤) سورة الروم ١٩ .

(٥) سورة الأنعام ٩٥ .

ولقد ذكر المفسّرون أقوالاً مختلفة في تفسير هذه الآيات ، منها ما روي عن ابن عباس أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن والبرّ من الفاجر ، والصالح من الطالح (١) .

وذلك يحمل الحياة والموت على المعنوي منهما ، ولكن الأصحّ أنه يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة ويخرج الميّت كالحبّ والنّوى من النبات والحيوان وذلك لأنّ الحمل على المعنى المعنوي لا يناسبه سياق الآيات هذه لأنها تتحدّث عن آثار قدرة الله المحسوسة فكان الأولى أن يكون الكلام هنا في آيات الله المحسوسة وآثار قدرة الله عزّ وجل فيها (٢) .

وذكر صاحب المنار أنّ الذين يقولون بوجود الحياة في الحبّة ويسمونها بخاصية الإنبات يمنعون أن تكون الحبّة ميّتة ، ولكن هذا لا يصحّ لغة إلا بضرب من التجوز ، لأن حقيقة الحياة في اللغة ما يكون الجسم به متغذّياً نامياً بالفعل وهذا أدنى مراحل الحياة عند العرب (٣) .

وجعل الكشّاف جملة مخرج الميّت من الحيّ معطوفة على (فالق الحبّ والنّوى) لا على الفعل ، وقال إن النبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحيّ من الميّت ، لأنّ النامي في حكم الحيوان ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ فالأرض فيها حياة مجازيّة بخروج النبات ولها موت كذلك بموته ، وتحلّله إلى موادّه الأولية (٤) .

---

(١) تفسير سورة الأنعام ص١٨٥ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير المنار جـ٧ ص٦٣٦ .

(٤) المصدر السابق

ولا يمنع أيضاً أن يكون خروج الحيّ من الميّت هو ما نشاهده من نموّ النبات من التراب الميّت يتغذّى عليه الإنسان والحيوان ثمّ يموت ويتحلّل بفعل البكتيريا إلى تراب ميّت من جديد . ولهذه الكائنات الحيّة على صغرها فوائد لا تحصى بالإضافة إلى ما ذكرنا ، فبواسطتها تتمّ عملية التخمّر ونشاهد ذلك في اللبن يوميّا ، كما أنها تعمل على تثبيت النيتروجين في التربة ، إذ تأخذ نيتروجين الهواء وتحيله إلى نيتروجين مركّب قابل لأن يمتصّه النبات ، وحين يموت النبات ويتعفّن يبقى هذا النيتروجين المركب في الأرض لينمو عليها نبات آخر من جديد (١) .

وهذه الكائنات الحية المتعفّنة تطلق ثاني أكسيد الكربون ليأخذها النبات الحيّ ويستفيد منه في بناء أنسجته وخلاياه ، بينما يطلق الأكسجين الغاز الضروري لحياة الإنسان والحيوان ، ولو لم يكن هذا التقدير في التحوّل من حالة إلى أخرى لما استمرّت على الأرض حياة ، إذ يكفي أن نعلم أنّ مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوّي لا يكفي النباتات الأرضيّة سوى ثلاثين عاما (٢) .

ولقد وازن الله عزّ وجلّ بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد ، حتى أنّ كلّ شيء يعدّ ثابتا كما هو لا يطرأ عليه تغيير . فطاقة الشمس التي يأخذها النبات أثناء استخدامها في عملية التمثيل الغذائي ، يستفيد منها الإنسان عند اعتماده على هذا النبات كغذاء ، ثم يعود ويتحلّل من جديد لتختزن الطاقة هذه في أشكال أخرى .

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ص٧٦ .

(٢) الإسلام في عصر العلم ص٣٥٦ .

وتستطيع النباتات والطحالب الخضراء من عملية التمثيل هذه أن تثبّت ما مقداره (٥٥٠) ألف مليون طن من غاز ثاني أكسيد الكربون سنويّا و(٤٥٠) ألف مليون طن من الماء وينتج عن ذلك مادة عضويّة حيّة يقدّر وزنها بـ (٣٧٥) ألف طن ، وينطلق من هذه العملية (٤٠٠٠٠٠) مليون طن أكسجين سنويّا فتبقى نسبة العناصر ثابتة تقريبا في الجوّ مهما حاول الإنسان إفساد ذلك (١) .

ولقد اكتشف العلم مؤخّرا أنّ هذه النباتات إنما تصنع مكوّناتها العضوية من طاقة الشمس ومن الهواء المحيط بها وقليل جدّا من التربة التي يعيش عليها .

ولقد أجرى أحد العلماء تجربة لقياس مدى استخدام النبات للتربة في غذائه بأنّ وضع كمية من التراب المخفّف تماماً في إناء ، وزرع فيه نبتة صغيرة وأخذ يرويها بماء مقطّر نقيّ ، وغطى وجه التراب بصفائح معدنيّة تتخلّلها ثقوب صغيرة متعدّدة ، وبعد خمس سنوات من إجراء التجربة قلع النبتة ونظّف جذورها جيّدا ، فوجد أن نبتته الكبيرة تزن أضعاف وزنها بينما لم ينقص وزن التربة شيئا يذكر (٢) .

فلقد بنى النبات جسمه من الهواء مستعيناً بطاقة الشمس والماء وبعض المواد المعدنية من التربة ، ولذلك لم يكن عبثا سر الربط بين الآيات الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً وهّاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجاً لنخرج به حبّا ونباتا وجنّات ألفافا ﴾ (٣) .

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص٣٥٨ .

(٢) بساطة العلم ص٤٥ ترجمة : زكريا فهمي .

(٣) سورة النبأ ١٥ .

فالسّراج الوهّاج أي حرارة الشمس ونزول الماء هما الأساس المعتمد في عملية بناء النبات .

وفي قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ﴾ (١) .

فلقد جاء إخراج الحبّ المتراكب من اليخضور النباتي الذي له اليد الطولى في عملية نموّ النبات وما ينتج عنها من ثمر . وهذه الدورة التي تكمل بعضها البعض في النباتات ، وتحوّلها من شكل إلى آخر نجدها أيضاً في الكائنات الحية التي لها من الضوابط ما يكفل توازنها وعدم طغيان بعضها على بعض .

فالجوارح من الطير قليلة العدد قليلة التفريخ ، وهي تتغذّى على أصناف من الطير كثيرة العدد كثيرة التفريخ ، فسلّط الله عزّ وجلّ كلّ نوع على نوع آخر ليكبح جماح انتشاره ، وأعدّ لكلّ صنف ما يساعده على تحقيق مهمّته ، فجعل للحيوانات المفترسة أنياباً حادّة وعضلات قويّة وللطيور الجارحة نظراً حادّا ومخالب حادّة ، وللطيور التي تأكل الحبّ مناقير قصيرة مدبّبة لتساعدها على التقاط الحبوب . وهذا مشاهد في الكائنات بأسرها على اختلاف أصنافها وأجناسها ، مما دعى بعض الملاحدة لأن يتصوّر أن هذه الحالات تطوّرت لتوافق معيشة هذه الكائنات ، ولم يدر بخلده أنّ الله عز وجل قدّر خلقها لما فيه نفعها ولموافقة أسلوب حياتها .

وحتى الكائنات الدنيئة كالحشرات فإنها لو بقيت تتكاثر وتتوالد وقدّرت لها أسباب الحياة كما هو في غيرها فإنها ستنتشر انتشارا مريعا ، ولكن سرعة

---

(١) سورة الأنعام ٩٩ .

فنائها تتعادل مع سرعة توالدها ، فيبقى وجودها في مجال المعقول وداخل نطاق دائرة التوازن .

وهناك ظاهرة عجيبة تشعرنا بأنّ هذه الحياة الدنيا مليئة بالأسرار المبثوثة فيها ، والتي يجدر بالإنسان أن يعترف بمبدعها ومنظمها (فحيوان "اللامنك" يشبه الفأر ذيله قصير وقرونه سمراء) يعيش في مرتفعات النرويج والأراضي المجاورة لها ، سريع التكاثر كثير العدد ، فخلال عامين أو ثلاثة تصبح الأسرة التي بدأت بضعة أفراد عدة آلاف ويصبح مصدر الغذاء عاجزاً عن سدّ حاجاته ، ويأتي الصيف فتجفّ الخضرة فيهبّ الجميع إلى طريق كان الأجداد قد سلكوه من قبل ، بدون إرشاد أو تعليم ويتتابع الحشد الضخم قبيلة إثر قبيلة حتى يسير هذا العدد الزاخر بالملايين إلى عرض البحر مارّا بكل الأخطار البشرية والطبيعية دون تردّد أو حذر . وعندما يصل البحر يقذف بنفسه طواعية في الأمواج المتلاطمة فيصبح أثراً بعد عين إذ قرّر الانتحار الجماعي (١).

فهذه الحياة على الأرض ، كلّ ما فيها لحكمة ربّانية جليلة أحاط بها علم البشر أم قصّر . وصدق الله العظيم : ﴿ إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر ﴾ (٢).

---

(١) غريزة أم تقدير إلهي ص٢١ شوقي أبو خليل / دار الفكر / دمشق .

(٢) سورة القمر ٤٩ .

تسخير الحيوانات :

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (٢) .

في هذه الآيات الكريمة إشارة إلى بعض الفوائد التي تعود على الإنسان من هذه الحيوانات ، كالانتفاع بجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، والانتفاع بلحمها ولبنها ومنافع أخرى أشار إليها القرآن الكريم ونكرها دلالة على أنه يمكن للإنسان أن يهتدي إلى منافع جديدة مع تقدّمه في علومه المختلفة .

فبالإضافة إلى كلّ هذه المنافع ما ذكر منها وما نكر ، نبّهت الآيات الكريمة إلى نعمة جليلة من هذه النعم ، وهي استعمال هذه الحيوانات في الركوب والتنقل في زمن كانت فيه وسائل التنقّل شبه معدومة ، وجعل الله عزّ وجعل في هذه الحيوانات من القوّة الجسميّة والخصائص البدنيّة ما يساعدها على تحقيق هذه الوظيفة المناطة بها وخاصّة الجمل ، وسيلة التنقل الرئيسة في الصحراء ذات الظروف الصّعبة القاسية ، فهيّأ الله عزّ وجل هذا الحيوان ليقوم بخدمة الإنسان في تلك الظروف العصيبة التي لا يسدّ مسدّه فيها سواه ، لما وضعه

---

(١) سورة النحل ٨٠ .

(٢) سورة غافر ٧٩ .

ا الله فيه من تلك الخصائص التي تجعله يتحمّل الجوع والعطش الشديدين لمدّة طويلة . فلقد توصّل العلم إلى أنّ سنام الجمل الذي يحوي ٢٢ كغم تقريبا والمكوّن من المادة الدهنيّة يطلق كميّة لا باس بها من الماء ، أثناء تفتيت ذلك الدهن ليكون غذاء مخزوناً عند الحاجة .

فكلّ ٤٠٠ غم من الشحم المستهلك ينتج نحو نصف كغم ماء ، وذلك لأنّ الشحم المستهلك يطلق الهيدروجين كناتج فرعي عن عملية التفتيت هذه ، ويتّحد الهيدروجين المنطلق مع الأكسجين الداخل في عملية التنفس فيتكوّن الماء (١) .

ونظراً لأن الأكسجين أثقل من الهيدروجين فإن إنتاج نصف كغم من الماء لا يتطلّب وزناً كبيراً من الهيدروجين .

وإذا افترضنا أنّ الجمل احتاج إلى سنامه كلّها أثناء عطشه فإنه ينتج عن عمليّة تفتيت السنامة ما مقداره بعملية حسابية بسيطة ٢٧,٥ كغم ماء .

هذا عدى عن استطاعته شرب كمية كبيرة من الماء تبلغ ١١٠ لترات مرّة واحدة لتعويض الماء الذي فقده أثناء فترة الحرمان . كما يساعده في تحمّله هذا ، خاصيّة جسمه العجيبة التي تقلّل من إخراج الماء من جسمه على شكل عرق . فعندما تكون درجة حرارة الجسم ١٠٥ °ف تكون درجة سطح جلده الخارجي ١٠٣ °ف والإنسان لكي يصل إلى هذا المستوى فإن عليه أن يفقد كميّة كبيرة من الماء من جسمه على شكل عرق ، لكي يحافظ على التوازن بين درجة حرارة جلده وجسمه (٢) .

---

(١) العلم في دنيانا ص٢٧٤ ترجمة : زكريا فهمي ، [illegible] رمضان هدارة ،دار النهضة العربية القاهرة.

(٢) الحواسّ في الإنسان والحيوان ترجمة ثابت قصبجي ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بالتعاون مع فرانكلين / بيروت .

أمّا تحمّله للجوع فإنّ الجمل يستطيع أن يعيد المواد النيتروجينية التالفة التي تكون في الكبد إلى المعدة بدلاً من الكليتين ، ليعيد استعمالها في موادّ بروتينية جديدة (١) .

ويستطيع الجمل أن يتحمّل تقلّبات درجة الحرارة داخل جسمه في حدود ٥,٥ متوية ، بينما إذا ارتفعت حرارة الإنسان درجتين فأكثر فإن ذلك يلزمه الفراش . والجمل يستطيع أن يكيّف جسمه بتذويب الدهن أو بتبخير الماء ، ولكنه يدّخر ذلك لما هو أهمّ ويتحمّل هذا الفرق في درجة الحرارة من أجل أيام شديدة مقبلة قد يتعرّض لها بسبب طبيعة عمله في الصحراء (٢) . وأرجل الجمل ذات الخفّ تساعده على السير فوق الرمال ، والأهداب الطويلة حول عينيه تمنع عنه الغبار ، وشفته المشقوقة تساعده على أكل النباتات الشوكيّة الصحراوية (٣) .

والحصان كالجمل مهيّأ أيضا لطبيعة عمله الليليّة غالباً ، فقد حباه الله نعمة الرؤية في الظلام الدامس ، لأن عينيه تتأثران بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق (٤) .

---

(١) الحواس في الإنسان والحيوان ترجمة ثابت قصبجي ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بالتعاون مع فرانكلين / بيروت .

(٢) عالم الفكر ص٨٥ عبد المحسن صالح ، تكنولوجيا بيولوجية .

(٣) الله والعلم الحديث، ص٨٤ عبد الرازق نوفل دار الجيل .

(٤) في ظلال القرآن جـ٨ ص٥٤٣ .

ولقد جاءت الآيات القرآنية لتؤكد أن هذه الحيوانات مذلّلة مسخرة بقدرة الله ، وإلا فإنّ كثيراً من الحيوانات التي هي أضعف منها تتمرّد على الإنسان وتؤذيه وتقلق عليه معيشته ، قال تعالى : ﴿ وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ﴾ (١) . وقال عزّ وجلّ : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس ﴾(٢) .

ولا يعني ذكر بعض منافع هذه الحيوانات الاقتصار عليها فقط ، وإنّما ذكرت على سبيل التمثيل بالمعتاد المعروف عندهم (٣) قال تعالى : ﴿ ويخلق ما لاتعلمون ﴾ (٤) من جميع وسائل النقل التي نشاهدها في عصرنا الحاضر أو سنشاهدها في المستقبل . وهذه الحيوانات التي نركبها وتحمل أثقالنا ونأكل لحومها ونستفيد من أشعارها وأوبارها وجلودها ، ونستمتع بمرآها في غدوّها ورواحها تحوي من المنافع الكثير . فمن الأنعام يخرج الشراب كما تخرج المنافع الكثيرة التي بقيت على عمومها ، لكي يفهمها كلّ أناس بقدر ما توصّلوا إليه من تقدّم علميّ يساعدهم في الوصول إلى هذه المنافع .

قال تعالى : ﴿ وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مّما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ﴾(٥) . فمن أمعاء هذه الحيوانات يصنعون الخيوط المستعملة في العمليّات الجراحية،ومن معدها يصنعون الأنفحة اللازمة في صناعة الألبان،ومن روثها

---

(١) سورة يس ٧٢ .

(٢) سورة النحل ٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٦ ص٣٧٧ .

(٤) سورة النحل ٨ .

(٥) سورة المؤمنون ٢١ .

السماد الطبيعي الجيّد للنبات ، ومن عظامها المطحونة الخلطات الغذائية المختلفة للإنسان والحيوان ، ناهيك عن التجارب الطبيّة فيها ممّا يساعد على تقدّم ميدان الطبّ البشري .

واللبن السائغ شاربه الذي يخرج من بطونها يعتبر من أفضل الأغذية للإنسان ، فهو يحوي من العناصر الغذائية ما يجعله الغذاء الأوّل لمن أراد أن يحافظ على سلامته وصحّته . وهو الوصفة الطبيّة الوحيدة للمصابين بأمراض القرح الهضمية ، حيث عجز الدواء عن تقديم حلّ أفضل من المداومة على شرب اللبن بكميّات مناسبة على فترات مختلفة .

وتكوّن هذا اللبن من بين فرث ودم شاهد حيّ على عظمة الله وإبداعه في مخلوقاته ، لتكون مصدر خيرات وبركة للإنسانية عامة .

فهذه الأمعاء التي تمتصّ الخلاصات الغذائية من الفرث تتحوّل إلى دم يجري في البدن ، وهذا الدم يتحوّل إلى لبن بإذن الله ، ومازال العلم عاجزاً عن الكشف عن أسرار هذا التحوّل من الفرث إلى الدم إلى اللبن .

وفي اللبن وردت أحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ منها : (من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإني لا أعلم ما يجزي من الطعام والشراب إلاّ اللبن) (١) .

وعن عبد الله بن مسعود مرفوعا:(عليكم بألبان البقر فإنها ترمّ من كل الشجر ﴾ (٢) .

---

(١) سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة رقم ٣٣١٢ وأخرجه أحمد في المسند .

(٢) مسند أحمد ٤/٣١٥ وانظر زاد المعاد ٣/١٨ .

وقال عليه الصلاة والسلام : (تداووا بألبان البقر فإنّي أرجو أن يجعل الله فيها شفاء فإنها تأكل من كلّ الشجر) (١) .

العســــل :

وبالإضافة إلى اللبن وفوائده ، نبّه القرآن الكريم إلى بعض الفوائد المجتناة من النبات ، وذلك عندما يقوم النّحل بجني الرحيق وإخراج العسل الذي فيه شفاء للناس . قال تعالى : ﴿ وأوحى ربّك إلى النّحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وممّا يعرشون ، ثمّ كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٢) .

فالتعبير بكلمة ربك ، فيه إشارة عظيمة إلى أنّ هناك صلة بين الإنسان الذي يخاطبه ، وبينما عهد به سبحانه وتعالى إلى النّحل ، وأنّ مقام الربوبية مقام منّة وتفضّل ، والضمير في (فيه) يعود على الشراب وهو العسل ، وهذا ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة .

وقال مجاهد الضمير عائد على القرآن ، وهو قول بعيد عن سياق الآية وإن كان الشفاء في القرآن متحقّق بنصّ قوله تعالى : ﴿ وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٣) .

---

(١) مجمع الزوائد جـ٥ ص٩٠ ورجاله ثقات ، وأخرجه الطبراني ، الجامع الصغير جـ١ ص١٣٠ دار الكتب العلمية بيروت / السيوطي .

(٢) سورة النحل ٦٥ .

(٣) سورة الإسراء ٨٢ .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي من قال أنّ المقصود بعودة الضمير هنا إلى القرآن فهو بعيد ، وما أراه يصحّ عنهم ، ولو صحّ نقلاً لم يصحّ عقلاً فإنّ مساق الكلام كلّه (العسل) (١) .

ولا نريد أن نفصّل منافع العسل وتعدّدها في هذه الصفحات ففي مثل هذا ألّفت الكتب ونشرت الأبحاث العديدة (٢) .

ولقد اهتمّت السنّة النّبوية بالعسل وأكّدت ما جاء في القرآن الكريم ونبّهت المسلمين إلى ما فيه من الخيرات والمنافع العميمة .

وكان رسول الله ﷺ يحبّ العسل والحلواء (٣) .

وفي صحيح البخاري عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنّه قال: (الشّفاء في ثلاثة شرطة محجم أو شربة عسل أو كيّة بنار وأنهى أمّتي من الكيّ) (٤) .

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢٠٣ للنووي /المطبعة المصرية ومكتبتها القاهرة .

(٢) انظر كتاب (العسل) الذي ألّفته رئيسة جمعيّة أبحاث النحل الطبيعية ويقع في ٦٠٨ صفحات وختمت كتابها بالآية الكريمة (فيه شفاء للناس) وكتاب(العسل)لمؤلفه د. محمد نزار الدقر وقد حاز على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية لعام ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م . ولقد ذكر في نهاية كتابه ٦٦ مرجعاً باللغة العربية و٧٣ باللغات الأجنبية كلّها تتحدّث عن العسل وفوائده وما فيه من المنافع العميمة التي جاءت الآية القرآنية لتشملها جميعاً .

(٣) أخرجه البخاري ٣٣١/٩ في الطلاق باب قول تعالى : ﴿ لم تحرّم ما أحلّ الله لك ﴾ وفي الأطعمة باب الحلواء والعسل ، وأخرجه مسلم رقم ١٤٧٤ في الطلاق وأبو داود رقم ٣٧١٥ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣٦/١٠ رقم ٥٦٨٠ .

ولقد علّق ابن حجر على شرح الحديث بقوله إنّ المقصود من ذلك ليس الحصر فإنّ الشفاء قد يكون في غيرها وإنّما كان للتأكيد والتنبيه على أهميّة ما ذكر (١).

وهذا الحديث قد شمل العمليّات الجراحيّة والمشروبات الدوائية وقتل العناصر الخبيثة بالحرق بالكهرباء وأشعة (اكس) وغيرها .

وعندما شرح صاحب نيل الأوطار هذا الحديث وفّق بين الروايات التي نهت عن الكيّ والروايات التي أجازته ، وذلك فيما لو كان لاستعماله ضرورة لم يكن هناك علاج آخر يقوم مقامه ويغلب على الظنّ الشفاء بذلك (٢).

أمّا العسل فقد لخّص منافعه الموفق البغدادي بما يلي :

يغسل المعدة والأمعاء من الأوساخ ويشدّ المعدة وينقّي الكبد والصدر ومدرّ للبول وينفع للسّعال وفي علاج أصحاب الصفراء. وإن اكتحل به جلى ظلمه البصر وإن استنّ به صقل الأسنان (٣).

وروى ابن مسعود رضي الله عنه ﷺ قال : (عليكم بالشّفاءيْن القرآن والعسل) (٤).

---

(١) فتح الباري جـ١٠ ص١٣٨ .

(٢) نيل الأوطار جـ٩ ص٩٥ محمد الشوكاني / دار الفكر بيروت .

(٣) نيل الأوطار جـ٩ ص٩٥ .

(٤) الجامع الصغير جـ٢ ص٦٤ وصححه السيوطي دار الكتب العلمية بيروت ، سنن ابن ماجة جـ٢ ص١١٤٢ ، وأخرجه الحاكم ٤/٢٠٠ وصحّحه ووافقه الذهبي .

وفي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال : إنّ أخي استطلق بطنه فقال رسول الله ﷺ : اسقه عسلاً ، فسقاه ثم جاءه ، فقال : إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقا ، فقال له ثلاث مرّات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا . فقال لقد سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقا فقال رسول الله ﷺ صدق الله وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلاً فسقاه فبرأ) (١) .

وعلّق النووي على شرح هذا الحديث بقوله يحتمل أن يكون هذا الإسهال للشخص المذكور في الحديث أصابه من امتلاء أو فساد غذاء ، فأمره ﷺ بشرب العسل وزاده عسلا إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال ، ولسنا نقصد بذلك تصديق الحديث بقول الأطباء بل لو قالوا غير ذلك لكذّبناهم وكفّرناهم فكيف إذا شهد بذلك أهل الطبّ والصناعة (٢) .

وذهب إلى نفس هذا الرأي ابن القيم في كتابه زاد المعاد (٣) .

ولقد أكّد الطب الحديث صحّة هذا التعليل وصرّح بذلك عدد من الأطبّاء .

وذهب الرّازي إلى أنّه عليه الصلاة والسلام علم بنور الوحي أنّ العسل سيظهر نفعه بعد ذلك . فلمّا لم يظهر نفعه في الحال قال عليه الصلاة والسلام (صدق الله وكذب بطن أخيك) لأنّه متأكد من ظهور نفعه (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/١١٩ في الطّب ، باب الدواء بالعسل ومسلم رقم ٢٢١٧ في السلام ، باب التداوي بسقي العسل .

(٢) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص١٩٤ .

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد جـ٣ ص١٩٧ ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) التفسير الكبير جـ٢ ص٧٣ الفخر الرّازي دار الكتب العلمية طهران .

ويذكر النووي في شرح الحديث كذلك بعض الأشفية التي اتفق الأطبّاء في عصره على وجودها في العسل منها أنّه مدرّ الطمث والبول ونافع في السموم ويذهب الكَلَف إذا طلي به ويحرّك شهوة الجماع ويقتل الدّود في الأمعاء إذا خلط مع حبّ القرع وينفع من برد المعدة والكبد (١).

ولقد استعمل العسل في الطبّ الحديث على نطاق واسع ، فهذا الجرّاح العالمي (البرت شويتزر) الحائز على شهادة نوبل في العلوم عدل عن استعمال كافّة المطهّرات في مستشفاه في (الغابون) واعتمد على شفاء الجروح السريعة على شاش معقّم مغمّس بالعسل ، كما طبّقوا استعماله على إصابات الحروق المختلفة والتهابات القرنيّة وتقرّحاتها في العيون والقرح المعدية والآفات الكبدية المختلفة .والأمراض الجلدية المستعصية ، وعلاج الإمساك ، والتخفيف من مرض السكّري والتهابات المجاري التنفسيّة ، وكعلاج موضعي لالتهاب اللوزتين ، والجيوب ، وأفضل المهدّئات للجهاز العصبي ، وحالات قصور القلب وفي حالات إقياء الحمل وفي التخلّص من الحكّة المزمنة (٢).

وقد ثبت طبيّا أنه وسط غير صالح لنموّ الجراثيم ، وأنّ معظم الجراثيم على اختلافها تموت بالعسل .

ولقد أدرك الناس قديماً أهمية العسل وفوائده ، فقد اكتشفت وثيقة فرعونية تعود إلى ٣٥٠٠ سنة تتحدّث عن العسل كعلاج فعّال للأمراض ، ولقد

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص١٩٦ .

(٢) العسل ص٧-١٢ محمد نزار الدقر المكتب الإسلامي بيروت .

اكتشفت أيضاً بجانب ذلك قوارير من العسل مضت عليها هذه المدّة الطويلة ولم يتطرّق إليها الفساد .

ولقد بدأ باستعمال العسل كمادّة مضادّة للعفونة في أحدث مجالات الطبّ الحديث ، حيث تستعمل محاليل عسليّة خاصّة لحفظ العظام والقرنيّة وغيرها في جراحة التطعيم والتزميم ، لأنّ حفظ هذه الموادّ في الكحول يقضي على حيويّتها ويؤدّي لموتها ولن يكون أيّ فائدة في زرعها من جديد (١) .

أمم أمثالكم (حكمة وإبداع) :

من النعّم التي خلقها الله للإنسان ، هذه الحيوانات والطيور المسخّرة على تنوّعها وكثرتها ، وماها من الخصائص المختلفة ، وما فيها من التقدير والإبداع الذي يأخذ بالعقول ، وما لديها من السلوك والهداية الذي يذهب بالألباب ، ولولا هذه الأسرار الربّانية في هذه الكائنات لما استطاعت أن تستمرّ في حياتها بنجاح ، ولما ترتّب على ذلك لنا فيها مزيد نفع وخير . ومازال العلم الحديث يحاول التعرّف على بعض هذه الأسرار الربّانية في هذه الكائنات ، فهناك هجرة الطيور والأسماك ، والغرائز المختلفة لدى النّمل والنحل وغيرها ، التي يدرك الباحث فيها لأوّل وهلة ، أنّ هذه الكائنات تسير وفق نظام خاصّ محكم لغاية محدّدة خلقت من أجلها .

---

(١) العسل ص١٢ محمد نزار الدقر .

وعندما تقوم هذه الكائنات بتلك العمليات المعقدة ، إنّما تقوم بذلك دون سابق تعليم ، والاستنتاج الوحيد الممكن في هذا الشأن ، هو أنّ الجيل الجديد يرث عن أبويه بطريقة لم تعرف بعد ، نظاماً عصبيّا أوتوماتيكيّا يشبه في تصميمه تصميم آلات ساعة محكمة مملوءة ومُعدّة لتأدية حركاتها المحددة بانتظام . وقد يتمّ هذا العمل تحت مسبّبات داخلية أو خارجيّة إلاّ أنّنا لا نستطيع أن نخمّن طبيعته (١) .

فهجرة الطيور التي مازال العلم يحتار في تفسير أسبابها ودوافعها ، ويضع لذلك النظريّات المختلفة ، وآخر هذه النظريات تقول إنّما هي مخلوقات فلكيّة بارعة تهتدي بالتبدّلات الفلكية في السماء وتهتدي في أسفارها الليلية بمواقع النجوم (٢) .

ولقد أثبت القرآن الكريم أنّ هناك وسيلة تفاهم لهذه الكائنات ، قال تعالى : ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيّها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ (٣) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ قالت نملة يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطِمَنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ (٤) .

---

(١) المجتمعات الحشريّة ص٢٠ ، تأليف :هارولد باستن، ترجمة يحيي محمد إبراهيم ، راجعه د. محمود حافظ الناشر ، الناشر مؤسسة سجلّ العرب القاهرة .

(٢) غرائب في مملكة الحيوان ص١١٤ صبري القباني

(٣) سورة النمل ١٥ .

(٤) سورة النمل ١٨ .

وقال عزّ وجلّ على لسان سليمان : ﴿ مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ (١) . فأثبت الله عزّ وجلّ للنمل وللطير منطقاً خاصّاً بها وهي أصناف يجرى عليها ما يجرى على باقي الحيوانات .

وقال تعالى : ﴿ وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ (٢) .

ولقد اختار الزجّاج أنها أمم مثلكم في الخلق والرزق والموت والبعث والقصاص (٣) .

وقيل إنّ أحوالها محفوظة وأمورها متقنة ومصالحها جارية على سنن السداد ، ومنتظمة في سلك التقديرات الإلهية ، والتدبيرات الربّانية ، وأنّهم يحشرون يوم القيامة فينصف بعضهم من بعض ، حتى يبلغ من عدله أن يؤخذ للشاة الجمّاء من القرناء (٤) .

---

(١) سورة النمل ٢٠ – ٢١ .

(٢) سورة الأنعام ٣٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن القرطبي جـ٤ ص٢٤١٧ .

(٤) تفسير أبي السعود جـ٣ ص١٣١ .

يشير بذلك إلى ما جاء في صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال : (لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) .

انظر صحيح مسلم كتاب البرّ والصلة والآداب رقم ٤٦٧٩ .

وما من خلق في هذه الأرض كلّها إلا وهو منتظم في أمّة ذات خصائص واحدة وطريقة في الحياة واحدة وكذلك شأنها في هذا شأن أمة الناس ما ترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله وعلم يحميه (١).

ونقل الواحدي عن ابن عبّاس أنّ المراد بالمماثلة أنّها تعرف الله وتوحّده وتسبّحه وتحمده (٢).

ونقل عن سفيان بن عيينة أنه قال : ما في الأرض آدميّ إلاّ وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من يسلك سلوك الخنزير ، فاعلم يا أخي أنّك إنّما تعاشر البهائم والسّباع فبالغ في الحذر .

وهذا القول إذا صحّ دخوله ضمن الصفات الحيوانيّة المشتركة بين الإنسان والحيوان لا يصحّ أن يكون هو المراد من الآية .

والمختار أنّ الله عزّ وجلّ بيّن لنا وجه المماثلة لأجل أن نستعمل حواسّنا وعقولنا في هذه الكائنات ويدفعنا إلى البحث في أمورها وأحوالها (٣).

ولقد اهتمت السنّة النبويّة بالبحث في أحوال هذه الكائنات ووضّحت طرقاً من طرق حياتها ومعيشتها .

فهذا أبو ذرّ رضي الله عنه يقول : (لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلّب طائر جناحيه إلا ذكر لنا منه علما) (٤).

---

(١) في ظلال القرآن جـ٧ ص١٩٨ .

(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٢ .

(٣) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٢ .

(٤) مسند أحمد ١٥٢/٥ وانظر تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٦ .

ولقد اهتدى العلماء في أبحاثهم إلى بعض هذه المثلية في كشفهم لأسرار حياة النمل والنحل وغيرها ، وما تقوم به من سلوك عجيب في تدبير أمور حياتها والحفاظ على نوعها وتعاونها فيما بينها .

ولقد قال بعض العلماء في تفسيره لغرائز هذه الحيوانات وسلوكها ، إنّها نوع من التعقّل يتصاعد في سلّم التطوّر ، وقد يكون لبعض الحيوانات عقل بدائي يسير في سلّم الترقي ، أمّا العقل السليم فيضطرّ إلى التسليم بأنّ سلوكها هذا أثر لإرادة حليمة شاءتها حكمة الله عزّ وجلّ (١). ولقد حاول بعض المفسّرين المحدثين أن يفسّر منطق الطير على طريق النظريات العلميّة فيقول هؤلاء : " إنّ الرمز هو أحد وسائل الخطاب . قال تعالى : ﴿ قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيّام إلاّ رمزا ﴾ (٢). يفيد أنه يمكن اعتبار التخاطب بطريق الرمز والإشارة لغة " .

ولقد درس العلماء وسائل التفاهم عند بعض هذه الكائنات في حدود معلوماتهم ، واهتدوا إلى أنّ تفاهمها فيما بينها بطريق الرموز ، وهذه الرموز قد تكون صوتيّة أو مرئيّة أو بطريق اللمس أو الشمّ أو الضوء أو اللون (٣).

وهذه محاولة سطحيّة لإدراك خارقة ربّانية اختصّ الله بها بعض عباده الصالحين ، ولو كان الأمر كما يقولون أنّ الأمر هو مجرّد فهم رموز هذه

---

(١) قصة الإيمان ص٣٦٦ .

(٢) سورة آل عمران ٤١ .

(٣) عالم الفكر جـ٧ عدد٢ ص١٥٠ لغة الحيوان / يوسف عزالدين .

الحيوانات وحركاتها لما كان في ذلك مزيد فضل ولا ظهرت الخارقة الربّانية التي اختصّ الله بها نبيّه سليمان حقّ ظهورها ، إذ يمكن لغيره من كافّة علماء البشر أن يدرسوا ظواهر هذه الحشرات وسلوكها ورموزها ويحلّلوا ويهتدوا إلى ما يريدون . وقد يقول قائل إنّ هذه الخارقة إنّما كانت لبعض الطير وبعض الحيوانات المسخّرة لسليمان ، ولم تكن كل الهداهد أو النّمل تستطيع التمييز والتكلّم ، كما تستطيع ذلك الحيوانات المسخّرة لسليمان . ولكنّ هذا التخصيص الذي جاء بدون مخصّص ، لا يعني أنّ باقي الحيوانات غير المسخّرة ليس لها منطق فيما بينها ، أو أنّ منطقها هو تلك الرموز التي توصّل إليها بعض العلماء ، لأنّ هذا إخبار ربّاني بحقيقة نستطيع إدراك ظواهرها ، ولكننا لا نستطيع الغوص إلى حقيقتها وإدراك كنهها .

ولقد أجريت على النّحل تجارب عديدة توصّل فيها إلى أنّه يتفاهم مع بعضه البعض بطريق الرّقص ، فالنحلة تستطيع إخبار رفيقاتها عن مكان الرّحيق وتحديد مسافته واتجاهه ، ويمكنها أن تشير إلى الاتجاه بالاستفادة من الزاوية التي تصنعها الأرض مع الشمس في حالة دوران الأرض حول نفسها (١) . ويرى العلماء أنّ هناك تنوّعاً في أصوات الطيور تدلّ على ما قام بخيال ذلك الطائر من فرح أو حزن أو جزع ، وهي تنوّعات لأغراض محدودة ولكنّها ثابتة ،إذ سجّلت على أشرطة وأذيعت في الغابات فنتج عنها نفس ردّة الفعل من باقي الطيور عند سماع مثل هذا الصوت (٢) .

---

(١) عالم الفكر مجلد ٧ عدد٢ ص١٥٧ يوسف عزالدين لغة الحيوان .

(٢) جواهر القرآن جـ٧ ص١٣٥ طنطاوي جوهري .

أمّا النّمل فإنه يتفاهم بطريق اللمس سواء باستخدام إفرازاته المختلفة التي لكلّ إفراز منها تعبير معيّن ، أو بطريقة ضرب رأسه بجدران مسكنه ، كما يستخدم اللون في بعض الحشرات لتعرف الذّكر على الأنثى في عملية الإخصاب .

وإذا نظرنا إلى الحيوانات عامّة وجدنا لها نوعاً من الإدراك يكفي لتأمين معيشتها ، ولكن لا ينتظر منها أن تدرك حقيقة الإنسان وتصرّفاته وتصوّراته ، فهي على ذلك مفطورة ، وقد يتعلّم بعضها أو يكسب بعض المهارات الجديدة إلاّ أنّ ذلك يبقى في نطاق التصرّفات الغريزيّة ، ولا يصل بها إلى مستوى التفكير العلمي بحال من الأحوال (١) .

ويذكر الفخر الرازي أمثلة مختلفة لبعض سلوك الحيوان ، وبعد أن ينتهي من ذلك يعقّب بقوله : " واعلم أنّ الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان ، والمقصود أنّ الأكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل (٢) .

وقد أطال العلماء القول في إدراك الحيوان ، وقدّموا الأدلّة المختلفة من النقل والعقل ، ويمكن أن نخرج من كلّ هذه الآراء بأنّ لهذه الحيوانات إدراكاً متفاوتاً فيما بينها ولكنّه لا يصل بأي حال إلى مرتبة إدراك الإنسان ، لأنّ إدراكها ضيّق منحصر في مجال حفظ الفرد أو النّوع بينما إدراك البشر لا تنحصر أنواعه وأفراده (٣) .

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص٢١٥ .

(٢) التفسير الكبير الفخر الرازي جـ٢٣ ص١١ .

(٣) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٨ .

ويرى بعض العلماء الحادثين أنّ الغرائز ضرب من التعقل يتصاعد في سلّم التطوّر ، ولكن المشاهد أنّ بعض هذه الحيوانات التي من المفترض أن تكون في أدنى سلّم التطور بزعمهم ، تحسن من الأعمال ما يدهش العقول كالنمل والنحل والعناكب ويعجز عنها الكبير الأرقى منها (١) .

ومن الأمثلة المشاهدة على أنّ تلك الكائنات تمثل عالماً خاصّاً بها لكلّ منها أمّته التي يعيش مع أفرادها حياة تعاون يندر مثيلها في عالم الإنسان ، فالنحل لكل مستعمرة من مستعمراته رائحتها الخاصة به ، ويقف الحرّاس على باب الخليّة تحاول الإمساك بأيّة نحلة غريبة من مستعمرة مجاورة (٢) ، وتقوم بعض أنواع النمل بتسلّق الأشجار وقطع أوراقها وسحبها إلى داخل المسكن ، حيث تقطّع إلى قطع صغيرة وتهيّأ على شكل فراش ، وعلى هذه الأوراق ينمو نوع خاصّ من الفطر تقوم النّمل على رعايته حتى ينتج أكياساً جرثوميّة بيضاء يتغذى النمل عليها . وبعض النّمل يعيش على استرقاق غيره من النّمل، فيهاجم المستعمرات الأخرى ويقيم بينه وبينها معاهدات تحالف وحماية، فنجد بعض أنواع النمل الصغير يقف على باب المستعمرة للحراسة ، فإذا عجزت هذه عن مقاومة الخطر فإنّه ينبّه النمل الكبير الشرس ، فيخرج للحال، ويذكّرنا هذا بحال الجنود المشاة حرّاس الحدود والقوات المدرّعة التي تقف خلفهم (٣) .

---

(١) قصّة الإيمان ص٣٦٦ .

(٢) عالم النحل جلبرت نكسون ترجمة على المرسي دار الفكر العربي رقم ٣٨٣ سنة ١٩٦١م .

(٣) في عالم الحيوان ص٦٧ د. حسين فرج زين الدين .

وقد يدهش الإنسان إذا علم أنّ للنمل بالإضافة إلى قدرته الدفاعيّة وموارده التموينية ومخازن الطعام ودور الحضانة وحدائق الزراعة فنّ معماري وهندسي يأخذ بالعقول ، فبعض النمل يبني بيوته وينظمها بشكل يستطيع فيها الحياة تحت الظروف الجويّة المختلفة لأنّها مكيّفة الهواء من الداخل . ولقد وجدوا أن درجة الرطوبة في المملكة تبقى ثابتة بين ٩٨٪ – ٩٩٪ ، ولا تنخفض أبداً لأقل من ٩٧٪ حتى لو كان الجو الخارجيّ في غاية الجفاف ، وتمّ ذلك بعد عدة عمليّات تسجيل وقياس استمرّت شهوراً وسنين طويلة (١) .

ولقد وجد أنّ بعض أنواع النمل تحفر إلى عمق يزيد عن ٤٠ متراً حتى يقترب من المياه الجوفية ، ومنها تتبخّر الرطوبة وتنتشر في الأنابيب التي تمثّل مسالك متعدّدة في بناء البيت المحكم البناء ، الذي قد يعجز الإنسان عن تحطيمه سوى بالديناميت (٢) . ويستفيد النمل من غرفه المليئة بالمواد العضويّة التي أصبحت على هيئة مزارع وبساتين،لأنّها تعمل كجهاز يبقي جوّ الخلية في درجة حرارة ملائمة ، فعندما تنمو الكائنات الفطرية على المواد العضوية تؤدّي إلى عمليّات تخمّر ، وعندما تتحوّل الطاقة الكيميائية إلى طاقة حرارية تنطلق في تلك الغرف ، وعلى هذه الغرف تمرّ طرق الهواء البارد المحمول من أنابيب التهوية ، وتزوّده بالحرارة ، ومنها ينطلق إلى داخل المملكة عن طريق سراديب أخرى، فتحدث التدفئة ، لأنّ التيار الساخن يرتفع والبارد ينزل إلى أسفل ، وكلّما

---

(١) ، (٢) مجلة عالم الفكر (تكنولوجيا بيولوجية) ص ٥٩٠ د. عبد المحسن صالح .

زادت المستعمرة اتّساعا زادت غرف المزارع ، لأنها ضرورية لتغذية النمل وتكييف جوّ المستعمرة أيضا .

وإذا ما استمرّ نزول المطر وأحسّ النمل في الدّاخل بتبلّل المستعمرة وتضاؤل تبادل الغازات ، تسرع بعض الفرق إلى أنابيب التهوية فتخرقها لتتّصل بالهواء الجوّي مباشرة .

وقد يعمد البعض إلى بناء سقوف مائلة يتساقط عليها المطر وينزل بعيدا عن أسوار المستعمرة وأنابيب التهوية (١) .

وليس النّمل وحده هو الذي يعمل على تكييف بيته ، فهناك النحل الذي تذهب بعض شغّالته لإحضار الماء وترشّه على جدار المستعمرة ، ثمّ يأتي قسم آخر من الشغّالات ليحرّك أجنحته على هيئة مروحة ، فيعمل ذلك على تبخّر الماء وخفض درجة الحرارة . وفي أيام البرد الشديد يتجمّع حول نفسه في حشود كثيفة متلاحمة ، ويتغذّى على كمية كبيرة من العسل ، ويبدّل مواقعه مع بعضه البعض ، فالذي كان على طرف الحشد يدخل بين النحل ، بينما يخرج من كان في الداخل إلى السّطح لكي ينال الجميع حظّه من الدفء بالتساوي (٢) .

ومن مظاهر هذا التعاون صداقة الطائر للتمساح ، الذي ينظّف له أسنانه ، وطائر الخرتيت لحيوان الخرتيت الذي ينبّهه من خطر عدوّه إذا داهمه من

---

(١) عالم الفكر (د.عبد المحسن صالح) ص٣٦ (بيولوجيا الكائنات الحية) مجلد ٩ عدد٣ سنة ١٩٧٨م .

(٢) انظر تفسير جواهر القرآن القرآن جـ٧ ص١٣٥ ، ص ١٦٥ حول النحل والنمل .

الخلف ، لأنّ حيوان الخرتيت لا يتمتّع بنظر حادّ ناهيك عن ضخامة جسمه الذي يعيق تلفّته إلى الوراء (١) .

والزنبور الذي يمسك بالجندب فيخزّه في المكان المناسب حتى يفقد وعيه دون أن يموت ، فتضع أنثى الزنبور بيضها في الحفرة التي دفن هذا الجندب فيها لكي يتغذّى صغارها على الحشرة عندما تفقس ، والباز الإفريقي عندما يشاهد لهباً في الغابة يتوجّه نحوه ، وينقضّ في الحال على صغار الحيوانات الهاربة من وجه النيران (٢) .

كما تستطيع أغلب الحيوانات وهي ذوات الدم البارد تكييف درجة حرارة جسمها مع درجة الحرارة الوسط الذي تحلّ فيه .

كما أنّ الحيوانات الصحراوية يقلّ احتياجها للماء بينما نجد الحيوانات القطبية تحتفظ بطبقة من الشحم بالإضافة إلى الفراء الذي يكسوها (٣) .

وعندما يصطاد العقاب السلحفاة ولا يجد فيها موضعاً للأكل ، فإنه يرمي بها من الأعلى على صخرة فتهشمها الوَقْعة فيسقط عليها فيأكلها .

والغراب إذا وجد شيئا أكل منه ، ثم دفن الباقي ليرجع إليه في وقت آخر (٤).

والهداية الربّانية وحدها التي هيّأت كل شيء في هذا الكون من أجل إتمام عمارته ، هي التي تدفع الدجاجة لتقليب البيض أثناء احتضانه ولو لم يتمّ التقليب ما فقس البيض .   والهداية الربّانية هي داخل بيضته بمنقار لينقر

---

(١) مجلة العربي عدد ٢٢١ ص٦٣ سنة ١٩٧٧ (ميثاق غير مكتوب في مجتمع الحيوان) د.عبد المحسن صالح .

(٢) غريزة أم تقدير إلهي ص١١ شوقي أبو خليل .

(٣) كوكبنا النابض بالحياة ص١٦٢ .

(٤) الحكمة في مخلوقات الله عزّ وجلّ ص٧٥ أبو حامد الغزالي مكتبة الجندي القاهرة .

القشرة الخارجية ويخرج إلى الحياة .

وهناك الطائر المسمّى بالحضّان يضع بيضه داخل كومة من التراب أو الرمل بدل أن يرقد عليه ، وهو يعمل باستمرار لكي يبقى هذا البيض على درجة حرارة ٣٣ مئوية لا تزيد ولا تنقص . ويعمل على ضبط درجة الحرارة هذه بزيادة أو إزاحة ما على البيض من الرمل ، ويستطيع أن يتأكد من المحافظة على تلك الدرجة بدقّة متناهية ، إذ يغرس منقاره في الكومة ثمّ يخرج بعض حبّات التراب بين لسانه وسقف منقاره،فيدرك تلك الدرجة المطلوبة وكأنّه ترمومتر من أكثر الأجهزة حساسيّة (١)

وهناك كثير من الحشرات لديها حساسيّة للإشعاعات الحرارية لا تستطيع منافستها في ذلك الصواريخ الحديثة (٢).

وهذا بروفسور في علم فسيولوجيا الأعصاب (٣) يؤكّد أنّ البعوضة باستطاعتها أن تسجّل فروقاً في درجة الحرارة تصل إلى جزء من خمسمائة جزء من الدرجة المئوية $\frac{١}{٥٠٠}$ إذا كان بينها وبين المصدر (سنتمتر واحد في الهواء (٤) والبقّة تستطيع أن تعرف الجزء المعرّى من الإنسان فتهبط عليه بسرعة ، وذلك بالتقاط قرون الاستشعار لديها الأشعة تحت الحمراء لجسم المريض (٥) .

---

(١) عالم الفكر ص٥٢ د. عبد المحسن صالح تكنولوجيا بيولوجية الكائنات الحية .

(٢) عالم الفكر ص٥٢ ، د. عبد المحسن صالح تكنولوجيا بيولوجية .

(٣) هو البروفوسور كونراد هيرتر العالم الروسي .

(٤) عالم الفلك ص٥٣ .

(٥) المصدر السابق .

وقد أمكن الاستفادة من هذا الاستشعار الحراري في نطاقات واسعة إذ به يتمّ تحديد الأهداف الأرضية أو اكتشاف المعادن والبترول تحت الأرض ، كما يمكن تحديد الآلات المتحركة في الجوّ كالطائرات فيلاحقها الصاروخ فيصيبها إصابة مباشرة (١) .

ولقد زوّد الله عزّ وجلّ هذه الكائنات بما يحفظ عليها حياتها ويدرأ عنها الخطر ، فهناك بعض أنواع الأسماك إذا أحسّت بالخطر أخرجت من جوفها سائلاً يشبه الحبر ، فيتعكّر المكان ثم يذهب في الماء ولا يعرف طريقه (٢) .

الرّفق بالحيوان :

ما دامت هذه الحيوانات أممٌ مثلنا في الخلق والرزق والموت ، فقد اختُلف هل هي مثلنا في البعث والقصاص يوم القيامة أم أنّ حياتها قد انتهت بموتها ؟ .

يرى جمهور العلماء أنّها تبعث يوم القيامة ويقتصّ للشاة الجمّاء من الشاة القرناء ثمّ تصبح كلّها ترابا (٣) ، وهو قول أبي ذرّ وأبي هريرة والحسن وغيرهم ، ويستدلون بما روي عن رسول الله ﷺ : (لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) (٤) .

---

(١) عالم الفكر ص٥٣ .

(٢) الحكمة في مخلوقات الله عزّ وجل ص٨١ أبو حامد الغزالي / مكتبة الجندي القاهرة .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص٢٤١٨ القرطبي .

(٤) الجامع الصحيح جـ٤ ص٦١٤ الترمذي ، وانظر صحيح مسلم كتاب البرّ والصلة والآداب رقم ٤٦٧٩ .

كما يستدلّون بقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ (٢) فيحشر الله الخلق كلّهم يوم القيامة والبهائم والدوابّ والطير وكلّ شيء .

وروى عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : (انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال يا أبا ذرّ هل تدري فيما انتطحتا ؟ قلت : لا ، قال : ولكنّ الله تعالى يدري وسيقضي بينهما) (٣) .

قال قتادة : يحشر كل شيء حتّى الذباب للقصاص فإذا قضي بينهما ردّت ترابا (٤) .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما : حشرها موتها يقال أجحفت السّنة بالناس وأموالهم ، حشرتهم السنة (٥) .

وروي ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ موت البهائم حشرها (٦) .

وذكر الألوسي أنّ مجموع النّصوص مستعار على سبيل التمثيل للموت ، كما ورد في الأثر إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته (٧) .

---

(١) سورة الشمس ٣ .

(٢) سورة الأنعام ٣٩ .

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ١٠ ص٣٥٢ ابن الهيثمي .

(٤) إرشاد العقل السليم جـ٩ ص١١٥ أبو السعود .

(٥) الكشّاف جـ٤ ص٢٢٢ الزمخشري .

(٦) روح المعاني جـ٧ ص١٤٥ الألوسي .

(٧) المصدر السابق .

ولقد ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته أنّ الحشر يشمل الجمع والبعث (١).
وصوّب ابن جرير أنّ المراد بالحشر حشر الموت وحشر البعث ، ومعنى الحشر بالموت هو سوق الأحياء إليه حتى يكون الموت غايتهم ، ولكنّ هذا الجزاء ليس جزاء تكليف لأنها لا تعقل . ومنهم من ذكر أنها مكلّفة ولها رسل ولكنّ هذه أقوال لا يعوّل عليها (٢).

وهذه الحيوانات كائنات خلقها الله عزّ وجلّ لحكم باهرة ومنافع عديدة تعود في أغلبها على الإنسان باليُمْن والخير ، ولذا فقد أوصى الإسلام بها خيراً ، وحثّ على أن تكون الاستفادة منها فيما شرع الله عزّ وجل من وجوه النفع العائدة على الإنسان ، وليس في مجال اللهو والعبث دونما حاجة أو منفعة ، ولذا فقد حرّم الإسلام اتّخاذ البهائم وكل ذي روح أغراضاً للرماية .

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه دخل دار الحكم ابن أيوب فإذا قوم قد نصبوا دجاجة يرمونها فقال : (نهى رسول الله ﷺ أن تصبّر البهائم) (٣).
كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال : (لعن الله من اتّخذ شيئاً فيه الروح غرضاً) (٤).

كما نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم (٥) وعن وسم الدّابة في وجهها وعن إخصاء الخيل والبهائم لأن فيه قطع نماء النوع زيادة على ما فيه من تعذيب للحيوان (٦).

---

(١) المفردات ص١١٩ الراغب الأصفهاني .

(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٤٠٠ .

(٣) نيل الأوطار جـ٨ ص٢٥٠ ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص١٠٦٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) ، (٦) المصدر السابق ، سنن أبي داود جـ٣ ص٢٦ .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالرّفق في كلّ حال (إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويرضى ويعين عليه مالا يعين على العنف فإذا ركبتم هذه الدوابّ العجم فنزّلوها منازلها) (١) .

وروى عمرو بن الشديد عن أبيه مرفوعاً أنّ رسول الله ﷺ قال : (من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله به يوم القيامة يقول يا ربّ إنّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة) (٢) .

وهذا رجل أراد أن يذبح شاة ولم تكن شفرته حادّة فرأى رسول الله هذا المشهد فتأثّر له وقال معنّفاً : أتريد أن تميتها ميتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها (٣) .

وعندما سئل الإمام أحمد عن تشميس دود القزّ ليموت في نسيجه ويستخلص منه الحرير قال : إذا لم يجدوا بدّاً ولم يريدوا بذلك أن يضربوه بالشمس فهو جائز . أي إذا كان من ضرورات الصناعة (٤) .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه على مصر أمّا بعد : فقد بلغني أن الحمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل ما لا تطيق فإذا جاءك كتابي هذا فامنع أن يُحمَل على البعير أكثر من ستمائة رطل،وكتب إلى صاحب السكك

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٦٨٢ الألباني الحديث بكامله في الطبراني أمّا الرفق في مسند أحمد جـ١ ص١١٢ .

(٢) نيل الأوطار جـ٨ ص٢٩٥ ، مجمع الزوائد جـ٤ ص٣٠ والطبراني في الكبير .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ١ ص٢٨ ، مجمع الزوائد جـ٤ ص٣٣ والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(٤) مجلة العربي عدد ٢٤٥ ص٤٤ .

أن لا يسمح لأحد بإلجام دابة بلجام ثقيل أو ينخسها بمقرعة في أسفلها حديدة (١). وكان لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه غلام يعمل على بغل يأتيه بدرهم كلّ يوم فجاء يوماً بدرهم ونصف فقال : ما بدا لك . قال : نفقت السوق قال : لا ولكنّك أتعبت البغل (٢).

وروى البيهقي في شعب الإيمان والخطيب في كتاب التلخيص وابن عساكر عن عبيد الله عن أبي زياد البكري قال : دخلت على ابني بشر المازنيين صاحبي رسول الله ﷺ فقلت : يرحمكما الله الرجل منّا يركب الدّابة فيضربها بالسوط أو يكبحها باللجام فهل سمعتما من رسول الله ﷺ في ذلك شيئاً ، فقالا : لا ، قال عبيد الله : فنادتني امرأة من الداخل فقالت : يا هذا إنّ الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ﴾ (٣). فقالا هذه أختنا وهي أكبر منّا فقد أدركت رسول الله ﷺ (٤). فهذه الصحابيّة استدلّت بالآية على وجوب الرّفق والرحمة بالدواب وغيرها من الحيوان ، وأنّه تعالى يحاسب الناس على ظلمهم لها يوم يحشرهم جميعا .

وروي عن رسول الله ﷺ قال : (لولا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها كلّها فاقتلوا الأسود البهيم) (٥).

---

(١) من روائع حضارتنا ص١٠٠ مصطفى السباعي / والسكاك تشبه دائرة السير عندنا .

(٢) مسند أحمد جـ١ ص٣٧ .

(٣) سورة الأنعام ٣٩ .

(٤) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٤ .

(٥) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٥ ، الجامع الصغير جـ٢ ص١٣٢ للسيوطي وصححه ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص١٠٦٩ . والبهيم من الألوان الذي لا يخالطه لون آخر ، يقال أسود بهيم أي لا لون معه .

وعلّل قتل الكلب الأسود البهيم في حديث آخر عند أحمد ومسلم بأنه شيطان، أيّ ضارّ مؤذٍ ، فاسم الشيطان يطلق على الضارّ المؤذي من الإنس والجن والحيوان (١) .

وقد سأل المنصور العبّاسي عمرو بن عبيد عن سبب هذا الحديث فلم يعرف فقال المنصور : لأنّه ينبح الضيف ويروّع السائل (٢) .

وأخرج النسائي والحاكم أنّ رسول الله ﷺ قال : (ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقّها إلاّ سأله الله عزّ وجلّ عنها يوم القيامة ،قيل: يا رسول الله وما حقّها؟قال :يذبحها فيأكلها ، ولا يقطع رأسها ويرمي بها)(٣) .

ويؤيّد هذا المعنى حديث آخر عن النسائي وابن حبّان في صحيحه حيث قال عليه الصلاة والسلام : (إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) (٤) .

هذه بعض النصوص والآثار التي وردت في المحافظة على المخلوقات والانتفاع بها بطرق سليمة أباحها لنا الشرع الكريم .ولم يبح الإسلام تعذيب الحيوانات أو العبث بها ، وقد أوصى برحمتها والاهتمام بها وأنّه في كل كبد رطبة أجر .

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٥ . وانظر صحيح مسلم رقم١٥٧٢ في المساقاة باب الأمر بقتل الكلاب ، سنن أبي داود رقم ٢٨٤٦ .

(٢) تفسير المنار جـ٧ ص٣٩٤ .

(٣) مجمع الزوائد جـ٤ ص٣٠ ، سنن النسائي ١٣٩/٧ . ضعيف الجامع الصغير رقم٥١٥٧ الترغيب والترهيب ١٠٤/٢ .

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ في الصيد والترمذي رقم ١٤٠٩ في الديات ، التاج الجامع للأصول جـ٣ ص١٠٦ ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص١٠٧٨ .

وأنّ عجوزاً دخلت النار في هرّة لم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض (١) ، وأنّ رجلاً دخل الجنة في كلب لأنّه سقاه بخفّه عندما رآه يلهث من شدة العطش (٢) .

وهذا رسول الله ﷺ يأمر أحد الصحابة بإعادة الفراخ إلى أمّها عندما حمل الفراخ من عشّها ، فلحقت الأمّ بهم ، فيقول ﷺ من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها (٣) .

أيّ رحمة بعد هذه الرّحمة ؟ وأين من هذه التعاليم السامية ما نشاهده كل يوم من عنف وقسوة لا حدود لها من الإنسان على أخيه الإنسان ؟ ناهيك عن متعة إبادة هذه الكائنات الحية التي خلقها الله عزّ وجلّ من أجل إتمام سعادة الإنسان على وجه هذه الأرض .

ولئن ظهرت بعض الدعوات مؤخّراً للمحافظة على البيئة والثروات الحيوانية والرفق بالحيوان ، فهي دعوات إمّا أن تتّسم بروح النفعيّة الآنيّة ، أو بروح المغالاة المتطرّفة التي تجعل الإنسان عبداً للحيوان كما هو حال المدنيّة الغربية الآن . إذ لا يكاد يخلو يوم من أخبار عن حرق الملايين من الأموال على بعض الحيوانات كمؤشر على البذخ والترف .

هذا في الوقت الذي يشقى فيه الإنسان ولا يكاد يحصل على لقمة العيش الكريمة ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على فساد القيم والتصوّرات في غياب منهج الله العادل ، الذي يحقّق الحياة السعيدة المتوازنة للجنس البشري.

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢٤٠ (المتن) .

(٢) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢٤٢ (المتن) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ص٣٣ ، مسند أحمد جـ٥ ص٢٨٣٢ دار الاعتصام .

وتبرز صورة الرفق الذي دعا إليه الإسلام،إذا علّمنا كيف كان يعامل الحيوان في العصور الوسطى والقديمة عند مختلف الأمم والشعوب،فقد كانت دول أوروبا المسيحية تحاكم الحيوانات كما تحاكم الإنسان منذ القرن الثالث عشر وحتى بداية القرن السابع عشر،وكانوا يحتفلون احتفالاً عاماً بتطبيق العقوبات المقرّرة على الحيوانات،فكانت توضع المرّة في قفص من حديد ثم يقذف بها في النار المشتعلة أمام حشد من الناس يحضره بعض الحكّام والقساوسة(١).

ومن أغرب هذه المحاكمات تلك القضية التي رفعت في مدينة بال بسويسرا سنة ١٤٧٤ م على ديك أتهم بأنه باض،وكان من اعتقادهم أنّ بيضة الديك هي إحدى وسائل السحرة الشيطانية،وقُدّم الديك للمحاكمة وحكمت عليه المحكمة بالإعدام وختمت ذلك الحكم بقولها:ليكون في ذلك عبرة لغيره من الدّيكة(٢).هذا بالإضافة إلى محاكمات مختلفة للفئران وحشرات السوس وغيرها (٣).

ومازالت إلى عصرنا الحاضر رياضة مصارعة الثيران والاستمتاع بمشهد الدماء النازفة من الثور تصدم أصحاب الحسّ الإنساني السليم،وتشهد أنّ ما نسمعه من مغالاة في تدليل هذه الحيوانات في الغرب إنّما هو شذوذ وانحراف،إذ كيف يستوي الاستمتاع بمشاهدة عذابها مع الإفراط في العناية بأنواع خاصة منها كالكلاب،إذ بلغ الأمر بها أن تدخل غرف النوم الخاصّة وصالات الطعام،ناهيك عن أخبار الشذوذ الجنسي مع الكلاب والقرود وغيرها،فأيّ جاهليّة أكبر من تلك الجاهلية ؟ ! .

---

(١) من روائع حضارتنا ص١٠٣ مصطفى السباعي .

(٢) من روائع حضارتنا ص١٠٤ مصطفى السباعي .

(٣) المصدر السابق .

(الفصـــل الرابع)

باطن الأرض والبحار وما فيها من خيرات

إنّ البحـار والمحيطـات تعتبر في التقسيم الجغرافي جزءا من سطح الأرض ، ولكنّنا اعتبرناها مع باطن الأرض باعتبار الفعل والواقع ، فلا يستطيع أيّ منّا أن يسير على البحار أو يستقرّ عليها استقرارا دائماً بشكل جماعي كما هو الحال على سطح الأرض .

والغوص داخل البحار قريب جداً من الحفر داخل الأرض واستجلاب خيراتها وكنوزها .ولقدجاء اقتران ذكر البحار والمياه الموجودة على شكل تجمّعات بما جاء من ذكر خيرات الأرض المخبوءة ومعادنها الدفينة مما يدلّ على اتّصال بينها. ومن ذلك ما جاء من ذكر البحر والمياه في القرآن الكريم في مواضع عديدة في مجال تعداد النعم الربّانية وتنبيه العقول للالتفات إليها والاستفادة منها .

قال تعالى : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ (١).

ففي الآية الكريمة تظهر إرادة التنويع في الماء ولا بدّ أنّ وارء ذلك حكم متعدّدة علم الإنسان منها في كلّ عصر بقدر ما آتاه الله .

فهذا الماء العذب السائغ شرابه له فوائده في الشرب وريّ النباتات ، وهذا البحر الأجاج له فوائده من استخراج اللحم الطريّ والمعادن وتسيير الفلك .

---

(١) سورة فاطر ١٢ .

وهذه الأمور على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، والإنسان في بحثه وتقدّمه يكشف عن تلك المنافع والأسرار ، فاتساع سطح البحر له أثره الواضح في تلطيف حرارة الجوّ ويقدّر ما تفقده البحار والمحيطات بطريق التبخّر ٢٨٠ مليون طن في الثانية الواحدة . وهذه الكمية تصبح سحاباً يعود بالخير على الناس (١) .

ولو لم تكن سطوح البحار بهذا الاتساع لما تمّ تبخير هذه الكمية الكبيرة اللازمة للأرض والإنسان والحيوان (٢) .

أهمية الماء وخواصّه :

إنّ للماء خواصّ فريدة يختلف فيها عن غيره من السوائل ، فعندما يتبخّر ماء البحر فإنّ كل جرام أثناء تحوّله من السيولة إلى الغازية يحمل ٥٤٠ (حريرة أو سعر) وهي كمية كبيرة ليس لها مثيل في سائل من السوائل ، وهذا يعمل على تلطيف درجة الحرارة بامتصاص هذه الكمية الكبيرة من السعرات .

وإذا ما تكاثف السحاب في أيام البرد فإنّ كل جرام ماء يشعّ ٥٤٠ (حريرة أو سعر) فيعتدل الجوّ في الشتاء وتصبح البرودة في تحمّل الكائن الحي .

كما أنّ حرارة انصهار الماء مرتفعة أيضاً فيلزمنا ٨٠ وحدة حرارية لكل جرام ماء لتحوّل الثلج إلى ماء في نفس الدرجة .

---

(١) ثروات من البحار ص٢٨٨ / دار الكاتب العربي القاهرة ، أنور عبد العليم .

(٢) الله والكون ص١٦٤ .

وعندما ينصهر الثلج فإنّه يمتصّ كمية كبيرة من الحرارة ، وبالتالي فعندما تقترب الشمس من الأرض وتزداد درجة الحرارة فإنّ هذا التأثير المميت يزول بمجرّد ذوبان كمية بسيطة من القارّتين المتجمدتين ، لأنّ ذوبان كلّ جرام جليد يرافقه امتصاص ٨٠ وحدة حرارية (١).

وإذا ظهرت موجة باردة فوق العادة حول الأرض فإنه يمكن تفاديها برجوع كمية من الماء إلى حالتها الجليدية الأولى .

ويعتبر الماء صاحب أعلى حرارة نوعية موجودة في السوائل ، والجوامد أيضا ، ولو لم يكن الماء بهذه الصّفة لكان الارتفاع أو الانخفاض في درجة الحرارة يمكن أن يقضي على الحياة على الأرض ، لأنّ البحر يعمل لتلطيف جوّ الأرض ، فهو يبتلع كميات كبيرة من الحرارة ولا ترتفع درجة حرارته إلاّ مقداراً صغيراً ، وعند البرودة فإنّه يعطي كميات كبيرة من الحرارة دون أن تنخفض درجة حرارته كثيراً وإذا زادت الحرارة نهاراً فإنه يختزنها وإذا قلّت ليلا فإنه يقدمها .

أمّا ماء البحر الأجاج فيختلف في درجة تجمده عن الماء العذب ، فماء البحر يتجمّد على درجة أقلّ من الصفر لوجود الملح فيه ، فيؤدي ذلك إلى بقاء البحر سائلاً حتى درجة -١٠ مئوية تقريباً مّا يسمح بسير السفن فيه ، بينما نجد مياه الأنهار والبحيرات العذبة قد تجمّدت فوق هذه الدرجة ، والماء يخالف جميع أنواع السوائل في كثافته ، فهو في حالة الصلابة أخفّ منه في حالة

---

(١) المنطلق ص٢٠ ، معجزة الماء عدد٢ ربيع ثاني سنة ١٣٩٨ الأستاذ لبيب بيضون.

السيولة ، ولذلك فمن المعلوم أنّه إذا وضع الثلج في الماء فإنّه يبقى ظاهراً على السطح ولا يغوص في قعر الإناء .

والماء العذب يتجمد في درجة (صفر مئوية) وتبلغ أعلى كثافة له عند درجة +٤ مئوية ، وفي أيّام البرد والثلوج فإنّ الماء الذي على درجة +٤ مئوية يهبط إلى الأسفل ليحل محله الأقل كثافة وهو ماء +٣مئوية وعندما يزداد الجليد على سطح الماء فإنّه يشكل طبقة عازلة تعزل الماء العميق عن برودة الجو ، وهكذا ينعدم تجمّد الطبقات السفلى من الماء ، لتعيش الحيوانات البحرية في أمان بإذن ا لله .

ومعلوم أن الإسكيمو يتخذون بيوتاً من الثلج لأنّ الهواء داخلها أقلّ برودة من الخارج .

ولقد ورد ذكر الماء ثلاثاً وستين مرة في القرآن الكريم وهو أكثر المواد انتشاراً في الكرة الأرضية (١) .

ويدخل في تركيب النبات والحيوان بنسب كبيرة ، ففي بعض النباتات تصل نسبة تركيبه إلى ٩٩٪ وفي الحيوان والإنسان قد تزيد عن ٧٠٪ والمخ يشكل ٨٠٪ من وزنه ماء (٢) .

والماء موصل لعناصر الغذاء في خلايا الجسم ، ويحمل إفرازات الضارّة خارج الجسم ، فهو الذي يعمل على حلّ غاز الفحم السام ونقله إلى الرئتين ثم إلى الخارج . كما يعمل على تلطيف درجة حرارة الجسم وإذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكّن الجسم من امتصاصها .

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي ص٩٥ دار الفكر العربي القاهرة .

(٢) المنطلق ص١٦-٢٦ الأستاذ لبيب بيضون .

ويعتبر الماء أساس تكوين الدم والسائل اللمفاوي والسائل النّخاعي ، وبينما يستطيع الإنسان أن يعيش أكثر من شهر بدون طعام ، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون ماء أكثر من بضعة أيام (١) وصدق الله العظيم: ﴿ وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ ﴾ (٢) .

ونستطيع أن ندرك مدى أهمية الماء للإنسان والحيوان والنبات إذا وضعنا جدولاً بسيطاً نبيّن فيه مقدار حاجة كلّ منها إلى الماء على وجه التقريب ، فالإنسان يستهلك ٩٠٠ لتر ماء تقريباً في السنة الواحدة (٣) .

ولإنتاج طن من القمح يلزمنا ١٥٠٠ طن ماء . كما يلزم عشرة آلاف طن من الماء لإنتاج طن واحد من الأرز (٤) . ولإنتاج بيضة فإنه يلزمنا ١٤٠ غالون من الماء ، كما نحتاج لإنتاج كيلوجرام من اللحم إلى أكثر من ٧ آلاف غالون من الماء (٥) .

ويعتبر الماء مذيباً جيّداً للأكسجين ، ولذا فإنّ الهواء المذاب في الماء يحتوي على نسبة من الأكسجين أكثر منه في الجو (٦) . كما أنّه يذيب غاز الفحم السّام فيعمل على تنقية الهواء منه .

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي ص٩٥ .

(٢) سورة الأنبياء ٣٠ .

(٣) ثروات من البحار ص٢٩٣ .

(٤) المرجع السابق ص٣٠ .

(٥) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٧٩ زهير الكرمي .

(٦) دلائل الحق في عظمة الخالق ص٦٣ عزت محمد خيري سنة ١٩٧٢ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

وللماء خاصيّة شعرية مرتفعة ناشئة عن الارتفاع غير العادي للشد السطحي للماء ، فيحمل معه عصارة النبات الغذائية إلى أعلى الشجرة كما تحمل مياه الأنهار معها كميّات هائلة من المواد المذابة والعالقة ، ومن ثمّ تصبح البحار غنيّة بالأملاح والمعادن . وتعتبر هذه الأملاح أساساً لتغذية الكائنات الحية التي تعيش في الماء .

كما أنّ الماء مصدر مهمّ من مصادر الطاقة إذ أنّ تحضير الماء الثقيل ، ضروري للحصول على الهيدروجين الثقيل ، الذي يعتبر أساس توليد الطاقة الحرارية النووية .

ومن هنا ندرك أهمية وجود الماء على الأرض وتقديره هذا التقدير الموزون قال تعالى : ﴿ إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر ﴾ (١) .

والمياه العذبة والمالحة متوازنة في وجودها على الأرض مع حاجة الناس إليها فلا يبغي أحدهما على الآخر . قال تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجراً محجوراً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة القمر ٤٩ .

(٢) سورة الفرقان ٥٣ .

والمراد من البرزخ أو الحجر المحجور هو ما حجر بينهما من الأرض ، وقيل المراد بالبرزخ حاجز من قدرته تعالى عزّ وجلّ غير مرئي ويقصد به التميّز التام وعدم الاختلاط .

وليس المقصود من هذه الآية أنّ ماء النهر عندما يلتقي بماء البحر لا يختلط بالآخر ولكن لا يطغى أحدهما على الآخر (١).

وهناك رأي يقول إن سبب عدم طغيان ماء البحار على الأنهار هو قوّة جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها . ولأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذي يجري فيه النهر فيبقى كلّ منهما في مكانه (٢).

وجهل الناس بهذه الحقيقة إلى فترة قريبة جعلتهم يؤخرون بعض مشاريعهم الحيويّة التي تعود على العالم أجمع بالخير والنفع .

فعندما احتلّ نابليون مصر وفكّر بشقّ قناة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض ، اعتُرض على ذلك لأنّ ماء البحر الأحمر أعلى من مياه البحر الأبيض وبالتالي فإنه سيفيض ويغرق الدلتا كلّها (٣).

فلم يدركوا الأسرار التي يحويها قوله تعالى : ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ إلاّ في وقت متأخر حيث تمّ حفر القناة ولم يحدث ما توقّعوا من فيضان ، لأن مياه البحار لا يبغي أحدهما على الآخر وإن اتصلت .

---

(١) الله والكون ص٤٦٤ جمال الدين الفندي / الهيئة المصريّة العامة للتأليف .

(٢) رسالة العلم والإيمان ص١٦٠ .

(٣) القرآن والعلم ص٤٠ أحمد محمود سليمان .

فمياه البحر الأحمر والمحيط الهندي يلتقيان ولكنّ مياه هذا لا تختلط بمياه ذلك والكائنات في هذا البحر تغاير الكائنات فيما جاوره ، وإذا حدث وكان هناك مدّ أو ريح عاصفة فإنّ قليلاً من مياه أحد البحرين يطفو على مياه الآخر (١) . وعندما تنتقل هذه المياه فإنها تنتقل بكائناتها معها ، وعندما يزول سبب انتقالها تعود المياه من جديد حاملة أحياءها معها .

ولقد وجد أنّ مياه كلّ بحر تغاير مياه البحار الأخرى في صفاتها الكيماوية ، مّما يمنع اختلاط المياه والكائنات بعضها ببعض .

فلكلّ بحر درجة حموضة خاصّة به وكائنات خاصّة كذلك ، وإن التقيا فإنهما لا يختلطان ولا يبغي أحدهما على الآخر (٢) .

ولقد ذُكر البحر في أكثر من موضع في القرآن الكريم في مقام المنّة والتفضّل على العباد وإبداع خلقه سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿ الله الذي سخّر لكم البحر فتجري الفلك فيه بأمره ﴾ (٣) .

﴿ وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ربّكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ﴾(٥).

﴿ وآية لهم أنّا حملنا ذريّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ (٦) .

---

(١) القرآن والعلم ص٤٠ أحمد محمود سليمان .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة الجاثية ١٢ .

(٤) سورة إبراهيم ٣٢ .

(٥) سورة الإسراء ٦٦ .

(٦) سورة ياسين ٤١ .

﴿ ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ﴾ (١) .
﴿ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ (٢)، ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ (٣) .

ولا يعني تقدّم الوسائل العلميّة والاستغناء عن السفن الشراعية ، أنّ أثر خواصّ البحر في الملاحة أصبحت غير ضرورية ، فلولا هذه الخواصّ الموجودة في البحار بقدرة الله عزّ وجلّ (والتي شرحتها قاعدة أرخميدس) لما أمكن حمل آلاف الأطنان على سطح الماء والسير هذه المسافات الشاسعة دون انقطاع ، فكلّ ما فعله الإنسان ووصل إليه من تقدّم علمي ، إنما هو اكتشاف لخواصّ المواد التي هيأها الله سلفا في هذا الكون ، فأخذوا بالأسباب وقعدنا عنها وانشغلنا بأنفسنا وشهواتنا .

---

(١) سورة لقمان ٣١ .

(٢) سورة النحل ١٥ .

(٣) سورة البقرة ١٦٤ .

ما في البحار من لحم طريّ :

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً ﴾ (١).

ويقول عزّ وجلّ : ﴿ ومن كلّ تأكلون لحماً طريّاً ﴾ (٢) ويقول تعالى : ﴿ أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ﴾ (٣).

والتعبير عن السمك باللحم الطري إشارة إلى قلّة عظامه بالنسبة لما يصطاد من الأنعام ، وقيل للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل ، واللحم الطريّ يخرج من البحر العذب والمالح (٤).

وفي وصف اللحم بالطراوة إيذان بكمال قدرته تعالى في خلقه ، فالعذب الطريّ في ماء مرّ مالح لا يشرب (٥).

وخيرات اللحم الطري وحدها لو استغلّت استغلالاً جيّداً لسدّت حاجة البشرية بأكملها ، إذ يكفي أن نعلم أنّ هناك عشرين ألف نوع من الأسماك(٦). وتضع الأنثى الواحدة من بعض الأسماك ما يقرب من ٣-٥ ملايين بيضة في المرّة الواحدة (٧).

---

(١) سورة النحل ١٤ .

(٢) سورة فاطر ١٢ .

(٣) سورة المائدة ٩٦ .

(٤) روح المعاني جـ١٣ ص١١١ .

(٥) روح المعاني جـ١٤ ص١١٢ .

(٦) ثروات من البحار ص١٠٨ .

(٧) ثروات من البحار ص١٣٥ .

ولقد بدأ الإنسان باستخدام أحواض فَقْس وحضانة في المراحل الأولى للتغلّب على تقلّبات الجو والعوامل الأخرى في البيئة (١).

وعلى الرغم من وسائل الإنسان المختلفة في استغلال هذه الثروات الغذائية إلا أنّ الإحصائيات العلميّة تؤكد أنّ الغذاء المستخرج من البحر عالميّاً في أوائل السبعينات من هذا القرن لم يزد عن ١٪ من مجموع الغذاء المنتج عالميّا (٢).

وبالإضافة إلى الثروة السمكية الهائلة، هناك أعشاب البحر الغنيّة بالبروتين، كما تحوي على ٥٠٪ من وزنها بروتين، بينما نجد هذه النسبة في اللحم ٢١٪ كما تحوي معظم العناصر المعروفة للإنسان (٣).

وهناك الطحالب التي بدأ الإنسان المعاصر يوجه إليها همّه لما لها من فوائد عظيمة، فلقد ذكر بعض المهتمّين بالإحصائيات أن نحواً من ثلاثمائة صناعة تدخل فيها الطحالب، منها خلطها بعلف الحيوانات والدواجن، لاحتواء الطحالب على كثير من الأملاح.

ويقدّر ما جمع من الطحالب على سواحل كليفورنيا في أمريكا وحدها، مازنته مائة مليون طن في العام الواحد.

ويعتمد سكّان سواحل الصين واليابان على الطحالب كإدام رئيسي في طعامهم لاحتوائها على الفيتامينات والأملاح المعدنية.

---

(١) ثروات من البحار ص١٤٠.

(٢) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص١٠٤ زهير الكرمي.

(٣) دلائل الحق في عظمة الخالق ص٧٤.

وفي بلاد النرويج وأمريكا يباع مسحوق الطحلب كأقراص مقوية في الصيدليّات ، وهذه الطحالب يكفيها في نموّها ضوء الشمس وبعض الأملاح المعدنية الذائبة ، وتجرى التجارب لإعداد وجبات الأطفال منها (١) .

وهناك مواد عضويّة أخرى في البحار وبكميّات هائلة ، وهي كائنات مجهريّة دقيقة تسمّى (بالبلانكتون) ولقد قدّرت الكمية التي تحويها البحار من هذه الكائنات ما يعادل ١٥-١٥٥ ألف مليون طن في السنة الواحدة ، وهذا وحده يطعم أضعاف سكان الكرة الأرضية ، وهي غنيّة بالمواد السكريّة والنشوية والبروتينية والأملاح والفيتامينات والعناصر النادرة كالحديد واليود والفسفور وغيرها (٢) .

ولقد أشارت الآية القرآنية إلى نِعَم أخرى غير اللحم الطريّ وهي الحليّ والمعادن المخبوءة في قعر البحر ، قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ (٣) .

فالآية تذكر اللحم الطريّ إضافة إلى أنواع من المعادن كالحليّ التي يلبسهاالناس ويتزيّنون بها ، ومن هذه الحليّ اللؤلؤ والمرجان قال الله تعالى : ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ﴾ (٤) .

ولقد جاء ذكر اللؤلؤ والمرجان باعتبار المشهور المعلوم في ذلك العصر ، وفي ذكر هذه ما يشير إلى وجود غيرها ولا يفيد الاقتصار عليها .

---

(١) ثروات من البحار ص٨٢ .

(٢) ثروات من البحار ص٦٩ .

(٣) سورة النحل ١٤ .

(٤) سورة الرحمن ٢٢،٢٣ .

ويعتبر اللؤلؤ من عجائب البحار إذ يملك شبكة دقيقة تسمح بمرور الماء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها ، فإذا دخلت ذرّة رمل أو أي شيء غريب عنوة إلى الصَّدَفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ثمّ تتجمّد مكوّنة لؤلؤة (١) .

والمرجان يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر ، ويثبّت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب وفمه محاط بعدد من الزوائد في أعلى جسمه يستعملها في غذائه . وإذا لمست الفريسة هذه الزوائد فإنها تصاب بالشلل في الحال فتنكمش الزوائد وتنحني نحو الفم حيث تدخل الفريسة إلى الداخل . والجزر المرجانية الحيّة ذات ألوان مختلفة ، والمرجان الأحمر الصلب هو المتبقي بعد فناء الأجزاء الحيّة من الحيوان (٢) .

ومن اللؤلؤ والمرجان اتخذوا حليّاً غالية الثمن عالية القيمة .

والمرجان نبات حيواني تتكوّن عنه شعب مرجانية تمتدّ في البحر عدة أميال أحياناً وتصبح خطراً على الملاحة .

ولو تنبّه الإنسان المسلم إلى مدلول هذه الآيات في تسخير البحر وما فيه من خيرات ، لبذل وسعه في استخراجها .

ولقد استطاع العلم أن يقدّم معلومات قيّمة عن كنوز البحر وخيراته . فلقد اكتُشف أنّ البحر يحوي كميّات كبيرة من الفوسفور والنيترات التي تستعمل سماداً للأرض ، وكميّات من ملح

---

(١) الله والعلم الحديث ص١٠٥ عبد الرازق نوفل / دار الجيل القاهرة .

(٢) في ظلال القرآن جـ٧ ص٦٨١ .

الطعام ، وكميّات كبيرة من الكوبلت والنيكل موجودة أكبر بكثير مما على الأرض ، وأخرى من المغنيسيوم والبروم والبوتاسيوم (١) .

ويعتبر عنصر المغنيسيوم من أهم العناصر لأنه يدخل في كثير من الصناعات الحديثة وخاصّة سبائك الطائرات لخفّته ومتانته ، كما يستخدم في صنع القنابل المضيئة وإشارات الاستغاثة التي تطلقها السفن والطائرات ليلاً ، وفي صناعات دقيقة أخرى مثل حبر الطباعة والأدوية والتصوير الفوتوغرافي ، ويقدّر ما تنتجه الولايات المتحدة من البحر من هذا المعدن ما يقرب من نصف مليون طن سنويّاً (٢) .

كما قدّرت الكميّات الموجودة من المنجنيز والنحاس والكوبلت والنيكل بما يكفي لاستهلاك العالم كلّه من هذه العناصر لمليون سنة قادمة ، إذا ما سار الاستهلاك بالمعدّل الحالي ، وهذه الكميات موجودة في الجزء الشرقي من المحيط الهادي فقط .

ويلاحظ أنّ ٨٠٪ من البروم المستهلك في الصناعة سنويّاً إنما يستخرج من البحر وهذا المعدن يدخل في صناعة الأدوية المهدّئة للأعصاب وإطفاء الحرائق وصناعة الكيماويات .

ومعدن الحديد الذي عرفت البشرية أهميّته منذ زمن بعيد ، والذي جاء ذكره في القرآن الكريم مقترناً بالنصر في قوله تعالى : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قويّ عزيز﴾(٣) .

---

(١) ثروات من البحار ص٢٣٤ .

(٢) ثروات من البحار ص٢٤٠ .

(٣) سورة الحديد ٢٥ .

وتنكير كلمة (منافع) إشارة واضحة إلى تعميمها وشمولها . وفي الآية إشارات قويّة ومعان زاخرة ، وفي كلمة (أنزلنا ، وبأس ، ومنافع ، ونصر) تنبيه للعقول والقلوب لما لهذا المعدن من خواصّ وماله من أهميّة .

قال تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر في السرد ﴾ (١) . فهذا التقدير في السرد في صناعة الدروع الحديدية تتطلّب دقة ومهارة ما كانتا لتتم لو لم يكن الحديد مطاوعاً .

ويشكّل الحديد والفولاذ تسعة أعشار المعادن المستعملة هذا اليوم ، كما أنّ كمية الحديد الموجودة في القشرة الأرضية تبلغ عشرة ملايين ضعف كمية الذهب الموجودة فيها .

ولقد اكتشف هذا المعدن على درجة كبيرة جدّاً من النّقاوة بسواحل أمريكا الشمالية والجنوبية ، وقدّرت ما تحويه مساحة الفدّان الواحد من هذه المعادن بمعدل ١٢٥ طن ، أمّا البوتاس الذي يدخل في صناعة الزجاج والسماد ، فقد كانت

بريطانيا تأخذ نصف احتياجاتها من هذا المعدن من البحر الميت (٢) . وما زال البحر ميّتاً عندنا بل قتلناه أيضاً بجعل ساحاته أماكن عري بدلاً من استغلال ثرواته في مصلحة الأمة .

---

(١) سورة سبأ ١١ .

(٢) جريدة الرأي الأردنية عدد ٣٢٤٣ بتاريخ ١٩٧٩/٢/٢٣ م.

باطــن الأرض :

قال ا لله تعالى :﴿ له ما في السماوات وما في الأرض وإنّ ا لله لهو الغني الحميد. ألم تر أنّ ا لله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجـري في البحـر بـأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إنّ ا لله بالنّاس لرؤوف رحيم ﴾(١).

ويقول عـزّ وجلّ : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منهـا ومـا ينـزل مـن السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينـزل مـن السـماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم وا لله بما تعملون بصير ﴾ (٣).

وقـال عــزّ وجـلّ : ﴿ ألاّ يسـجدوا لله الـذي يخـرج الخـبء في السـماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ (٤).

فهذه الآيات تفيد بأنّ هناك في باطن الأرض أشياء مخبوءة يخرجهـا ا لله بإذنـه ، وأنّ هناك خيرات عميمة النفع على المسلم أن يوجّه نظره إليهـا ليكـون سبّاقاً إلى اكتشافها والاستفادة منها .

والخبء : هو المخبوء في الأرض كائناً ما كان .

وفي قوله تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منهـا) قـال الكلبي : مـا يدخل فيها من الأموات وما يخرج منها من جواهر المعادن ، والأولى التعميم فيشملان كل ما يلج في الأرض ولو بالوضع فيها وكل ما يخرج منها (٥).

---

(١) سورة الحج ٦٤، ٦٥ .

(٢) سورة سبأ ٢ .

(٣) سورة الحديد ٥ .

(٤) سورة النمل ٢٥ .

(٥) روح المعاني للألوسي جـ٢٢ ص١٠٤ .

والمخبوء من هذه المعادن يظهر العلم كل يوم منه شيئا جديدا ، وأكثر المعادن أثراً في عصرنا الحاضر هو عنصر اليورانيوم المشعّ الذي يتحوّل إلى رصاص بمعدل ثابت لا يتغير ، ويلاحظ أنّ الرصاص الناشئ عن تحوّل اليورانيوم يختلف عن الرصاص الأصلي ، فهو أقلّ منه وزناً كما يختلف عنه في خواصّه (١) .

وهذه العناصر المشعّة الموجودة في صخور القشرة الأرضية تنجم عنها حرارة باطنة تقدّر بأربعة أضعاف مستوى احتياجات العالم من الطاقة بكلّ أشكالها حسب احصائيات سنة ١٩٧٠م (٢) . ويمكن أن نشير إلى أنّ انشطار ذرات رطل من الفحم تعطي من الطاقة ما يعادل حرق مليوني طن من الفحم ، غير أنّ هناك عقبات فيما يمكن شطره من أنوية المواد بالأساليب المعروفة لدى الإنسان في الوقت الحاضر .

ومن المعادن المخبوءة التي سخّرها الله لنا وظهر الكثير منها في بلادنا العربية معدن البترول ، حتى أنّ بعض العلماء يسمّي هذا العصر بعصر البترول لأثره الكبير في حياة الناس .

فبالإضافة إلى دخوله في آلاف صناعة الكيماويات البترولية ، فإن هناك عشرات الصناعات التي تعتمد على البترول اعتماداً كليّاً أو جزئيّاً كالمطاط والمنسوجات الصناعية والأصباغ والمنظّفات والمفرقعات والمواد اللاصقة والبروتينات الصناعية وأوراق النقد والشحوم والزيوت والخلطات

---

(١) الإسلام يتحدّى ص٧٠ وحيد الدين خان / المختار الإسلامي القاهرة .

(٢) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٢٤٩ .

الاسفلتية لتغطية الطرق وغيرها . وهذا قليل من كثير من الفوائد المترتبة على استثمار هذا المعدن المهم الذي يقبع تحت الأراضي الإسلامية أكبر احتياطي منه في العالم بأسره .

وعندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ (١) . تتوجه عقولنا إلى أهمية هذا الغثاء الأحوى الذي يذكّرنا الله عزّ وجلّ به على وجه الاتعاظ والاعتبار .

فالغثاء :هو الأخلاط وهو ما يقذف به السيل من النبات والحشيش،والأحوى: هو اللون الذي يضرب إلى السواد . والنبات إذا يبس اسودّ أو اسمرّ .

ويرى بعض أهل العلم أنّ المرعى إذا اخضرّ فإنّه يميل إلى السّواد،والعرب تسمّي ما اشتدّت خضرته من النبات بالسواد كما قيل عن العراق أرض السواد.وهذا القول وإن كان غير مدفوع إلا أنّ الرأي الأول أولى بالاعتبار (٢).

وتحويل النبات من الخضرة إلى السواد واليبس ليس مقصوداً منه تغيّر الألوان فقط ، إنّما يمكن أن يكون وراء ذلك سرّ عظيم يستحقّ أن يذكر في مقام المنّة والفضل وهو ما يكشف عنه الإنسان مؤخّراً من تحوّل النبات والمواد العضويّة عبر آلاف السنين تحت طبقات الأرض (٣) .

حيث يؤكد العلماء أنّ تكوّن البترول إنّما هو نتيجة لتضخّم المواد العضوية من النبات والحيوان ، وتأثرها بضغط هائل تحت طبقات الأرض .

---

(١) سورة الأعلى ٤، ٥ .

(٢) محاسن التأويل ص٦١٣٠ جـ١٧ جمال الدين القاسمي دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٣) تنبيه العقول ص١٦٩ محمد بخيت المطيعي .

باطن الأرض والطاقة :

قال الله تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾(١).

تعلّمنا الآية الكريمة أنّ هذا الماء بأكمله قد تخزّن على شكل ينابيع وأنّ ما استفيد منه وظهر إنّما هو قدر بسيط بالنسبة لما استقرّ في الأرض ، فكأنّ الماء كلّه أصبح ينابيع في الأرض ، ويأتي العلم ليؤكد هذه الحقيقة ، ويقول إنّ حوالي ٩٧٪ من مخزون العالم الإجمالي من الماء العذب موجود في باطن الأرض، ولا يدخل في هذا الحساب المناطق القطبيّة ، ويعتقد أنّ نصف المياه الجوفيّة تقريباً يقع على عمق نصف ميل من السطح على وجه التقريب ، ويمكن الحصول عليها بسهولة (٢) .

وهذه الآية توجّهنا أيضاً إلى أنّ ينابيع الأرض إنّما أتت من ماء السماء ، وهي تدلّ على أنّ ذلك الماء يسلكه الله تعالى ينابيع في الأرض ، ولا تدلّ على أنّ ما في الينابيع ليس إلاّ ذلك الماء ، فيجوز أن يكون بعض ما فيها هو الماء المنزّل من السماء والبعض الآخر حادث بأسباب يعلمها الله عزّ وجلّ (٣) .

وذكر الزمخشري في الكشّاف أنّ كلّ ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخر ثم يقسمه الله عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد(٤).

---

(١) سورة الزمر ٢١ .

(٢) العلم في دنيانا ص٨٥ دار النهضة العربية القاهرة .

(٣) روح المعاني جـ٢٣ ص٢٥٥ .

(٤) الكشاف جـ٣ ص٣٩٤ .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : ليس في الأرض ماء إلاّ ما أنزل الله تعالى من السماء ، ولكنّ عروقاً في الأرض تغيّره فمن سرّه أن يعود الملح عذبا فليصعد (١) .

وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي أنّ كلّ ماء في الأرض أصله من السماء(٢) . وهذا ما أثبته العلم الحديث في نظريّاته إذ أكّد أنّ ماء الأرض إنّما جاء من السماء .

وفي قوله عزّ وجلّ : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون ﴾ (٣) .

بيان في أنّ الماء النازل من السماء إنّما ينزل بقدر ، ويأتي علماء العصر الحديث ليقولوا إنّ الماء النازل من السماء كلّ عام إنّما هو بقدر ، أي أنّ مجموع ما ينزل من المياه كل عام بطريق المطر إنّما هو ثابت تقريباً (٤) .

ولكن يختلف توزيعه من منطقة إلى أخرى .

وقيل إنّ الماء ينزل بمقدار ما يحتاجه الناس والزروع ، فهو ينزل بمقدار ما تقتضيه المشيئة المبنيّة على الحكم والمصالح (٥) .

وقال ابن عبّاس هو بقدر الحكمة لا طوفان مغرق ، ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم (٦) .

---

(١) روح المعاني جـ٢٣ ص٢٥٦ الألوسي .

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير جـ٤ ص٥٠ .

(٣) سورة المؤمنون ١٨ .

(٤) العلم في دنيانا ص٣٥ ترجمة سيّد رمضان ، زكريا فهمي دار النهضة العربية القاهرة .

(٥) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٧ الألوسي دار الفكر بيروت .

(٦) الجامع لأحكام القرآن جـ٨ ص٥٨٢ القرطبي دار الشعب القاهرة .

وهذا الماء يسكن معظمه في الأرض ، وكلّما سكن في عمق الأرض ازدادت حرارته ، ويقدّر العلماء أنّ هناك غلافاً مائياً ساخناً ببطن الأرض يقدّر بما يوازي نصف حجم المحيطات والبحار تقريباً (١) .

ومعظم هذه المياه الساخنة توجد على بعد يتراوح بين ٧ – ١٠ كم تحت سطح الأرض ، وتبلغ درجة حرارة البخار فيها من ٣٠٠ – ٥٠٠ درجة مئوية . فكلّ كيلومتر عمق يزيد في درجة الحرارة ٣٠ درجة مئوية تقريباً .

أمّا في المناطق البركانية النشطة فتوجد الطبقات الساخنة في الغالب بالقرب من سطح الأرض ، ويمكن استخدام هذه الأبخرة القوية ذات الحرارة المرتفعة في تشغيل المولّدات الكهربائية .

ولقد تمّ اكتشاف بحر تحت الأرض في سيبريا درجة حرارة مياهه ٢٥٠ درجة مئوية ، وتجرى الدراسات الآن لإنشاء مولّد ضخم للطاقة في هذا الموقع ، ولقد تمّ إنشاء مولّدات كهربائية تعتمد على استخدام الطاقة تحت الأرض به ، وتدير هذه المحطّة مصنعاً للأسماك ومنطقة سكنيّة في ذلك الموقع في الاتحاد السوفياتي (٢) . وفي إحدى الينابيع الحارّة في ولاية نيفادا الأمريكية يمكن توليد طاقة من هذا المصدر بما يعادل حرق ٢٣٥ مليون طن من الفحم .وينتظر أن يوفّر الطاقة لمدة ٧٠٠ سنة بمعدّل التصريف الحالي للبخار المنبعث منه ، وهناك في العالم حوالي ٤٦ موقعاً تم اكتشافها بحيث تصلح فيها المياه الجوفية للاستخدام كمصدر من مصادر الطاقة (٣) .

---

(١) دلائل الحق في عظمة الخالق ص١٥١ (عزت خيري) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الإنسان والطاقة ص٧٠ علي كامل الحمامصي دار المعارف بمصر .

كما أمكن إقامة مولّدات تعتمد على الاختلاف في درجة الحرارة بين السطح والأعماق في المياه الاستوائية . ولقد تمكّن العلماء الفرنسيون من إقامة مولدات كهربائية في ميناء (أبيجان) على ساحل العاج تدار بمثل هذه الطاقة (١) .

كما تمكّن العلماء من استغلال ظاهرة المدّ والجزر في توليد الكهرباء وخزنها لحين الحاجة .

ولقد تمكّن المهندسون في فرنسا من استغلال هذه الطاقة وتوليد طاقة كهربائية منها تكفي لمنطقة كبيرة من تلك المقاطعة .

وبلغ مقدار الكهرباء المستفادة من إحدى هذه المحطات ٦٢٤ مليون كيلوواط ساعة سنوياً (٢) . ولو أمكن التوصّل إلى الاستفادة من طاقة المد والجزر لسدّت نصف احتياجات العالم (٣) .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الفوائد الصحيّة للمياه الجوفية عند ذكر شفاء سيّدنا أيوب عليه السلام مما ألمّ به . قال تعالى : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ (٤) .

فلقد قيل أنه ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها (٥) . وتمّ ذلك بفضل الله عزّ وجلّ تكريماً لأيّوب عليه السلام .

---

(١) ثروات من البحار ص٢٦٧ .

(٢) ثروات من البحار ص٢٧٣ .

(٣) الإنسان والطاقة ص٦٨ .

(٤) سورة ص ٤٢ .

(٥) الكشاف جـ٣ ص٣٧٦ .

والركض هو الدفع بالرجل . وقال المبرّد الركض : التحريك ، فالراكب يحرك الدابّة برجليه . وقال الكسائي في الكلام إضمار أي قلنا له اركض لما عافاه الله (١) .

وذكر القرطبي أنّه ركض برجله قبل أن يشفى فنبعث عين ماء فاغتسل به فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه ، وقال قتادة (هما عينان بأرض الشام يقال لها الجابية) والجابية قرية من أعمال دمشق .

وقال مقاتل نبعت عين حارّة واغتسل فيها وخرج صحيحا . ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا (٢) .

ولا يزال الناس إلى عصرنا الحاضر يرتادون المياه المعدنية يستشفون بواسطتها من كثير من الأمراض لاحتواء هذه المياه على مواد كبريتية ومعدنية أخرى ذائبة فيها تقرب من ستين عنصراً بينها اليود والباريوم والليثيوم والخارصين وغيرها (٣) .

ولارتفاع درجة حرارتها فإنّها تنشط الجسم والأعصاب وتستعمل هذه الطريقة بشكل كبير كإحدى وسائل العلاج الطبيعي .

كما يمكن استخدام هذه المياه الجوفية الساخنة في عمليّات التدفئة ، وكان من حكمته تعالى أن لايضيع هذا الماء المخزون في باطن الأرض ، فوجدت طبقة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٨ ص٥٦٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، والبحر المحيط جـ٧ ص٤٠١ .

(٣) دلائل الحق في عظمة الخالق ص١٥٤ .

صخرية لا تسمح بنفاذ الماء من خلالها ، وتمنع من استمرار غوره وضياعه في باطنها ليتبقّى الماء مخزوناً هناك أو يخرج من مسامّ صخور مجاورة له مرة أخرى إلى السطح متفجّراً على شكل عيون .

وهناك طبقة مساميّة تسمح بنفاذ الماء خلالها ، وطبقة أسفلها لا تسمح بنفاذ الماء لكي يبقى الماء مخزوناً لفائدة الإنسان . وصدق الله العظيم : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ (١) .

فلو لم تكن هناك تلك الطبقة الصخرية المانعة لنفوذ الماء إلى باطن الأرض بإذن الله لغار الماء ولما أمكن الانتفاع به .فشاءت حكمته ألاّ ينساب هذا الماء كله إلى البحر وأن لا يغور في أعماق الأرض .

ومن عجيب تقدير الله ولطفه أن تكون المياه المعدنية الحارّة بجانب المياه العذبة الزلال . ولقد رأيت ذلك بنفسي في حمّامات (ماعين) بالقرب من البحر الميت حيث لا تفصل إلاّ أمتار معدودة بين المياه المعدنية الحارّة وبين المياه العذبة النابعة من باطن الأرض .

وهذا الماء المخزون في باطن الأرض يحتك بالتربة فيخلق مجالاً له خواصه الكهرومغناطيسية ، وإذا تأثر أحد بمثل هذا المجال فإنّه يستطيع الكشف عن مكان وجود هذه المياه .

ولقد ثبت أنّ هذا المجال يؤثر على بعض البشر وبعض الحيوانات بطريقة لا شعورية .

---

(١) سورة الملك ٣٠ .

وهذا التأثير يمكن تجسيده عن طريق الإمساك ببعض الأجسام كالساق الخشبية أو القضيب المعدني أو الجهاز الخاص ، وإذا تمّ هذا التأثّر بذلك المجال الكهرومغناطيسي فمعنى ذلك أنّ هناك ماء مخزوناً تحت الأرض في هذه المنطقة (١) .

ولقد تمّ التأكّد من صحة هذه الدعوة بأكثر من تجربة مما دعى البحرية الأمريكية إلى تدريب عدد من المهندسين للكشف عن الألغام بطريقة العصى هذه (٢) .

كما أنّ شركات أنابيب المياه الكبرى في الولايات المتحدة تستخدم واحداً من هؤلاء الأشخاص ذوي القدرة الخاصّة في الكشف عن الماء (٣) .

ولقد شوهد هذا في الفيلة إذ أنها أثناء بحثها عن الماء تحت الأرض ، تمدّ خراطيمها كأنها قرون استشعار ، وعندما تحدّد الوضع المناسب تدقّ الأرض بأقدامها حتى تصل إلى الماء (٤) .

وهناك أبحاث هامّة في موسكو وباريس لاكتشاف سرّ حدوث هذه الظاهرة والاستفادة منها على نطاق أوسع .

ولقد أشارت الآيات القرآنية إلى خروج المياه من باطن الأرض من بين طبقات الصخور بقدرة الله .فقال سبحانه : ﴿ وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء﴾(٥) .وفي هذا وصف علمي منظّم لهذه النّعم

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) عن مجلة العربي عدد ٢٢٦ سبتمبر ١٩٧٧ بقلم راجي عنايت القدرة العجيبة للكشف عن الماء تحت الأرض .

(٥) سورة البقرة ٧٤ .

الربانية وأسرار تكوينها وكيفية الانتفاع منها ، وما على الإنسان إلاّ أن يقرأ كتاب الله وينظر فيه بإمعان ، ويتدبّر قول رسول الله ﷺ في وصف كتاب الله عزّ وجلّ : (كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم) (١) .

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن جـ٥ ص١٧٢ رقم ٢٩٠٦ وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال ، وانظر مسند الدرامي رقم ٣١٨١ ، ٣١٩٧ كتاب فضائل القرآن .

(البـاب الثـاني)

الإنسان القائم على العمارة

الفصل الأول: تعريف الإنسـان بنفسـه .

الفصل الثاني : اختيار الإنسان للخلافة في الأرض .

(الفصل الأول)

تعريف الإنسان بنفسه

فطرة الإنسان :

إنّ هذه الأرض المهيّأة المسخّرة، بحاجة إلى إنسان يعمرها ويستغلّها، ولن يستطيع غير الإنسان أن يقوم بهذا الدور . فالأرض ملآى بأنواع الحيوان والنبات وأصناف المعادن مع اختلاف صفاتها ، وكلّ هذه الثروات إنّما خلقها الله عزّ وجلّ لحكم سامية ، وهي مساعدة الإنسان في استثمار هذه الأرض والاستخلاف عليها .

ولقد وهب الله عزّ وجلّ الإنسان من الطاقات والإمكانات ما جعله مختصّاً لأداء هذا الدور وحده . وبيّن القرآن الكريم في أكثر من آية شريفة حقيقة وجود هذا الإنسان على الأرض ، كما عرّفه بنفسه وترك أمامه طريقاً واضحاً لا لبس فيه ، ومنهجاً متكاملاً يعرّفه بكل ما حوله، ويوضّح له طبيعة خَلْقه البدنيّة والنفسية .

فالإنسان في القرآن الكريم ليس حيواناً ترقّى بفعل الظروف والصدفة ، تفصله حلقة أو بضع حلقات عن الحيوانات الدنيا ، وإنّما هو مخلوق مكرّم ، خلقه الله عزّ وجل من البداية كنوع مستقلّ خاصّ متميّز ، وسنرى أنّ الآيات القرآنية كما وضّحت للإنسان طبيعة هذه الأرض المسخّرة العامرة بالأقوات وطرق استغلالها ، فإنّها عرفت الإنسان بأصله وتكوينه وسرّ وجوده من بدايته حتى منتهاه ، وأنّه مخلوق فطر على الخير والهداية ولكن سبل الضلال من حوله تحرفه عن الطريق السويّ الذي يجب عليه أن يختاره ويسلكه .

والقرآن الكريم في نظرته للإنسان يختلف عن بقية العقائد والنظريات التي تسود زماننا الحاضر والماضي أيضاً ، وهي نظرة لها آثارها العميقة على الإنسان ووظيفته في هذه الأرض ، لأنّ كلّ اتجاه سياسي أو اقتصادي أو تربويّ إنّما يكمن وراءه تصوّر معيّن للإنسان ، وإنّ معيار صلاحية هذه النظم بمقدار صلاحيتها للإنسان . ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها إلاّ إذا عرفنا طبيعة الإنسان نفسه .

وهناك الآن ثلاث نظريات توضّح طبيعة الإنسان السلوكيّة ، فمنهم من يرى أنّه يولد محايداً كالصفحة البيضاء ، والبيئة تشكّله ، ومنهم من يرى أنّه مخلوق شرير يولد الشر في طبعه وتهذّبه البيئة .

والنظرية الثالثة ترى أنّ الإنسان يولد على الخير ثمّ قد يطرأ عليه التغيير بعد ذلك بفعل الظروف (١) .

فالنظرية الأولى التي ترى أنّ المولود كالصفحة البيضاء تكتب عليها ما تشاء ، وكقطعة الطين تشكّلها كيف تشاء ، ترى أنّ البيئة الثقافية أو الحسيّة هي التي تصنع الإنسان وتبني شخصيّته ، فليس هناك طبيعة إنسانية تصلح معياراً نقيس بها صلاح النظم أو فسادها ، وبالتالي فإنّ أيّ منهج أو نظام هو مماثل لأيّ منهج أو نظام آخر .

وإذا لم تكن طبيعة الإنسان هي المعيار الذي نقيس به صلاح هذه النظم أو فسادها فبماذا نقيسها ؟

---

(١) التصوّر الإسلامي للإنسان د.جعفر إدريس(مجلة المسلم المعاصر) عدد١٢ سنة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م .

ولكنّ المشاهد أنّنا لا نكاد نجد واحداً من أصحاب هذه النظرية إلا وينتقد بعض النظم السياسية أو الاقتصادية على أساس أنّها تمسخ الإنسان وتشوّهه ، أو أنّها لا تناسب طبيعته .

فكارل ماركس الذي يرى أن ليس للإنسان طبيعة ثابتة ، وأنّ الإنسان هو عبارة عن مجموعة علاقات اجتماعية ، والعلاقات الاجتماعية متغيّرة ، يتّهم الرأسمالية في مكان آخر بأنها شوهت حقيقة الإنسان وجعلته شبيهاً بالحيوان ، ولعلّه لم يفطن إلى أنّ هذا القول الأخير يناقض القول الأول لأنّ القول الأوّل ينكر أن تكون للإنسان طبيعة ثابتة . والقول الثاني يفترض وجود هذه الطبيعة ويعتبرها مؤثرة (١) .

أمّا النظرية الثانية وهي نظرية الشرّ فترى أنّ كل مولود يولد والشر لاصق بنفسه لصوق الدرن بجسم الإنسان ، وأنّه إن ترك من غير تهذيب بقي الدرن فيه وزاد . ولكن إن تعهّدناه بالتربية فإنّه يسمو عن شروره المغروسة فيه .

ولقد تبنّت المسيحية هذه النظرية فاعتقدت أنّ كل إنسان يولد وارثاً لخطيئة آدم ، وانبثقت عن هذه النظرية أفكار مختلفة تزيّت بأزياء علمية تحطّ من كرامة الإنسان وتسيء إلى مركزه في الوجود .

فهذا (فرويد) يرى أنّ الجنس هو الذي يحرّك الإنسان في كلّ أفعاله وهذا (ماركس) يرى أنّ فم الإنسان ومعدته في بحثهما عن الطعام يسيّران التاريخ.

---

(١) مجلة المسلم المعاصر ، التصوّر الإسلامي للإنسان ، د. جعفر إدريس .

ولو كانت هذه النظرية صحيحة لوجدنا أنّ أيام الطفولة البريئة هي أتعس أيام الإنسان وأشقاها وأكثرها شروراً ولكن واقع الحال يكذّب ذلك .

أمّا الإسلام فينظر إلى الإنسان على أنّه مخلوق مكرّم ذو فطرة خيّرة ، والشر طارئ عليه ، وهذا ما تقتضيه رحمة الله بالإنسان وعدله الذي يعطي الخير ابتداء .

قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (١) .

فالله خلق الإنسان سويّاً معتدلاً في أحسن تقويم في بدنه، وسويّاً معتدلاً في نفسه الإنسانية التي سهّل الله لها كلّ ما يناسب استواءها الفطري ، فكان من حكمته عزّ وجلّ في خلقه أن يكون خلقاً سويّاً في بدنه ونفسه .

وعندما يعلن الله عزّ وجلّ أنّه خلق الإنسان للعبادة في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ (٢) فإنّ ذلك لا يناسبه أن يخلق في الإنسان نفساً شريرة أو محايدة لا تستطيع أن تفرّق بين طرق الهداية والضلال . وقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء) (٣) ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (٤) .

---

(١) سورة التين ٤ .

(٢) سورة الذاريات ٥٦ .

(٣) التاج الجامع للأصول جـ١ ص٣٦ ، شرح صحيح مسلم جـ١٦ ص٢٠٩ (المتن) .

(٤) سورة الروم ٣٠ .

فالفطرة هنا هي السلامة من الشرور كحال البهيمة المولودة خالية من العيوب الجسمانية ، فكذلك حال الطفل خال من العيوب النفسية ، وكما أنّ تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها فكذلك تطرأ العيوب على الإنسان بعد ذلك .

وفي قوله ﷺ : (يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) نرى في ذلك أثر القسر على هذه التربية فهو لم يتهوّد أو يتنصّر بسهولة لأنّ هذا ضدّ فطرته ، بل هو مكر الليل والنهار منذ نعومة الأظفار ، لكي يتمّ حرف هذه الطبيعة عن خطّها المستقيم إلى المسار المراد .

ولم يقل في الحديث الشريف ويصيّرانه مسلماً لأنّ الإسلام هو الأمر الطبيعي وما عداه انحراف .

وفي قوله تعالى : ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (١) .

يرى ابن كثير أنّه خلقها سويّة مستقيمة على الفطرة القويمة (٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ﴾ (٣) . دلّ على أنّ ذلك هو الفطرة التي فطروا عليها (٤) .

وفي قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الشمس ٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص٥١٥ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص٥١٥ .

(٥) سورة إبراهيم ٢٤ .

ساوى الله بين خلقه كلّهم في الفطرة على الجبلّة المستقيمة ، لا يولد أحد إلاّ على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك .

ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف لا تبديل لخلق الله أي لا تبديل لدين الله .

وجاء في صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺقال: يقول الله إنّي خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ماأحللت لهم[1] فالشرّ ليس أصلاً في طبيعة الإنسان ، وإنّما هو انحراف عن الخير ، والنبي ﷺ يشبّه ما يطرأ على القلوب كما ينافي فطرتها بالصدأ الذي يصيب الحديد ، والدّرن الذي يعلق بالبدن ، ولقد أراد الكفّار أن يدّعوا أنّ كفرهم هذا بالفطرة فقالوا : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [3] .

فبيّن الله عزّ وجلّ كذب ادعائهم وأنّ قولهم قلوبهم غلف إن هو إلاّ تبرير للضلال ، وأنهم انحرفوا وضلّوا وطبع على قلوبهم .

وقد نبّه ﷺ إلى أنّ أصول القيم الأخلاقية موجودة في الإنسان بالفطرة بقوله : (إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثمّ علّموا من القرآن والسنة) [4] .

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٧ ص١٩٧ (المتن).

(٢) سورة البقرة ٨٨ .

(٣) سورة النساء ١٥٥ .

(٤) أخرجه البخاري في الفتن رقم ١٢ والاعتصام بالسنة رقم ٢ فتح الباري جـ١٣ ص٢٤٩ رقم٧٢٧٦ وأخرجه مسلم في الإيمان والترمذي في الفتن رقم ١٧ وأحمد في مسنده ٢٨٢/٥ .

والله عزّ وجل قد منح الإنسان إلى جانب هذا الخير المحض قوى ونوازع مختلفة، منها قدرة الإنسان على العمل والتفكير والقدرة على الاختيار والسعي لحفظ النفس والنوع بالأكل والشرب واللباس والنكاح .

والفطرة لا تعني أنّ الإنسان مطبوع على الخير وحده ، وإلاّ فإنها تكون متناقضة مع المشيئة الإنسانية ، ولكنّ الله تعالى خلق الإنسان بحيث لا يصلح له إلاّ الخير . وأنّه جعل هذه الحقيقة في نفس الإنسان وليس بحاجة لأن يتعلم ذلك من الخارج ، وإن كان العلم الخارجي يزيده قوّة وثباتاً .

فالإنسان إن شاء سار في طريق الخير الذي تدلّه عليه فطرته ، وإن شاء تمرّد على فطرته كما يتمرّد على الأدلة العقليّة والآيات الكونية المبثوثة في أنحاء السماوات والأرض .

ولذا نجد الآيات القرآنية تصفه بأنّه ظلوم جحود كفّار كنود عندما ينحرف عن فطرته الإيمانية وينساق وراء متعه وشهواته قال تعالى : ﴿ إنّ الإنسان لربّه لكنود وإنّه على ذلك لشهيد وإنّه لحبّ الخير لشديد ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار ﴾ (٢) .

ولا نجد تناقضاً بين هذه الآيات وفطرة الإنسان السليمة ، فهو عندما تضحك له الحياة وتفتح الدنيا أبوابها يصحو نازع الشرّ في نفسه فيشدّه إلى الحضيض ، وعندما تنزل به الشدّة تصحو غريزته وفطرته فتنتبه ويعود إلى الهدى من جديد، وهذا في الغالب المعتاد وليس عامّاً في الناس جميعا .

---

(١) سورة العاديات ٦ - ٨ .

(٢) سورة إبراهيم ٣٤ .

فالإنسان ليس له روح تطلّعات الملائكة ، ولا جسد مادي بحت مستودع للشهوات بل هو هذا وذاك . فمن استمرّ على فطرته فقد نجا ، ومن انحرف وابتعد فقد ضلّ وهلك ، وإذا كان بعض النّاس يسلك سلوكاً بعيداً عن هذه الفطرة فليس لأنه لم يتوصّل لها ، بل لأنّه جهل قدر نفسه . فهو بطبيعته مزدوج الاستعداد مزدوج الاتجاه ، فهو في تكوينه قبضة من طين ونفحة من روح الله مزوّد باستعدادات للخير والشر قادر على التمييز بينهما ، وهذه القدرة كامنة في كيان الإنسان يعبّر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة فيقول سبحانه : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (١) .

وبالهداية تارة أخرى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (٢) .

والرسالات السماويّة والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجّهها ولكنّها لا تخلقها خلقاً ، وهناك قوّة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوّة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها فقد أفلح (٣) .

ومن رحمة الله بالإنسان أنّه لم يتركه لاستعداده الفطري ولا لقوّته الواعية المدركة ، وإنّما أعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له دلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الشمس ٩ .

(٢) سورة البلد ١١ .

(٣) في ظلال القرآن جـ٨ ص٥٩١ .

(٤) سورة فصّلت ٥٣ .

وهذه النظريّة ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حيث تجعله أهلاً لتحمّل التّبعة وتعطيه حريّة الاختيار ، وهي تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره وتجعل أمره بين يديه وهو يعلم أنّ قدر الله فيه يتحقّق من خلال تصرّفاته . كما أنّها تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية كي لا يقوده هواه النفسي إلى المهلكة (١) .

ونظرة الإسلام للإنسان متوازنة حريصة على تحقيق أهداف الحياة العليا مع الاستجابة لنوازع الأرض والطبيعة الجسدية ، ولكن ما يؤكّد عليه القرآن الكريم هو أن تكون هذه الوسائل التي يستجيب بها الفرد لنوازعه نظيفة شريفة لا إفراط فيها ولا تفريط ، فالإسلام عندما حرّم الرهبانية إنّما حرّمها لأنها تعطّل أهداف الحياة وتسبب عذاباً للفرد والمجتمع .

وشعور المسلم بأنّ هناك قوّة عظيمة تسيطر عليه وترعاه ، ويعلّق عليها الآمال الكبار فيما يقدم عليها من خطوات تجعله واثقاً من تحقيق هدفه معتمداً على تلك القوّة الإلهية العظيمة ، وعندما يتحقّق له ما يريد يشعر بالسعادة والاطمئنان كما يزداد تعلّقه وارتباطه بإلهه العظيم .

وعندما تحيط بالإنسان الشدّة يكاد يتمزّق فيتذكّر إلهه فينهض من جديد، يعيد إلى نفسه توازنها وإلى كيانه تكامله ،وهذا هو الذي غيّر طبيعة النفسيّة العربية، فبعد أن كانت أنانية جاهلة تفرض باطلها ولا تقبل غيره ، أصبحت تبحث عن الحكمة في كلّ اتجاه وتأخذها أنّى وجدتها ، فعندما عادت علاقتهم با لله إلى وضعها الصحيح، سلمت علاقتهم بكلّ ما يحيط بهم من الناس والكون ،

---

(١) في ظلال القرآن جـ٨ ص٥٩٢ .

واستطاعت تلك الفئة القليلة المستضعفة أن تغيّر وجه العالم وتزرع فيه الخير قروناً عديدة وما زالت تشعّ أنوارها إلى عصرنا الحاضر ، وكلّ ذلك إنّما حدث بالتغيير العميق في النفس الإنسانية وسلامة فهم الإنسان لذاته والكون المحيط به والصّلة الوثيقة با لله عزّ وجلّ .

ومن ثمّ لم يكن غريباً أن يلاحظ العلماء والباحثون أنّ تقدّم المسلمين في علومهم ومدنيّتهم إنّما كان مصاحباً لتمسّكهم بإسلامهم ونشاط علمائهم المجتهدين .

وعندما جهلوا الإسلام وابتعدوا عنه جهلوا العلم وفضله، فأصبحوا بعيدين عن دينهم كما هم بعيدون عن ركب العمران والمدنيّة .

وما زال العلم يقدّم كلّ يوم جديداً في الكشف عن بعض جوانب هذا الإبداع في تكوين الإنسان العضويّ ودقّته وإحكامه . تقول مجلة (العلوم الانجليزية) إنّ يد الإنسان هي مقدّمة العجائب الطبيعية الفذّة، وأنّه من الصعب جدّاً بل من المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيّف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ثم تثبّته في الوضع الملائم للقراءة وهذه اليد هي التي تصحّح وضعه تلقائيّاً ، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ثمّ يزول الضغط بقلب الورقة ، وتمسك اليد القلم وتكتب به وتستعمل كافّة الآلات التي تلزم الإنسان من الملعقة إلى السّكين إلى آلة الكتابة . وتحمل كلّ ما يريده الإنسان وتفتح النوافذ وتغلّقها وهي تشتمل على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكلّ منهما . ولذلك لم يكن عبثاً قولهم إنّ اليد هي صانعة المدنية ، وليس العقل وحده (١) .

ومعلوم أنّ عملية القبض على القلم وحدها تحتاج إلى جهاز معقّد من العضلات وتنبيهات عصبيّة سريعة موجّهة إلى هذه العضلات تأمرها بالقبض أو البسط حين الحاجة (٢) .

---

(١) في ظلال القرآن جـ٨ ص٤٩١ .

(٢) النشأة الأولى ص٧ د. أحمد كنعان ، محمد كمال شرشرة/ الوكالة العامة للنشر / دمشق .

كما أنّ إبهام الإنسان ليستطيع مقابلة أصابع اليد الأخرى ، وهذه ميّزة للإنسان لا توجد في غيره من الحيوانات ، إذ أنّ الذي يساعد الإنسان في استعمال يده كلّ هذه الاستعمالات الدقيقة بالإضافة إلى كثرة عظام يده وعضلاتها وكثرة مفاصلها ، وجود الإبهام في وضع مقابل لأصابع تلك اليد ممّا يجعل في استطاعته التحكّم بباقي أصابع اليد (١) .

وهذه الملاحظة موجودة في إبهام القدم أيضاً ، إذ عليه يتوقّف ارتكاز الإنسان واتّزانه ، والإبهام يكون في الحيوانات منفرجاً عن باقي الأصابع بينما نجده في الإنسان مضموماً إلى أصابع القدم الأخرى ، فيساعد الإنسان في حركته وتوازنه أثناء سيره على الأرض (٢) . وإذا ما نظرنا إلى وضع أعضاء الجسم نرى أنّ هذا الوضع يحقّق أحسن تقويم للإنسان ، فالأذنان يسمع بهما الأصوات الآتية من مختلف الجهات ولهما حدود للسمع يسمع بهما ما يهمّه من الأصوات وما هو بحاجة إليه ، ولا يسمع الأصوات ذات التردد العالي جدّاً أو المنخفض جدّاً إذ يتراوح مجال سمع الإنسان بين (١٦ - ٢٠ ألف ذبذبة).والمعلومات التي بين أيدينا عن كيفية فهم الكلمات المسموعة وكيفية تمييز الأصوات العديدة ما زالت لا تجد جواباً عليها .

ولقد ذكر أحد أساتذة الطب وهو يشرح كيفية انتقال الصوت وحدوث السمع فقال : (إنّنا نعرف كيف يتمّ هذا الأمر أمّا كيف تدركه الخلايا العصبيّة وتفهمه فلا نتدخّل في هذا البحث) (٣) .

---

(١) كوكبنا النابض بالحياة ص١٧٤ .

(٢) تاريخ الحياة ص١٠١محمد كمال سند .

(٣) الطب محراب الإيمان جـ١ ص١٩٢ د.خالص جلبي / مؤسسة الرسالة / بيروت .

ولا شكّ أنّ القرآن الكريم كان يهدف من توجيه أنظار الإنسان إلى التفكير في نفسه إلى غاية سامية جليلة، وهي الاعتراف بعظمة هذا المبدع الخلّاق وشكره، بطاعته على مزيد فضله وإنعامه . وفي هذا المجال نذكر ما قاله الدكتور (وينكر شامبرز) في كتابه (الشهادة): أنّه بينما كان ينظر إلى ابنته استلفتت نظره أذناها فأخذ يفكّر أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقّد ودقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق ، إذ لابدّ أنه وجد نتيجة إرادة مدبّرة . ولكنه طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر أن يؤمن ، لأنّ ذهنه لم يكن على استعداد لتقبّل هذه الفكرة الأخيرة (١) .

وعندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (٢) . ندرك تماماً أنّ الإنسان مسئول عمّا يسمعه إذا كان يغضب وجه الله عزّ وجلّ . وهو أيضاً مسئول إذا لم يؤدّ حق نعمة الله عليه في سمعه، وذلك بتوجيهها إلى سماع الطاعات وكلّ ما فيه فائدة وخير له وللمجتمع أيضا .

ولقد ذكر السمع في أكثر من آية قرآنية مقروناً بالأبصار والأفئدة . وهذا الذكر إنّما جاء في مقام التمنن والتفضّل وتوجيه الإنسان إلى آيات الله في نفسه لينظر إليها ويتفحّصها .

ونستطيع أن ندرك مدى ما في هذه الأعضاء من آيات إذا عرفت أنّ الطبيب يقضي قسماً كبيراً من دراسة وتخصّص في عضو واحد منها وليته يستطيع أن يحيط بذلك علماً .

---

(١) الإسلام يتحدّى ص٣٩ .

(٢) سورة الإسراء ٣٦ .

قال تعالى : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ (١) فقدّم سبحانه السمع على البصر والفؤاد وجعلها جميعاً من دواعي شكر الله على نعمائه .

ونقرأ قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٢) . فحاسّة البصر شديدة الارتباط بحاسة السمع ، فالأصمّ الذي ولد لا يسمع ، يصعب عليه الانسجام مع المحيط الذي يعيش فيه . ويحدث لديه قصور عقليّ شديد بمعنى أنّ جهاز السمع ينمّي مدارك الإنسان وذهنه ووعيه .

وتعلّم القراءة والكتابة يحصل بطريق البصر والسمع ومن هاتين الحاستين يصعد الإنسان في الوعي والإدراك .

والذي يفقد بصره يمكن أن يتعلّم وأن يصل إلى درجة من النبوغ كما هو معلوم . ولكن الذي يفقد سمعه منذ ولادته فإنّه من الصعوبة بمكان أن يرتقي في سلّم العلم والمعرفة (٣) . وقديماً قيل إنّ الذي يفقد سمعه قبل النطق لا ينطق ، وهي حقيقة علميّة أقرّها العلم الحديث . ونحن نرى في الآيات القرآنية تقديم السمع على البصر في أكثر من موطن .

قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار

---

(١) سورة الملك ٢٣ .

(٢) سورة المؤمنون ٧٧ .

(٣) الطب ومعجزات الإيمان ص٢٠٣ جـ١ .

ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ (٣) .

فالبصر مع السمع يشكّلان نافذة الإنسان على العالم الخارجي ويعتبران جهاز التمييز والإدراك مع الفؤاد عند الإنسان (٤) .

ولو نظرنا إلى طبيعة خلق هذين الجهازين الصغيرين لرأينا العجب العجاب في كمال الخلق ودقّة التركيب .

فمدخل الأذن المتعرّج الدقيق لا يسمح بدخول الأجسام الغريبة بسهولة ، وهو محاط بعناية من الأخطار بصيوان الأذن وبقطعتين لحميّتين موجودتين في فوّهة مجرى الأذن ، كما يوجد الشعر والغدد الخاصّة التي تقوم بتنقية الوارد إلى الأذن من ذرّات الغبار الدقيقة التي يحملها الهواء (٥) .

---

(١) سورة يونس ٣١ .

(٢) سورة النحل ٧٧ .

(٣) سورة السجدة ٧ .

(٤) الطب محراب الإيمان جـ١ ص٢٠٥ .

(٥) الطب محراب الإيمان جـ١ ص١٩٤ .

وللأذن قدرة كبيرة على تمييز الأصوات ، إذ على الرغم مما يقال إن لكلّ إنسان صوته الخاصّ به ، فإنّ الأذن تستطيع التمييز بين هذه الأصوات جميعاً .
أمّا العين عضو جهاز الإبصار في الإنسان فإنّها محاطة من الأخطار كما هو الحال في الأذن ، ولوقايتها هناك الحاجب والبروز العظمي للجبهة من الأعلى وارتفاع الوجنة وأعلى الأنف .
وبالإضافة إلى وجودها في تجويف عظم الجمجمة فهي مستقرّة على وسائد شحميّة لراحتها وهي مغطّاة بجفنين يفتحان ويغلقان بمنتهى السرعة ، وإذا اتّصل الجفنان ببعضهما تداخلت الأهداب فتستر الأعين كأحسن ما يكون .
وهناك غشاء رقيق شفاف وغدد دمعية تستطيع التقاط الأجسام الغريبة كذرّات الغبار وبعض الجراثيم وتطهر العين منها .
أمّا العناصر الجمالية في العين واختلاف ألوان القزحية فيها من أسود إلى أزرق إلى أخضر وحورها وطول أهدابها واستداراتها ، فهذه أمور يدركها كلّ صاحب ذوق ونفس شفافة تسرّ ببديع صنع الله.وصدق الله العظيم : ﴿ الذي أحسن كلّ شيء خلقه ﴾ (١) .
وللعين هذه مقدار محدّد للرؤية فهي لا تستطيع أن ترى كلّ شيء في هذا الوجود ، وكثيراً ما يمارس عليها بعض ألوان الخداع البصري وسبب ذلك أنّ مجال الرؤية في العين محدود لكلّ مخلوق بما يهمّه ويعنيه قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ (٢) .

---

(١) سورة السجدة ٦ .

(٢) سورة الحاقة ٣٨ - ٣٩ .

فالماشية والقطط والكلاب لا ترى الألوان مطلقاً إلاّ الأبيض والأسود والظلال الرمادية ، وفي المقابل نرى البوم والخفّاش لا يناسبهما إلاّ النور الأبيض الضعيف لأنهّما ينشطان ليلا . فسبحان الذي سهّل لخلقه طرق عيشهم وركّب فيهم ما هو من طبعهم وما هم بحاجة إليه .

ولقد ذكر القرآن الكريم بعض أعضاء الإنسان في مقام المنة والتفضّل والإرشاد إلى ما في هذه الأعضاء من آيات ناطقة بكمال الله عزّ وجلّ وجلاله وعظمته .

قال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ﴾ (١) .

واللسان الذي وردت فيه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ منها : (وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم – أو قال على مناخرهم – إلاّ حصائد ألسنتهم) (٢) .

وكذلك : (اضمن لي ما بين فكّيك وما بين فخذيك ، أضمن لك الجنّة) (٣) .

ويعتبر اللسان العضو الأساسي في جهاز النطق عند الإنسان ، وحركة اللسان مع الشفتين تحدّد ضبط مخارج الحروف ، وهناك عند المتخصّصين في علوم تلاوة القرآن الكريم وتجويده شروحات وافية لضبط مخارج الحروف ضبطاً صحيحاً وذلك باستعمال اللسان والشفتين .

---

(١) سورة البلد ٨ ، ٩ .

(٢) سنن الترمذي جـ٥ ص١٢ ، مسند أحمد جـ٥ ص٢٣١ ، الترغيب والترهيب جـ٣ ص٥٢٨ الحافظ المنذري دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٣) الجامع الصحيح جـ٣ ص٥٢٦ أبو عيسى الترمذي المكتبة الإسلامية بيروت .

ويستطيع اللسان أن يقوم بالمضغ والبلع وذوق الطعام بالإضافة إلى النطق . وعلى سطحه يوجد تسعة آلاف نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمرّ والمالح (١) .

أمّا جهاز التنفّس لدى الإنسان فهو أيضاً غاية في الإحكام والدقة ، وعلى حد تعبير (البروفيسور جون لينهان) أستاذ الفيزياء الاكلينيكية بجامعة جلاسجو (إنّ الصعوبات التي تصادفنا في تصميم أنف صناعي تذكّرنا دائما بأنّ الأنف الطبيعي من وجهة النظر الهندسية والتكنولوجية هو النظام الأمثل في تكييف الهواء وبدرجة رائعة جدّاً) (٢) .

ولا يفوتنا أن نذكر انتقال الهواء الخارجي إلى رئاتنا الحسّاسة ، ولو دخل الهواء على علاّته لكان في ذلك هلاكنا ، فالإنسان الذي يعيش قرب القطب قد يستنشق هواء تصل درجة حرارته إلى ٤٠ مئوية تحت الصفر . والذي يعيش في المناطق الحارّة قد يستنشق هواء تصل درجة حرارته إلى ٤٥ مئوية .

ولا بدّ من تسخين الهواء البارد وتبريد الهواء الساخن ليلائم درجة حرارة الجسم .

ولقد ذكر أنّه أثناء الحرب العالمية الثانية فقد أحد الطيّارين غطاء طيّارته وظلّ يطير مدّة ساعتين في درجة ٣٠ مئوية تحت الصفر وتعرّض لتيار بارد سرعته ٤٠ كم/ساعة وأدّى ذلك إلى تهتّك أنسجة وجهه ، ولكنّه ظلّ يستنشق

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٣٠٤ د. خالص جلبي دار الكتب العربية / دمشق .

(٢) عالم الفكر مجلد ٩ عدد ٣ ص٦٢٠ تكنولوجيا بيولوجية في الكائنات الحيّة/ عبد المحسن صالح .

الهواء بدرجة حرارته المنخفضة ولم تدمر أنسجة رئتيه الحساسة،لأن جسمه كان يكيف درجة الحرارة من ٣٠ مئوية تحت الصفر إلى ٣٧ مئوية فوق الصفر(١) .

وعندما هبط لم يحس إلا بألم طفيف في زوره .

فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الخالق عندما اختار هذا المخلوق لعمارة الأرض وخلافته فيها زوده بطاقات وإمكانات عظيمة تساعده على ذلك .

وإذا كان الهواء الذي نستنشقه رطبا مشبعا ببخار الماء أو جافا ، فإن الأنسجة الرقيقة المبطنة تعمل على تكييف هذا الهواء وملائمته لجسم الإنسان . ولا يمكن أن نغفل أن هذا الهواء الذي نستنشقه محمل بأدران كثيرة من مكروب وغبار ، ولا بد من حل لتنقية الهواء ، لأننا نستهلك منه كميات هائلة إذ أننا نتنفس في اليوم الواحد بمعدل ٢٣ ألف مرة ، ويدخل رئتينا من الهواء ما مقداره ٤٤ ألف متر مكعب في العام . وهذه تحتوي من الغبار والميكروبات ما بين نصف رطل ورطل كامل أي من ربع إلى نصف كيلو جرام (٢) . وخاصة في المدن التي يثار غبارها . ومعنى ذلك أن الإنسان الذي يعيش من ٧٠- ٨٠ عاما يستنشق حوالي ٢٠ كيلو جراما من هذه الأدران ، ولكن ذلك لا يحدث بطبيعة الحال لأن الإنسان مزود بكل ما هو بديع ومتقن من الموشحات والمرطبات والمكثفات ومداخل ذات تجاويف .

---

(١) عالم الفكر مجلد ٩ عدد ٣ ص٦١٧.

(٢) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٩٨ .

فعندما يدخل الهواء في الرئتين يدخل مصفّى من الأدران والشوائب،فهناك على مدخل فتحتي الأنف شعيرات تصفّي الهواء من بعض ما علق به ،وكلّما تعمّق الهواء اصطدم بحواجز وثنيات وتجاويف منتظمة ومتآلفة بكفاءة رائعة ، بحيث يؤدي ذلك إلى اندفاع الهواء في تيارات ملتوية متعرّجة ، فينتج عن ذلك كسر حدّتها وفقدها لبعض سرعتها فيعطيها ذلك فرصة أكبر لملامسة الأغشية المبطّنة فيسخّن الهواء إن كان بارداً ، وتلطفه إن كان ساخناً ، وترطبه إن كان جافّاً ، وتجفّفه إن كان رطباً وتصطاد بعض ما يعلق به من ميكروب وغبار . ثم يمر الهواء إلى الحلق والقصبة الهوائية ، ثم تتفرع الشعب إلى شعيبات أصغر فأصغر حتى تصل إلى الحويصلات الهوائية ، حيث يتم تبادل الغازات . وقبل أن يصل الهواء إلى هذه الحويصلات الحساسة التي يتراوح عددها بين (٣٠٠-١٨٠٠) مليون حويصلة فإن الهواء يكون قد اكتسب الحرارة والرطوبة المتناسبتين . وكل حويصلة متصلة بجدار عرق دموي صغير ليتم تصفية الدم من غاز الفحم ومنح الأكسجين اللازم للبدن (١) .

ومما يزيد من كفاءة عملية التنقية والتكييف هذه أن الشعب التي تكون الجهاز التنفسي مزودة ببلايين الخلايا ذات الأهداب الرقيقة التي تتموج تماما كسنابل القمح ، وهي تتحرك باستمرار لتنظف وتصطاد البقية الباقية من الغبار والميكروبات وتخرجها إلى أعلى حيث تلقيها في الزور لتذهب إلى الأمعاء ومنها إلى الخارج .

---

(١) عالم الفكر مجلد ٩ عدد٣ ص٦١٩ عبد المحسن صالح .

إنّ من يتفكر في هذا يدرك عظمة التوجيه القرآني للتفكّر في النفس الإنسانية، والكشف وراء هذه الأسرار الدقيقة في تكوين كلّ جزء منها كما هو عليه الحال في خلق الله .

قال الله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٢) .

فاعتبرت الآية الكريمة التفكير في إبداع خلق الإنسان طريقا موصلا إلى معرفة الله عز وجل . فما أجدرنا أن ننعم النظر في هذه الأسرار المبثوثة في الإنسان، لنعرف الله حقا إضافة إلى أن معرفتنا بإبداع هذا الخلق والتكوين تدعونا للمحافظة على ذواتنا واتباع ما يصلحها في هذه الحياة الدنيا .

وفي كل جزء وخلية في كيان الإنسان إبداع عجيب ألفت فيه الكتب ، وقامت فيه الأبحاث والدراسات ، وما زال العلم كل يوم يكشف جديدا عن أسرار هذا الخلق البشري الفريد .

فهناك في بدن الإنسان ٢٠٦ عظمة متصلة بعضها ببعض بمفاصل ، وهذه المفاصل يبلغ معدّل الاحتكاك في كثير منها ما بين (٠,٠٠٥ – ٠,٠٢) وهذا يعني أنّ كفاءة الأداء في هذه المفاصل لا يمكن الوصول إليها مهما استعنّا بالوسائل العلمية المتقدمة (٣) .

---

(١) سورة فصّلت ٥٣ .

(٢) سورة الذاريات ١٨ .

(٣) عالم الفكر مجلد٩ عدد ٣ ص٥٨٦.

ولولا ذلك لتآكلت بالاحتكاك وانهارت في سنوات معدودة .

والإنسان يستطيع أن يسير على قدميه مسافات قد تبلغ في مجموعها (٢٠ ألف كيلومتر) وبالتالي يحرك مفاصله عشرات الملايين من المرات التي تحمل ثقله عليها ومع ذلك فإن كل شيء يسير بانتظام .

وجلد الإنسان الذي جاء ذكره في مقام شدة الألم والتعذيب للكفار يوم القيامة. في قوله تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ (١) .يعتبر مركز الإحساس وبه محطات تسجيل البرودة وأخرى لتسجيل الحرارة والنهايات العصبية المختصة بتسجيل البرودة،ولذلك فإن البشرة المصابة بتسلخ إذا عرضت للحرارة يكون تأثرها أشد من البشرة السليمة .

وبالإضافة إلى كون الجلد مركزا للإحساس فإنه مركز التكييف للجسم البشري ، فهناك في كل ٢ سم^{٢} من جلد الإنسان ٣٠٠ مسام عرقي ، وهذه المسام تسمح بخروج السوائل إلى خارج البدن ولا تسمح بدخول السوائل من خارج الجسم إلى داخله أي أنها صمام في اتجاه واحد .

وعند خروج العرق وتبخره فإنه يمتص جزءا من حرارة الجسم فيلطف درجة حرارته ، ويتفاوت انتشار هذه الغدد في سطح الجلد قلة وكثرة ، ويبلغ مجموعها حوالي (٥ – ١٥) مليون مسام .

ومجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد حوالي ٥٠٤ كيلومتر (٢) .

---

(١) سورة النساء ٥٦ .

(٢) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٣٠٣ .

كما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أن بعض الأجزاء في جسمه أكثرإحساسا من غيرها كالأنف والجبهة والشفتين وأطراف الأصابع والذقن .

وليس غريبا أن نجد القرآن الكريم وهو يصف شدة عذاب الكفار يوم القيامة يذكر هذه الأعضاء في أكثر من آية كريمة ويخصها بالذكر .

قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ (١) ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ (٢) .

وقال عز وجل : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون.لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم.هذا نزلهم يوم الدين ﴾ (٣) .

ومعلوم أن السحب على الوجه أكثر ما يتعرض له الوجه والأنف والذقن والشفتان ، والأكل والشرب من الزقوم والحميم أول ما يتعرض لذلك الشفتان واللسان .

وقال في عقاب الذين يكنزون الذهب والفضة : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ (٤) .

إشارة إلى بعض هذه الأماكن مع تنويعها ليشمل العذاب جميع أجزاء جسدهم ليكون العذاب أشدّ إيلاماً .

---

(١) سورة القمر ٤٨ .

(٢) سورة يس ٥ .

(٣) سورة الواقعة ٥١ - ٥٦ .

(٤) سورة التوبة ٣٥ .

ولقد حثّ القرآن الكريم الإنسان على التفكير في نفسه لأنه أعلم بشأنه وأخبر بحاله ، فليتدبّر غرائب الحِكَم ظاهرها وباطنها الدالة على التدبّر، وليعلم أنّ الذي دبّر أمرها لا بدّ سيحاسبها ، فيترتّب على ذلك تعرف الإنسان على ذاته فيعلمها ، والاهتداء إلى الغاية من خلقه فيعمل لها (1) .

---

(1) روح المعاني جـ21 ص23 .

حسن تصوير الإنسان :

كان خلق الله للإنسان على هذه الصورة تكريماً له واحتراماً . فالإنسان يأكل بيده والحيوان يتناول طعامه بفمه من الأرض ، وهو يسير منتصب القامة رأسه إلى أعلى وغيره يدبّ على الأرض على أربع .

ولذا كان ذكر حسن تصوير الإنسان مقروناً بخلق السماء والأرض ، وكأنّ خلق الإنسان وإبداعه ليس أقلّ من خلق السماء والأرض بكلّ ما فيهما من بدائع وغرائب .

قال تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم ﴾ (١) .

وقال عزّ وجل : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ (٢) .

والمراد بالتصوير هنا تناسق الشكل وتناسب الأعضاء وتهيأة الأعضاء لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات . والتصوير هو التخطيط والتشكيل (٣) . فهو مخلوق في أحسن الأشكال وأكمل الصور وأبدع التراكيب في جميع أعضائه ، ولذلك قالت الفلاسفة إنّ الإنسان هو العالم الأصغر إذ كلّ ما في المخلوقات جُمع فيه (٤) .

وتزعم أنّك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) سورة غافر ٦٤ .

(٢) سورة التغابن ٣ .

(٣) روح المعاني جـ٢٤ ص٨٣ الألوسي ، الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص٦٥٢٧ ، القرطبي .

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ ص٧٢٠٤ القرطبي .

وقال عزّ من قائل : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (١) .
والتقويم إمّا أن يكون حسن الشكل واعتداله واستقامته .
وإمّا أن يكون أنّه خلقه عالماً قادراً متكلّما سميعاً بصيراً . قال ابن العربي (٢) .
وبالتالي كان أسفل السافلين هو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة .
قال الواحدي السافلون هم الضعفاء والزمناء والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا .
وقال مجاهد والحسن وأبو العالية رددنا الكافر إلى أسفل درجات النار (٣) .
والذي يظهر أنّ المراد من الآية عموم ذلك ، فاستثناء المؤمنين إنّما يكون من الردّ المعنوي إلى أسفل سافلين ، أو من دخولهم إلى أسفل درجات النار ، أمّا الهرم والضعف فيعمّ المؤمن والكافر .
ولقد ذكر القرطبي حادثة لطيفة تبيّن مدى فهم فقهاء المسلمين وعلمائهم لحسن تقويم الإنسان وبديع تصويره .
وهي أنّ عيسى بن موسى أحد المقرّبين للخليفة العباسي المنصور كانت له زوجة فقال لها ذات ليلية أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أجمل من القمر .
فنهضت الزوجة واحتجبت وقالت له لقد طلقتني .
وبات تلك الليلة مهموماً وفي الصباح ذهب إلى دار الخلافة واستشار العلماء والفقهاء في الأمر فقال جميع من حضر لقد وقع الطلاق ، إلاّ واحد منهم .

---

(١) سورة التين ٤ .
(٢) فتح القدير جـ٥ ص٤٦٥ محمد الشوكاني دار المعرفة بيروت . وذكر الشوكاني أيضاً أنّ الجاحظ ألّف كتاباً أسماه (العبر والاعتبار في كمال إبداع الإنسان) كما ألّف النيسابوري كتاباً من مجلدين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .
(٣) فتح القدير جـ٥ ص٤٦٥ محمد الشوكاني .

فسأله أبو جعفر : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : وكان من أصحاب ابي حنيفة : (بسم الله الرحمن الرحيم . والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) . فالإنسان أحسن الأشياء يا أمير المؤمنين ولا شيء أحسن منه .

فقال المنصور للرجل : أقبل على زوجتك ، وأرسل إلى زوجته أن أطيعي زوجك فما وقع الطلاق (١) . وما أجمله من رأي مستنير انطلاقاً من فهم كتاب الله العزيز إذ أنّه أصبح من العلوم بداهة في عصرنا الحاضر بعد أن وصل الإنسان إلى القمر وشاهد تلاله وبراكينه أن لا وجه للمقارنة والشبه بين الإنسان المكرّم المصوّر في أحسن صورة وبين تلك المنخفضات والمرتفعات الجدباء الموحشة ، وفي أغلب الظن أن لو قالها رجل لزوجته بمنطق العلم في عصرنا الحاضر لكان في الأمر غمز خفيّ يدركه كلّ جاهل ومتعلم .

ولقد ذكر بعض الحكماء في بدن الإنسان قريباً من أربعة آلاف حكمة (٢) .

وهذا التصوير الحسن لشكل الإنسان يشعره بكرامته على الله . فالإنسان أكمل الأحياء على الأرض من ناحية تكوينه الجسماني ، كما أنّه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ، ومن ثم استحقّ خلافة الأرض لإعمارها وإحياء ذكر الله فيها (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٠ ص٧٢٠٤ .

(٢) تفصيل النشأتين ص١٩ للراغب الأصفهاني .

(٣) في ظلال القرآن جـ٨ ص١٢٣ .

ومن هذا الإبداع في التصوير والتركيب ما جاء في قوله تعالى في معرض الاستدلال على قدرة الله وإعادة خلق الإنسان مرة أخرى بدون تغيير أو تبديل: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ (١) .

وهذا ما دفع أحد العلماء الألمان إلى إعلان إسلامه ، لأنّه اعترف أنّ هذا العلم المبني على التحقّق من الشخصية بواسطة البصمة لم يعرف إلاّ في زماننا ، وأنّ الإشارة إليه في القرآن الكريم دالّ على أنّه من عند الله عزّ وجلّ وليس من قول البشر (٢) .

وهذا التصوير أرقى في مرتبته من مجرد الوجود ، فإنّ الله عزّ وجلّ منحنا الخصائص والوظائف المستقلة مقدّرة مع الخلق ، أمّا التصوير فيتمّ بعد تقادير الخلق .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ (٣) فهذا التصوير بشكله وأعضائه إنّما كان بعد تقدير الخلق ، وفي مرتبة إنسانية أعلى وأكرم من حاله الأولى .

ولو أردنا أن نستعرض حكم التكوين والتصوير في أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة لطال بنا الوقت ، ولخرجنا عن الموضوع ، ولكن يكفي أن نقرّر أنّ في كلّ عضو من أعضاء الإنسان حسن وإبداع إضافة إلى التناسق العام في

---

(١) سورة القيامة ٣-٤ .

(٢) جواهر القرآن جـ١٧ ص٢٢٩ .

(٣) سورة الأعراف ١٠ .

عمل هذه الأعضاء من جهاز هضمي إلى دورة دموية إلى جهاز عصبي وأسرار الغدد والهرمونات ووراثة الصفات من الآباء للأبناء ، فكلّ هذه وغيرها أيضاً تعمل متضافرة من أجل أن يكون هذا الكائن المكرم في أحسن تقويم وأجمل صورة .

بيان خلق الإنسان في الأرحام :

لقد نبّه القرآن الكريم الانسان إلى أصل وجوده وكيفية تكوّنه من النطفة إلى أن يصبح بشراً سويّاً ، فكان القرآن الكريم أوّل كتاب يضع مبادئ علم الأجنّة على أسس علمية صحيحة .

وقدرة الإنسان على فهم ما يجري من تخلق الإنسان في الأرحام تساعده كثيراً في القيام بدوره في عمارة هذه الأرض ، لأنّه هو القائم المعنيّ بهذه العمارة ، وكان طبيعيّا أن يكون عالماً بنفسه قبل أن يتوجّه بالتعرّف على غيره . ولأنه إذا لم يدرك ذاته وكيفية المحافظة عليها فإنّه لا يستطيع أن يقوم بالمهمة الثقيلة التي حملها في هذه الحياة .

وفي مقام هذا التوضيح والبيان وردت آيات قرآنية مختلفة منها قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (١) . فالإنسان يعود في أصله إلى آدم المخلوق من الطين وكذلك فالمادّة المكوّنة للإنسان إنّما هي من الطين في عامّتها .

---

(١) سورة المؤمنون ١١-١٤ .

فهذا النبات يخرج من الأرض ويأكله الحيوان ويتغذّى الإنسان على كليهما فتكون النطف الحاصلة من الغذاء الذي هو سلالة الطين وصفوته .

والمراد بالإنسان الجنس . والسلالة من سلك الشيء من الشيء إذا استخرجته منه (١) . فهذه السلالة التي هي خلاصة المواد الغذائية التي سارت في جسم الانسان كانت منها النطفة ، وقيل المراد بالسلالة النطفة فكأنّ المقصود أنّ الإنسان بداية تكوّنه نطفة أصلها الطين ثم كان نطفة في قرار مكين وفي هذا بعد .

وقال قتادة : استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق (٢) .

والأرجح إذا كان المراد من الإنسان الجنس أن تكون السلالة بمعنى المكوّنات الأساسية التي تصدر عنها ، ومن المعلوم أنّها نمت وازدادت بفعل التغذية على عناصر مختلفة مكونة من طين هذه الأرض .

أمّا إذا كان المقصود من الإنسان آدم على اعتبار أنّ البشرية كلّها لآدم وآدم من تراب ثم تتابع النسل وتوالد بالطريقة المعتادة فهذا معنى آخر تطمأن إليه النفس وتستريح .

والآية الكريمة توضح هذا المعنى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (٣) . فبداية خلق الإنسان كانت من الطين وذلك لآدم عليه السلام ، ثم تتابع النسل بطريق النطف المتكوّنة من تراب الأرض .

---

(١) روح المعاني للألوسي جـ١٨ ص١٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ص٢٤٠ .

(٣) سورة السجدة ٧ - ٨ .

والآيات الكريمة الواردة في خلق الإنسان من الصلصال والحمأ المسنون والطين اللازب إنّما هي أشكال وحالات لتراب الأرض (١).

فالتراب لمّا عجن بالماء صار طيناً وبمضيّ فترة على الطين اسودّ وصار حمأ مسنونا " أي طيناً أسوداً متغير الرائحة . ولّما جفّ هذا الحمأ المسنون صار صلصالاً كالفخار ، وسواء كان المقصود أنّ مكونات الإنسان الجسدية هي من الطين بطريق الغذاء أم أنّ خلق آدم كان من الطين ثم استمرّ التناسل بطريق النطف ، فإنّ الملاحظ أنّ العناصر الداخلة في تركيب جسد الإنسان إنّما هي نفسها العناصر المكونة للطين . ولو قمنا بتحليل الإنسان إلى مكوناته الأساسية لوجدنا أنّ هناك عشرين عنصراً تشترك في ذلك بكميات متفاوتة .

ففي الإنسان الذي يزن في المتوسط ٧٠ كجم تقريباً .

نجد أنّ هناك ما يقارب من ٥٠ - ٥٥ كجم ماء .

وما تبقّى من الإنسان يشكّل ٦٠-٨٠٪ منها الكلور والكبريت والفوسفور والمغنيسيوم والكلس والبوتاس والصوديوم .

وهناك سبعة مواد أخرى بشكل قليل هي الحديد والنحاس واليود والمنغنيز والكوبالت والتوتياء والموليبديوم .

---

(١) انظر قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ الرحمن ١٤ . ﴿ الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من ماء مهين ﴾ السجدة ٧،٨ .

﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ الحجر ٢٦ .

﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا ﴾ الكهف ٣٧ .

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ الحج ٥ .

وهناك ستة عناصر أخرى بشكل زهيد جدّاً ووظائفها غير معروفة بالضبط منها الفلور والألومنيوم والسيلنيوم والكاديوم والكروم (١).

ومن هذا ترى أنّ المواد الداخلة في بناء جسد الإنسان لا تشكّل أكثر من علبة طباشير وعلبة كبريت ومسمار صغير من الحديد وحفنة من ملح الطعام.

ومع ذلك فلكلّ معدن من هذه المعادن وظيفة حيوية واحدة أو أكثر، فالكلس للتخثّر، والتوتياء في بناء الأنسولين لحرق السكّر، والكلس والفوسفور والمغنيسيوم لبناء متانة العظام والأسنان، والفلور في متانة الأسنان ووقايتها، والحديد في تركيب الخضاب الدموي.

ولكلّ معدن من هذه المعادن ولعه الخاص بالتمركز بأمكنة خاصة به، فالحديد في الركيّات الحمر، والنحاس في الكبد، والفوسفور في الدماغ، والبوتاس في الخلايا، والمغنيسيوم في العظام، والكلس في العظام أيضاً، والكلور للمعدة وهكذا (٢).

وإذا ما تضافر الكلس مع الفوسفور والمغنيسيوم والفلور فإنه يكوّن سبيكة عالية المتانة تتكوّن منها الأسنان والعظام.

ولقد ردّ أحد العلماء مكونات جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية التالية:

إذا كان هناك إنسان يزن مائة وأربعون رطلاً فإنّ بدنه يحتوي على المواد التالية:

قدر من الدهن يكفي لصنع ٧ قطع من الصابون.

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٩٦.

(٢) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٩٨.

آدم فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ص٢٠ البهي الخولي، مكتبة مصر القاهرة.

وقدر من الكربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص .

وقدر من الفوسفور يكفي لصنع مائة وعشرين عود ثقاب .

وقدر من ملح المغنيسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهّلات .

وقدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

وقدر من الجير يكفي لتبييض بيت للدجاج .

وقدر من الكبريت يطهّر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره .

وقدر من الماء يملأ برميلاً سعته عشر جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستين قرشاً مصريا (١). وتلك هي قيمة الإنسان المادية بلا روح وبلا نفخة من السماء اختصّ بها هذا الكائن الفذّ . فالإنسان بجسده عبارة عن مجموعة عناصر كلّها موجودة في تراب الأرض ولكنّ الحكمة في ترابط هذه العناصر بعضها ببعض وتشكّلها بحيث ينشأ عن ذلك جسد إنساني ، وفوق هذا نفخ الروح في هذا المخلوق العجيب المليء بالأسرار الذي تقتضيه معرفته لنفسه ، معرفة ربه ، فيلتزم ما أمر وينتهي عمّا نُهي .

وبعد أن يذكّرنا الله عزّ وجلّ بطبيعتنا الترابية في أساسها يعلمنا بما تم إليه هذا التحول وهو النطفة ﴿ ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ (٢) .

والنطفة هذه مصونة محرزة في قرار ثابت قوي لا تنفصل لثقل حملها ، ولا تمجّ ما فيها قبل وقته وميعاده (٣) .

---

(١) نظرات في القرآن ص٦٠ محمد الغزالي – دار الكتب الحديثة .

(٢) سورة المؤمنون ١١ .

(٣) روح المعاني جـ١٨ ص١٣ للألوسي .

والرحم كما وصفته الآية الكريمة قرار مكين حقاً ، حيث إنه يتلقى الحماية من كافة الجهات فهناك عظم العجز والعصعص من الخلف ، ومن الجانبين والأمام عظم الحرقفة الذي يشكّل حلقة الاتصال ما بين العمود الفقري في الأعلى والعجز في الخلف . وعظم الفخذ من الأسفل وهو ما يسمّى بالزنّار الحوضي)(١) .

فالعظم يحمي الرحم تماماً ويكون جافاً محمياً من كافة الجوانب يستقر فيه الرحم . وهذه الحماية يجب أن تتناسب مع وظيفة الرحم من استقبال للنطفة إلى إخراج المولود بسلام ، كما أنّ على هذا العظم التلاؤم مع هيكل الجسم العام بحيث يستقبل ضغط عظم الفخذ من الأسفل وثقل الجسم من الأعلى من خلال العمود الفقري . وهو مقرّ لارتكاز عشرات العضلات والأربطة . وعليه أن يحوي أيضاً العديد من الحفر واللم لمرور الألياف والأعصاب والشرايين والأوردة .

وأخيراً فعليه مهمة تكوين الدم ونقل الكلس والفوسفور والمغنزيوم من العظام وإليها . فهذه الحماية الربّانية وصفتها الآية الكريمة بالقرار المكين ، وعلى الإنسان أن يبحث في إبداع خلق الإنسان ووظائف أعضائه ، ليدرك مدى الحماية التي وفّرتها الحكمة الإلهية للرحم البشري هذا القرار المحاط بالحماية من جميع جوانبه .

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٣٨ .

وهذا الرحم الذي يكون حجمه قبل الحمل ما يقرب ٢,٥ سم^3 فإنه يتجاوز بعد الحمل ٥٠٠٠ سم^3 . ولقد كانت من عظيم حكمته عزّ وجلّ أنّ دور الحماية هذا أظهر ما يكون في بداية الحمل عندما تدخل النطفة ويبدأ تكوّن الجنين ويكون الخطر كبيراً على هذه المضغة . فالخطر يكون كبيراً على الحمل في مراحله الأولى (١) .

والرحم محميّ بالحزام الأمني العظمي وبحماية هرمونية تجعله لا يتجاوز مكانه إلاّ عندما يكبر الجنين ويرتفع باتجاه البطن ، وقد أصبح إلى حدّ كبير في أمان من الخطر .

كما أنّ جسم الرحم يقف في الفراغ بين أربطة تشدّه من الأمام والخلف والجانبين والأعلى والأسفل بحيث ينتظم وقوفه ويؤدي وظيفته ويحمي الجنين .

وأي خلل يتم على هذا التوازن معناه الإجهاض .

وهذه النطفة البسيطة المتناهية في الصغر النازلة في ذلك القرار المكين تجد من الظروف المناسبة ، ما يساعدها على تحقيق مهمتها ويدرأ عنها الأخطار .

فهناك ملايين النطف في القذفة الواحدة تكفي واحدة منها للتلقيح .

والنطفة في طريقتها تمشي كالغواصة تشقّ عباب الإفرازات المختلفة ولا تصطدم بالجدران وحتى لو اصطدمت فإنّ القلنسوة التي هي غطاء الرأس تجعل الحيوان مصفحا لا يتأثر (٢) .

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٣٨ .

(٢) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٤٠ .

وبجانب هذه النطفة تمشي ملايين النطف في سباق عظيم إلى الهدف المنشود ، وتسير هذه النطف منطلقة بأسواطها إلى حيث تلاقي البويضة في الوقت المناسب لنضجها وتقترب منها مرسلة أنزيماً خاصاً يعتبر كرسول للبويضة يطلب منها الإذن بالدخول (١) .

وبعد أن يتمّ الاتّحاد يستمر النمو حتى يصبح وقت الولادة (٣٢٥٠) غم على وجه التقريب ، ويبلغ عدد خلاياه ٢٠٠ بليون خلية (٢) ، ويحاط هذا الجنين بالمشيمة التي تكفل له حاجاته كلها فتسمح بمرور المواد الغذائية المهضومة والأكسجين من دم الأم إلى الطفل ، بينما تخرج ثاني أكسيد الكربون وبعض المواد الضارة في جسم الطفل إلى دم الأم (٣) .

وتعمل المشيمة كحاجز بين الموادّ الضارّة في الأم والجنين فهي تعمل كالمصفاة التي تمرر الطيبات وتنفي الخبائث .

غير أنها تحت ضغط هذه السموم وكثرتها قد تسمح بمرور بعض العقاقير القوية التي تعطّل عمل هذه المصفاة كالكحول والسموم ، ولذلك يؤثر النيكوتين الناتج عن التدخين والكحول الناتج عن الخمر على الجنين أضعاف تأثيره على الأم (٤) .

وعندما يتمّ اتحاد النطفة بالبويضة ينشأ عن ذلك العلقة التي تعلق بجدار الرحم ثم تبدأ في النمو حتى تصبح مضغة وهي قدر ما يمضغ من اللحم ، ثمّ يستمر

(١،٢،٣) الطب محراب الإيمان جـ١ ص٧٠-٧٤ .

(٤) العلم ومشكلات الانسان المعاصر ص٣٩ .

التدبير والتقدير حتى تجيء المرحلة الثالثة مرحلة العظام ثم مرحلة كسوة العظام باللحم .

ويقف الإنسان مشدوهاً أمام ما أخبر به القرآن الكريم من أنّ خلايا العظام غير خلايا اللحم ، وأنّ خلايا العظام هي التي تتكوّن أولاً في الجنين ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلاّ بعد ظهور خلايا العظم وتمام خلايا الهيكل العظمي للجنين (١) .

ومعلوم أنّ خلايا اللحم تتكوّن من خلايا العظام التي اكتمل نموّها ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ويصبح خلقاً حياً آخر ، غير ما كانت عليه تلك الخلايا قبل تلك الفترة .

قال تعالى : ﴿ ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٢) . وهذا الخلق الآخر هو قذف الروح فيه ليصبح إنساناً له خصائصه ومقوّماته .

فالحياة الإنسانية ليست عناصر أرضية نشأت منها وانتهت إليها ، وإنّما هناك عنصر غير أرضي قد امتزج بها وتدّخل في سيرها ، وهذه النفخة الربانية جعلت له غاية غير غاية الجسد ونهاية غير نهاية اللحم والدم (٣) .

وكلمة ثمّ في الآية يصح أن تكون للترتيب الرتبي فإنّ الخلق الثاني أعظم من الأوّل ورتبته أعلى . وصدق الله العظيم : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صورناكم ﴾ (٤) . فآدم خلق من الطين ثم صوّر ، وذريته خلقوا في الأرحام ثم

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص١٦ .

(٢) سورة المؤمنون ١٤ .

(٣) روح المعاني جـ١٨ ص١٥ .

(٤) سورة الأعراف ١١ .

صُوِّروا فيها في أحسن تقويم وتشكلت الأعضاء وأخذ الإنسان شكله الخاصّ به (١) .

ومن الملاحظ أنّ هذا التصوير يتمّ في دقة متناهية فالعين لا تكون محل الفم ، ولا يمكن أن يكون الفم مكان الشرج ، ولو كان هناك أدنى تحوّل أو انحراف في تنظيم هذه الخلايا وترتيبها لنشأ عن ذلك تشوّهات خلقية يعجز الإنسان عن الحياة بها .

ومُكْث الإنسان في الرحم له في الغالب مدّته المعلومة ، فالأرحام هي مستقرّ هذه النفس الإنسانية التي بدأ تشكّلها قال تعالى : ﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء﴾ (٢) .

ولقد نبّهت الآيات القرآنية إلى أنّ هذه النفس الإنسانية لها مستقرّ كما أنّ لها مستودعاً .

واختلف المفسّرون على أقوال في بيان المستقر والمستودع ، وأرجح هذه الأقوال أنّ المستقرّ هو الرحم والمستودع هي الأصلاب ذكره الماوردي عن ابن عباس . وقيل هي ما استودع عند الله عزّ وجلّ فلم يبدأ تكوينها (٣) .

قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ (٤) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص٢٦٠٥ .

(٢) سورة الحج ٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص٢٦٠٥ .

(٤) سورة الأنعام ٩٨ .

فما أجدر الذين يفقهون أن يبحثوا في مستقرّ هذه النفس ومستودعها وأن يفقهوا كلام الله ويستفيدوا من مراميه ومعانيه من أجل إصلاح حياتهم في الدنيا والآخرة .

ويخاطب الله عزّ وجلّ الناس جميعا ويؤكّد لهم صحة بعثهم يوم القيامة بما أعلمهم عن بداية خلقهم وحياتهم حتى نهايتها في تقرير علمي دقيق لمراحل حياة الإنسان .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ (١) .

والآية تخاطب البشر جميعاً بدليل علمي في أنفسهم مؤكدة قدرة الله على البعث . والنطفة هي المني وسمّي نطفاً لقلّته . والعلقة هي الدم الجامد وقيل الشديد الحمرة ، والمضغة المخلّقة هي تامة الخلق أو التي قد بدأ خلقها وتصويرها ، وغير المخلقة هي السقط أو التي لم تصوّر بعد ، والتخليق من الخلق وفيه معنى الكثرة فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقاً بعد خلق (٢) .

---

(١) سورة الحج ٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٦ ص٤٣٩٨ .

وقيل إنّ المخلّقة هي التي أتمّ الله خلقها فتكاملت أعضاؤها وغير المخلّقة هي الخديج الناقص غير التام التي لم يستبن خلقها وصورتها بعد . وقال ابن عباس: المخلّقة ما كان حيّاً وغير المخلقة السقط (١)، قال الشاعر :

أفي غير المخلقة البكـاء   فأين الحزم ويحك والحياء

وروي عن مجاهد وقتادة والشعبي وأبي العالية وعكرمة أن المخلّقة التي تمّ لها مدّة الحمل وتوارد عليها خلق بعد خلق وغير المخلّقة التي لم يتمّ لها ذلك وسقطت (٢).

وهذه المضغة يقرّها الله في الأرحام ما شاء ، فقد تكمل مدتها وهي تسعة أشهر وقد لا تكتمل فتنزل حية أو لا حياة فيها .

ولقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال : (إنّ أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثمّ يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقيّ أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح) (٣).

ولقد احتجّ بعض الجهلة أنّ هذه المضغة فيها الحياة منذ البداية وأنها مجموعة من الخلايا الحية قبل أن يبعث الله إليها الملك .

ولكنّ هذا غَفِل ولم يدرك أنّ الحياة المعتبرة هي حياة الروح ، وهذه هي التي تنفخ فيه بعد الشهر الرابع ، وليس كل خليّة حية أو مجموعة خلايا تكوّن

---

(١) روح المعاني جـ١٧ ص١١٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٠٨٥ كتاب أحاديث الأنبياء ، شرح صحيح مسلم جـ١٦ ص١٩٠ (المتن) .

إنساناً كاملاً له روح ، وإنّما تكون الحياة في الإنسان بهذه النفخة الربانية التي لا نعلم عنها شيئا .

وهذا الطفل الضعيف الخارج إلى الحياة بتكامل ويشتدّ في حال شبابه ثم يصل إلى الهرم وضعف القوة وتناقص الأحوال من الانحزف وضعف الفكر ولهذا قال عزّ وجلّ : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثمّ جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق الله ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمّى ولعلكم تعقلون ﴾ (٣) .

وقد أخبرت الآيات القرآنية بمراحل خلق الإنسان في الأرحام ، والظروف المحيطة بهذا التكوين ، والخلق من النطفة الأمشاج إلى الرحم صاحب القرار المكين ، إلى الظلمات الثلاث المحيطة بهذا المولود (٤) .

قال تعالى : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الحج ٥ .

(٢) سورة الروم ٥٤ .

(٣) سورة غافر ٦٧ .

(٤) تنبيه العقول الإنسانية ص٧٨ المطيعي .

(٥) سورة الإنسان ٢ .

والأمشاج هو ماء الرجل وماء المرأة إذ اجتمعا واختلطا ، قاله: عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس (١).

فهناك اختلاط وتزاوج وتلقيح بين النطفة والبويضة ثم تتخلّق هذه الأخلاط فيجعل لها السمع والبصر .

وقال ابن السكيت : الأمشاج هي الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع ، فنطفة المني ذات أمشاج أي عناصر مختلفة (٢).

وهذا الكلام أقرب ما يكون إلى ما نسميه في عصرنا الحاضر بلغة العلم (الجينات الوراثية) التي تحمل الصفات المختلفة .

وذكر زيد بن أسلم أنه قال : أمشاج أي العروق التي في النطفة وروي ذلك عن ابن مسعود أي ذات عروق (٣).

وروي عن عكرمة وابن عباس أنه قال : أمشاج أي أطوار فإنّ النطفة تصبح علقة بعد التزاوج ثم مضغة إلى تمام الخلق (٤).

ويؤكد هذا المعنى من أنّ الجنين يتكون بماء الرجل والمرأة ما ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . حيث قال : (تخيّروا لنطفكم فإنّ النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن) (٥) وقال عليه الصلاة والسلام : (تخيّروا لنطفكم الأكفاء وانكحوا إليهم) (٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٤٥٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ ص٦٩١٢ .

(٣،٤) روح المعاني جـ٢٩ ص١٩٢ .

(٥،٦) الجامع الصغير جـ١ ص١٣٠ ، كنز العمال جـ٨ ص٢٢٣ ابن عساكر عن عائشة وانظر كشف الخفاء للعجلوني ٣٥٨/١ رقم ٩٦ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل من بني فزاره إلى النبي ﷺ فقال : إنّ امرأتي ولدت غلاماً أسوداً . فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أوراق ؟ قال : إنّ فيها لورقا .

قال : فأنّى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق . قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق (١) .

وفي تعليم رسول الله ﷺ لهذا الرجل بأنّ هناك صفاتاً وراثياً للأبوين والأجداد قد تؤثر في المولود ، فيخرج مختلفاً في بعض صفاته عن والديه ، مبدأ أساس لما سمّي في العصر الحاضر بعلم الوراثة .

وروي عن طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جدّه أنّ النبي ﷺ قال له: ما ولد لك ؟ قال : ما عسى أن يولد لي إمّا غلام وإما جارية .

قال : فمن يشبه ؟ قال : ما عسى أن يشبه إمّا أباه وإما أمه ؟

فقال النبي ﷺ مه لا تقل هذا ، إنّ النطفة إذا استقرّت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم (٢). أما قرأت هذه الآية : ﴿ في أيّ صورة ما شاء ركّبك ﴾ (٣) .

ولقد أكّد علم الوراثة أنّ المولود يتأثر بصفات أصوله كما يتأثر بصفات والديه.

---

(١) التاج الجامع للأصول جـ٢ ص٣٥١ ، سنن ابن ماجه جـ١ ص٦٤٥ ، والجمل الأورق : الأسمر والورقة : السّمرة (النهاية في غريب الحديث ١٧٥/٥) .

(٢) الإكليل ص٢٢ للسيوطي .

(٣) سورة الانفطار ٨ .

وفي مجال تشكّل الجنين وتحديد جنسه في بطن الأم نقرأ قوله تعالى : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منيّ يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ﴾(٢) فجعل الزوجية والذكورة والأنوثة بعد النطفة .

والضمير في (منه) كما يصحّ أن يعود على الانسان يصح أن يعود على المني(٣) ، أي فجعل من المني الزوجين الذكر والأنثى .

وإذا اعتبرنا عودة الضمير على المني ففي ذلك تنبيه على أنّ الذكورة والأنوثة وتحديد الجنس في الجنين إنّما يعود لنطف الرجل ، ولا تشارك المرأة في ذلك ، وهي حقيقة علمية كشف العلم سرّها مؤخرا .

وهذا الجنين محفوظ محاط بالعناية والرعاية في أكثر من مجال ، فهو بالإضافة إلى قرار الرحم وإحاطته بالحماية اللازمة ، هناك أغشية تحيط بهذا الجنين وتحافظ عليه .

قال الله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ (٤) .

---

(١) سورة القيامة ٣٧-٣٩ .

(٢) سورة فاطر ١١ .

(٣) روح المعاني جـ٢٩ ص١٨٨ .

(٤) سورة الزمر ٦ .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحّاك وقتادة والسدي أنّ هذه الظلمات الثلاث هي ظلمة الرحم وظلمة المشيمة وظلمة البطن (١).

ولقد جاء العلم الحديث ليكشف أنّ هذا الجنين يكون محاطا بأغشية ثلاث، وسواء كان المقصود بهذه الظلمات الرحم والمشيمة والبطن أو ظلمات الأغشية فلقد قرّرت الآيات القرآنية حقيقة علمية حول تخلّق الانسان في الأرحام. وصدق الله العظيم: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربّك بغافل عمّا تعملون ﴾ (٢).

والله عزّ وجلّ قدّر أعضاء الانسان بحيث تصلح له وتليق بمهمّاته في هذه الحياة قال تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره . ثمّ السبيل يسره . ثم أماته فأقبره ﴾ (٣).

والتقدير هو التهيأة لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال (٤).

وتتمّ هذه التهيأة بتكوّن أجهزة الجسم وأعضائه المختلفة بدقّة متناهية لأنّ عمارة هذا الجسم البشري دقيقة الصنع عجيبة التكوين متنوعة الوظائف، ومن ثم فإنّ كلّ مجموعة من الخلايا تتكفّل بنوع معين في ركن مخصّص لها.

ويجوز أن يكون هذا التقدير تفصيل لما أجمل في قوله تعالى:﴿من أي شيء خلقه﴾ أي فقدّره أطواراً إلى أن تم خلقه،فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المولود بعد أن تمّت تهيأته فقد سُهّل مخرجه من البطن بأن فُتح فم

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٤٦ .

(٢) سورة النمل ٩٣ .

(٣) سورة عبس ١٨-٢١ .

(٤) روح المعاني جـ١٠ ص٥٥ .

الرحم ومدّدت الأعصاب في طريقه ونُكّس رأسه لأسفل بعد أن كان في جهة العلو (١).

ولقد بيّنت الآيات القرآنية تكوّن الماء الدافق في الرجل والمرأة ، وأشارت إلى أماكن حدوثه وتكوّنه ، قال تعالى : ﴿ فلينظر الانسان ممّ خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (٢).

ولقد ذكر العلماء في المعنى المراد من الصلب والترائب أقوالاً مختلفة منها : أنّ صلب الرجل هو عظام ظهره الفقارية ، وماء المرأة في أصله من الترائب ، وهي عظام صدرها العلوية (٣).

وقيل إنّ هذا الماء يخرج من بين صلب الرجل وترائبه وفي المرأة كذلك .

والترائب هي عظام الصدر ، ما بين الثديين ، وقيل ما بين المنكبين والصدر ، وقيل أربعة أضلاع من أيمن الصدر وأربعة أضلاع من ميسرته أسفل الصلب(٤)، وحكي عن ابن عباس أنها أطراف المرء ورجلاه ويداه والأشهر أنها عظام الصدر وموضع القلادة منه .

ولو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كلّه لم يبعد ، وكأن تخصيصها بالذكر لما أنّهما كالوعاء لأجهزة الانسان المختلفة (٥).

---

(١) روح المعاني جـ١٠ ص٥٥ .

(٢) سورة الطارق ٥-٧ .

(٣) في ظلال القرآن جـ٨ ص٥٣٥ .

(٥،٤) روح المعاني جـ٣٠ ص١٢٤ .

ويرى بعض العلماء أنّ معنى الآية الكريمة إنما هو باعتبار علم الأجنة ، فخلايا الانسان الجنسية تتشكّل على جانبي الفقرات من الفقرة الظهرية الثامنة حتى الفقرة القطنية الرابعة وهذه مكانها بين الصلب والترائب أي عظام الصدر وعظام الظهر وهذه الأماكن مخارج لتلك الخلايا فتنشأ عنها (١) .

وقيل إنّ هذه الآية تكلّمت عن خروج ماء الرجل وحده من بين العظام والغضاريف وذلك باعتبار خروجه المعتاد وليس باعتبار منشأة وتكونه (٢) .

وذهب النسفي أنّ المقصود بالصّلب هو العظم والعصب من الرجل ، والترائب هي اللحم والدم من المرأة (٣) .

ولقد أشارت الآيات القرآنية أيضاً إلى مدة الحمل ، وفهم صحابة رسول الله ﷺ مدلول هذه الآيات وطبقوها في واقع حياتهم الإسلامية .

من ذلك ما روي أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أتي بامرأة ولدت لستة أشهر فأمر برجمها ، فبلغ ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له عليّ: ليس لك ذلك ،فإنّ الله عزّ وجلّ يقول :﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾(٤) .

---

(١) النشأة الأولى ص٥٠ ، القرآن وقضايا الانسان ص٢١ .

(٢) النشأة الأولى ص٥١ .

(٣) تفسير النسفي جـ٤ ص٣٣١ .

(٤) سورة الأحقاف ١٥ .

ويقول عزّ وجل : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ (١) .

فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر (٢) .

وأكّد العلم الحديث أنّه بإمكان المرأة أن تضع وليدها لستة أشهر خلت من حملها .

ومن هذا يتّضح لكلّ ذي بصر وبصيرة أنّ القرآن الكريم كشف للإنسان كثيراً من أسرار تكوّنه ، وكان حقّاً علينا أن نعود إلى قرآننا سرّ نهضتنا وطريق سعادتنا في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤ ص١٥٧ وذكر هذه الرواية عن ابن أبي حاتم بأطول من هذا ، الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص٦٠١٣ .

العناية بالطفل :

حثّت الآيات القرآنية على ضرورة العناية بالمولود ، وخاصة في سنواته المبكّرة التي يكون فيها بحاجة إلى الرعاية القصوى ، حيث يقوّي زنده ويشتدّ عوده ويصبح قادراً على مواجهة أعباء الحياة ، وحتى لو وقع شقاق أو خلاف بين الزوجين فلا ينبغي أن تنعكس آثاره على هذا المولود ، بل ينبغي أن يأخذ حقّه من الرضاعة الوافية والعناية الكافية .

قال تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف لا تكلّف نفس إلاّ وسعها ، لا تضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أراد فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإذا أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ (١) .

فتبرز الآية الكريمة حقّ الطفل في الرضاعة على والديه ، ترضعه والدته عامين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وإذا أرادا أن ينقصا من ذلك فلا بأس ، ولكنّ الأفضل أن يتم المولود رضاعته من ثدي أمه . وفوائد الرضاعة للمولود والوالدة غفل عن أهميتها كثير من الناس ، حتى في وقتنا الحاضر الذين توهّموا أنّ استبدال حليب الأم بمجفّفات الحليب يغني الطفل ويسدّ حاجته ، ولكن جاء العلم ليثبت أهمية هذه الرضاعة الطبيعية ، ويخطئ من يظنّ أنّ الرضاعة الصناعية لا تختلف كثيراً عن الرضاعة الطبيعية . فاللبن الذي ينساب

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

من ثدي الأم إلى فم رضيعها لا يجاريه لبن آخر ، وكما يقول الدكتور هارفي في كتابه (القسم الذاتي) : (إنّ اللبن صورة من أنسجة سائلة ، وهي كأيّ نسيج يتكوّن على حساب الدم الذي أنتجه ، وعندما يكون طازجاً وحاملاً لحرارة الكائن الذي أفرزه ، فإنه يمتلك بعض القدرة على محاربة وتدمير الجراثيم ، إذ يحتوي على بعض هذه الأجسام المضادة الموجودة في الدم) (١) .

ولبن الأم يحتوي على نسبة عالية من الأملاح والمواد البروتينية ، وهي سهلة الهضم مناسبة للوليد في اليوم الأول من عمره .

ولا شكّ أنّ الغذاء المتوازن المناسب ضروري للطفل وخاصة في أيامه الأولى ، وأنّ أيّ حيود عن هذا الطريق قد يؤدي إلى أضرار لا تحمد عقباها . فزيادة السكر مثلاً في التغذية الصناعية ينتج عادات غذائية ضارّة تؤدي إلى اختلال عضوي أو وظيفي . والرضاع عدا عن كونه مادة غذائية للطفل فهو مشاركة وجدانية وعاطفية وفسيولوجية وبيوكيميائية ويؤثر على المولود كما يؤثر على الوالدة ، وإذا منحت الأم ثديها للرضيع بعد الولادة فإنّ ثلاث مسائل شائكة يخشاها الأطباء قد تحلّها الرضعة في التوّ واللحظة ، وهي النزيف الذي يعقب الولادة ، وختام عملية الولادة بانفصام المشيمة ، وتقلص الرحم إلى حجمه الطبيعي ،فإذا ما التقم الوليد ثدي أمه فإن النزيف يتضاءل ، ويعود الرحم إلى وضعه الطبيعي في أقلّ وقت ممكن ، وتسقط المشيمة دون مجهود يذكر

---

(١) مجلة العربي عدد ٢٣٦ عبد المحسن صالح ص٢٦ ، سنة ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م ليس باللبن وحده يحيا الانسان .

وذلك لأنّ في كلّ ضغطة من شفتي الطفل تشتغل جيوش من الهرمونات ، وتنطلق آلاف النّبضات العصبية بين المخ والثدي (١) .

والله عزّ وجلّ قد ألهم هذا الطفل أن يتناول الثدي بيسر وسهولة كأنّ له بذلك تجربة ومعرفة .

روي عن ابن عباس وعلي وسعيد بن المسيب والضحّاك وكثير من الصحابة والتابعين أنّ المقصود في قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (٢) هما الثديان ، لأنّهما كالطريقين إلى حياة الطفل ورزقه . والنّجد العلو وجمعه نجود ، والثدي مرتفع عن الصدر فصحّ أن يسمى نجداً (٣) .

وفي فترة الرضاعة ينشأ بين الوليد وأمه من العلاقات الخاصة كالحنان والعطف والمودة ما يحدّد شخصية الطفل وسلوكه فيما بعد .

وهناك أبحاث علمية وتجارب عديدة أثبتت وجود صلة وارتباط بين عناية الأم بصغيرها والتصاقها به وبين نموّ عقله الصغير وتطوّره من جهة أخرى ، وخاصة في الفترة الحرجة مابين الولادة وسنّ الرابعة أو الخامسة (٤) .

وفوق ذلك فحليب الأم يتطوّر بحسب حاجة الطفل ومتطلّباته وتحمّل جسمه ، ولذا نجد رسول الله ﷺ يحثّ أسماء بنت أبي بكر الصديق على ارضاع طفلها عبد الله بن الزبير ويقول لها : (أرضعيه ولو بماء عينيك) (٥) .

---

(١) مجلة العربي - عبد المحسن صالح - ليس باللبن وحده يحيا الانسان .

(٢،٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ ص٧١٥٥ .

(٤) العلم ومشكلات الانسان المعاصر ص٤٣ .

(٥) الجامع الكبير جـ٢ ص٨٠٩ السيوطي - نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم٩٥ والرواية من مراسيل محمد بن كعب القرظي وهو ثقة .

ويمتاز حليب الأم على غيره بسهولة الهضم وباحتوائه على الحديد وفيتامين (ث) ، كما أنّ المواد البروتينية والكالسيوم والفوسفور متوفرة في حليب الأمّ بشكل أفضل من أنواع الحليب الأخرى [1].

---

(١) حضارة الإسلام ص٤٣ د. عادل سفنو سنة ١٣٧٩ هـ ، ١٩٧٧م .

خلافة الانسان في الأرض :

لقد أبرز القرآن الكريم القيمة الكبرى التي يعطيها التصوّر الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض ومكانه في الوجود .

فقد منحه الله عزّ وجلّ من الخصائص الفكرية والقوى الروحية ما لم يمنحه لسواه ليكون مؤهّلاً لحمل هذه الأمانة التي اختاره الله لها من بين مخلوقاته كافة. وخلافة الانسان في عمارة هذه الأرض بشقيها الروحي والمادي إنّما استحقّها بتلك الخصيصة الفذة وهي استعداده الفطري للتعليم .

وعندما يفصّل القرآن الكريم هذه المواهب والقوى الفكرية مشفوعة بحقائق تكوينه البشرية إنّما يهدف من ذلك أن يتفق الانسان في كلّ تصرّفاته وأنماط سلوكه مع ما فيه صلاح أمره ، ويتناسق مع أصول رسالته التي أسندت إليه في عمارة هذه الأرض .

وعندما أخبر الله عزّ وجلّ ملائكته بجعل الانسان خليفة في هذه الأرض قائم على إعمارها استغرب الملائكة ذلك وظنّوا أنه غير مؤهل لهذه الغاية الجليلة ، ولكن عندما أدركوا أنّ هذا الانسان زوّده الله عزّ وجلّ بسلاح العلم والمعرفة ووهبه من القدرات والطاقات المادية والروحية ما غفلوا عنه وقع الملائكة ساجدين بأمر الله تكريماً وإجلالاً .

والآيات القرآنية تصوّر ذلك التقدير والحوار وتعرضه بشكل ملفت للنظر حول طبيعة هذا المخلوق وأهميّته في هذا الوجود .

قال تعالى :﴿وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء

هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبؤهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(١) .

والخليفة في اللغة هو من يخلف غيره في أمر من الأمور .

يقال خلف فلاناً إذا كان خليفته ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾ (٢) والخليفة الذي يستخلف من قبله والجمع خلائف (٣) .

والخليفة اسم لكلّ من انتقل إليه تدبير أهل الأرض والنظر في مصالحهم . وفي المستخلف فيه قولان : أولهما الحكم بالعدل والحق فيكون المقصود بذلك الأنبياء وأتباعهم .

وثانيهما عمارة الأرض بالزرع والحصد والبناء وإجراء آلاتها فتكون الخلافة شاملة لجميع أفراد النوع الانساني (٤) .

قال الزجّاج (٥) جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله ، بقوله عزّ وجلّ : ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٦) .

---

(١) سورة البقرة ٣٠-٣٤ .

(٢) سورة الأعراف ١٤٢ .

(٣) لسان العرب لابن منظور جـ٩ ص٨٣ - دار بيروت للطباعة والنشر .

(٤) البحر المحيط جـ١ ص١٤٠ أبو حيّان الأندلسي .

(٥) لسان العرب جـ٩ ص٨٣ .

(٦) سورة ص٢٦ .

وقال الفراء (١) في قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ (٢). أي جعل أمة محمد خلائف كل الأمم . وقيل خلائف في الأرض يخلف بعضكم بعضا .

وذكر الطبري في تفسيره للخليفة من قولك خلف فلان فلانا في الأمر إذا قام مقامه (٣) .

والخلافة نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف (٤) . وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياؤه في الأرض .

قال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ (٥) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ويستخلف ربي قوما غيركم ﴾ (٦) .

والخلائف جمع خليفة قال تعالى : ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ (٧) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض ومن بعدهم ﴾ (٨) .

---

(١) لسان العرب جـ٩ ص٨٣ .

(٢) سورة الأنعام ١٦٥ .

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ١ ص٤٨٠ - الطبري دار المعارف بالقاهرة .

(٤) المفردات ص١٥٦ الراغب الأصفهاني .

(٥) سورة فاطر ٣٩ .

(٦) سورة هود ٥٧ .

(٧) سورة يونس ٧٣ .

(٨) سورة يونس ١٤ .

وليس بالضروري أن يكون المنوب عنه ميّتاً أو غير موجود (١).

قال تعالى : ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ (٢).

وقال عزّ وجل : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ (٣).

وخلّف فلاناً إذا جعل خليفته كاستخلفه (٤). وإذا لم يصرح بالمنوب عنه فمعناها جعل خليفته فلاناً أي جعله خليفة له ، أمّا إذا صرح بالمنوب عنه فتعني أنّ هذا الشخص خليفة لمن ذكر اسمه (٥).

والقرآن الكريم ذكر مجرد الاستخلاف دون إشارة إلى المستخلف له ، فمعنى ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قد جعلهم خلفاء له (٦).

قال تعالى : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ (٧).

وقال عزّ وجلّ : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ (٨) أي أنّ الله يعطي مكانكم لآخرين ، ويجعل آخرين خلفاء له مكانكم .

---

(١) تاج العروس جـ٦ ص٩٤ محمد مرتضى الزبيدي - دار مكتبة الحياة بيروت .

(٢) سورة الأعراف ١٥٠ .

(٣) سورة الزخرف ٦٠ .

(٤) تاج العروس جـ٦ ص٩٤ .

(٥) الحكومة الإسلامية ص٨٠ أبو الأعلى المودودي - المختار الإسلامي القاهرة .

(٦) الحكومة الإسلامية ص٨٠ .

(٧) سورة النور ٥٥ .

(٨) سورة الأنعام ١٣٣ .

ولقد صرّح القرآن الكريم بذكر المستخلف له ، بالإضافة إلى جعل الخليفة ، في مناسبات أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ (١) وقال عزّ وجلّ : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم عاد ﴾ (٢) وقال عزّ وجلّ : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (٣) .

ولكن حين لا تكون ثمّ إشارة صريحة إلى المستخلِف نجد أنفسنا مضطرين لقبول مستخلف له مقدر ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٤) .

وقوله عزّ وجل : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ (٥) . ﴿ إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٦) . ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ (٧) .

فلفظ خلفاء مضاف إلى لفظ الأرض بحيث يعني خلفاء الأرض ذاتها ، ولذا نجد صعوبة في أن نستخرج من هذه الآيات معنى الاستخلاف أي خلافة الأمم الماضية التي كانت متمكنة في الأرض (٨) .

---

(١) سورة الأعراف ٦٩ .

(٢) سورة الأعراف ٧٤ .

(٣) سورة يونس ١٤ .

(٤) سورة ص٢٦ .

(٥) سورة النمل ٦٢ .

(٦) سورة البقرة ٣٠ .

(٧) سورة الأنعام ١٦٥ .

(٨) الحكومة الإسلامية ص٨٠ .

وفي قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ لا يوجد ذكر لأقوام سابقين فيكون التقدير جاعل في الأرض نائباً لي يحقق مشيئتي (١) .

والذين جعلوا اعتراض الملائكة بقولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾ (٢) .

الذين جعلوا هذا الاعتراض بسبب ما كان من علمهم لأقوام سابقين من الجنّعاثوا في الأرض فساداً فظنّوا أنّ الانسان سيكون شبيهاً لهم ، نقول لهم إنّ هذا كلام بعيد ولا يخدم مدعاهم ، لأنه وما يدريهم أنّ هذا الانسان سيسلك نفس سلوك الأقوام السابقة المزعومة هذه .

وإن قالوا قاسوا الانسان على الجنّ نقول : إنّ طبيعة الانسان غير طبيعة الجن وليس من البعيد أن تكون الملائكة قد اطّلعت على اللوح المحفوظ فعلمت ما يؤول إليه حال هذا الانسان من فساد وسفك دماء .

فالانسان برغم ما أودعه الله عزّ وجلّ من طاقات وقدرات فإنّه ينحرف غالباً ويسفك الدماء .

والروايات الواردة في هذه المخلوقات السابقة لم يرد بشأنها نصّ من القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة يفهم منه أنّهم كانوا يحكمون الأرض (٣) .

وحتى لو قلنا إنّ هناك مخلوقات حكمت الأرض قبل الانسان فهي إنّما كانت تقوم بذلك باعتبار أنّها خلافة إلهية ونيابة عن الخالق .

---

(١) الحكومة الاسلامية ص٨١ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) تفسير المنار جـ١ ص٢٥٨ .

والانسان ليس أقلّ منها حظّاً في هذا الشأن .

وإذا كانت الخلافة هي محض خلافة لساكني الأرض الأقدمين فما الضرورة في إعلان ذلك أمام الملائكة ودعوتهم للسجود وطرد إبليس ولحوق اللعنة به .

وما الداعي لإظهار أفضلية الانسان عياناً أمام الجميع ، والنص على أنّه قد نفخ فيه من روحه وتمّ خلقه بيديه قال تعالى : ﴿ ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾(١).

وقال عزّ وجلّ : ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلّهم أجمعون . إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنّك رجيم﴾ (٢) .

فهذا يدلّ على مزيد تكريم وعناية لدور غاية في الأهمية لم يكن لأحد سواه ، وكلمة الروح هنا لا تعني مجرد إجراء الحياة الحيوانية في بدن آدم عليه السلام، لأنّ هذه الحياة أمر مشترك بين الانسان والحيوان فليس فيها مزيد فضل ولم ترد بهذا المعنى قطّ في القرآن الكريم (٣) .

ولذا كان المراد بالنفخ من الروح هو مزيّة تكريم للانسان بأن جعله مستعداً لمعالي الصفات وموالاة الحق بحيث إذا تعهّد هذا الاستعداد كانت منه صفات

---

(١) سورة السجدة ٩ .

(٢) سورة ص ٧٢-٧٧ .

(٣) آدم ص٢٢ البهي الخولي .

القوة والعزّة والرفعة ممّا يتم به التمكين والتأييد [1]. وهو بهذا استحقّ التكريم والاستخلاف في الأرض وجعل سواه كالمعونة له قال تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ [2].

وهذا الاستخلاف إنّما يكون للأنبياء والرسل وأتباعهم من البشر إن كان المراد بالخلافة من جهة الله سبحانه وتعالى بإجراء أحكامه بين الناس وسياسة خلقه لقصر استعداد المستخلف عليهم [3].

أمّا إذا كان استثمار الأرض واستغلالها أو خلافة من كان فيهم فتكون الخلافة عامّة في كلّ ما ميّز الله له الانسان على سائر المخلوقات [4]. والمعنى المراد من الخليفة هو آدم عليه السلام [5] باتفاق معظم أهل التأويل، ولكن يدخل في ذلك بنوه لأنه استغنى عن ذكرهم بذكره كما يستغني بذكر أبي القبيلة في قولك (مضر، وهاشم) [6].

واستخلاف الانسان في الأرض ليس لقصور في ذات الله تعالى، بل ليكون لكلّ شيء ما يناسبه، وحتى الذين يقولون بأنّ المراد من الخلافة هو أنّ آدم وذريته يخلف بعضهم بعضاً في هذه الأرض، أو أنّهم يخلفون من قبلهم، من

---

(١) آدم ص٢٢ البهي الخولي.

(٢) سورة البقرة ٣٩.

(٣) التفسير الوسيط ص١٢٢ أحمد السيد الكومي، محمد سيد طنطاوي - دار الجيل للطباعة.

(٤) تفسير المنار جـ١ ص١٥٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٢٤١ القرطبي.

(٦) الكشاف جـ١ ص٢٧١.

الجنّ الذين سكنوا الأرض من قبل ، أو من الملائكة وإبليس الذين ذهبوا لحرب هؤلاء ، فلا يمنع رأيهم أن يكون الانسان فوق ذلك مكلّفاً بإقامة شرع الله في الأرض ، وإبراز مشيئة الخالق في إبداع وتكوين مخلوقاته ، وذلك بالكشف والتنقيب واستغلال كلّ ما في هذه الأرض من خيرات عميمة وكنوز دفينة ، بما وهبه الله عزّ وجلّ من الطاقات والاستعدادات مما يساعده على تحقيق ذلك .

خصائص الانسان الفكرية والجسدية :

وأوّل هذه المواهب والطاقات الممنوحة للانسان إنّما هو العلم والمعرفة ، ولذلك وقع الملائكة ساجدين عندما أدركوا أنّ آدم عليه السلام علم ما لم يعلموا .

فما هي هذه الخصيصة التي استحقّ الانسان من أجلها الاستخلاف في الأرض وكلّ هذا التكريم والإجلال ؟

لقد خصّ الله عزّ وجلّ كلّ نوع من المخلوقات بشيء محدود معيّن لا يتعدّاه، والملائكة كذلك كما أخبر عنهم القرآن الكريم ، منهم طوائف ولكلّ طائفة وظيفة محدودة . والنبات والجماد معروف بالنظر والاختبار أنّ لا علم لها ولا عمل . فكل حي من الأحياء الغيبيّة والمحسوسة له استعداد محدود وعلم محدود وعمل محدود ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حدّ لعلمه وإرادته ولا حصر لإحكامه وسننه ولا نهاية لأعماله وتصرفاته (١) .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص٢٥٩ .

فالحيوان يولد عالماً بالإلهام ، يلهم ما ينفعه وما يضره ، وتكمل له قواه في زمن قليل ، أمّا الانسان فإنّه يتصرف بشعوره وإحساسه تصرّفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات ، كما يرشده عقله ويهديه ، والانسان بهذا العقل الذي وهبه الله له يستغني عن كثير ممّا وهب للحيوان من خصائص بدنيّة، فهو يصنع كساءه للحرّ والبرد عن نفسه بما اخترعه من العجائب بدل الناب والمخلب .

وهو بهذه القوّة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ويتصرّف في هذا الكون بمجموعه تصرّفاً لا حدّ له بإذن الله ومشيئته (١) .

وظهرت آثار استخلاف الانسان في هذه الأرض بما نشاهده من عجائب الصنعة في المعدن والنبات والبر والبحر والهواء وعجائب تسلطه على الحيوانات وانتفاعه بها وتسخير قوى الطبيعة وسائر المخلوقات لمنفعته ، فإنّ الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى ، جعل للانسان مواهب أهّلته للخلافة في الأرض ليقيم فيها سنن الله . وبدائع الحكم ومنافع الأحكام والتعليم للانسان في الحياة الدنيا يكون بالتدريج قال تعالى : ﴿ ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (٢) .

ولكنّ المتبادر من تعليم آدم أنّه كان دفعة واحدة سواء بالفعل أو بالقوة ، وهذه القوة العلمية عامة في النوع الانساني كلّه ، ولا يلزم أن يعرف أبناؤه من أوّل يوم ، فيكفي في ثبوت هذه القوة له معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص٢٦٠،(وقول المفسّر لا حدّ له لا نوافقه عليه ، إلاّ إذا أراد بذلك الكثرة ، وهو مقيّد أيضا بإذن الله ومشيئته) .

(٢) سورة البقرة ١٥١ .

وتعليم آدم الأسماء كلّها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كلّ شيء في هذه الأرض وانتفاعه باستعمالها ، وعرض الأسماء على الملائكة وعدم معرفتهم الجواب، تصوير لمدى علم الملائكة المحدود في جانب معيّن من الجوانب قال تعالى على لسان الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ﴾ (١) .

وقيل إنّ الله عزّ وجلّ عندما خلق آدم علّمه بالفعل فأراه الأجناس التي خلقها وعلّمه أحوالها وما يتعلّق بها من المنافع الدينية والدنيوية ووهبه من أصول العلم ما يستحقّ لأجله أن يستخلف ، وبيّن له هذه المصالح المترتبة على استخلاف الإنسان في الأرض على سبيل الإجمال (٢) .

وقيل إنّ هذا التعليم والفهم كان لجميع الأشياء التي في جنة عدن ، فألهمه عزّ وجلّ وضع اسم لكلّ ما شاهده فيها من زروع وأشجار وثمار ، وهذا أمر طبيعي لأنّه ممّا يحتاج إليه آدم في حياته بينما لا تباشر الملائكة شيئاً من ذلك (٣) .وينكر هؤلاء النفر أنّ يكون التعليم للأشياء جميعاً ما كان موجوداً منها وما سيوجد ، ويقصرون ذلك على ما كان موجوداً في الجنة بحجة أنّ الملائكة ليست بحاجة إلى هذه الأشياء فاستغنت عن معرفتها .

ولكنّه من غير المعقول أن تكون هذه الملائكة الرائحة الغادية صباحاً ومساءً في الجنة لا تعلم شيئاً عن موجوداتها ، كما أنّ هذا التفسير لعلم آدم لا يجعله متعلّقاً باستخلافه في الأرض ولا يترتب عليه فائدة كبيرة ، ممّا دفعهم إلى القول

---

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) الكشاف جـ١ ص٢٧٨ .

(٣) قصص الأنبياء ص٥ عبد الوهاب النجار دار إحياء التراث العربي بيروت .

أنّ الإنسان إنّما اهتدى إلى إعمار هذه الأرض وزراعتها واستخراج خباياها والاستفادة من خواصّ الأشياء وطبائعها بسبب حاجته إلى ذلك في حياته على الأرض .

وبما أنّ الملائكة ليست بحاجة إلى مثل هذه الأمور لأنها أجسام نورانية لا تأكل ولا تشرب ، فلو استخلفت في الأرض لعجزت عن عمارتها ومعرفة أسرارها لأنّ حياتها لا تتعلق بذلك .

وروي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير أنّه علّمه الأشياء كلّها جليلها وحقيرها (١) .

وروي عن قتادة أنّه علمه أسماء الأجناس والأنواع وعرّفه منافعها، هذا كذا ويصلح لكذا .

واختار الطبري أنّه علّمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنّ الضمير في (عرضهم) يستعمل للعاقل (٢) .

وليس في ذلك ما يلزم، لأنّه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ، وعبّر عن الجميع بصيغة من يعقل من باب التغليب (٣) كما في قوله تعالى : ﴿ والله خلق كلّ دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ (٤) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٢٤١ القرطبي .

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ١ ص٤٨٥ الطبري .

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٧٤ ابن كثير .

(٤) سورة النور ٤٥ .

وقد يختصّ بعض البشر بملكات ومواهب أعلى من غيرهم ، وقد يختص الله عزّ وجلّ بعض البشر بنوع خاصّ من العلوم لا يمكن إدراكها إلاّ بالتعليم الإلهي كالأنبياء والرسل . فهذا التعليم غير مختصّ بما تحويه الطبيعة من ثروات وطاقات وما يستنبط من ذلك من منافع وصناعات وإنما يشمل معرفة الله بأسمائه وصفاته ، ولذلك نرى الألوسي يشير إلى هذا التعليم الكلي بقوله : والحق عندي ما عليه أهل الله تعالى ، وهو الذي يقتضيه منصب الخلافة الذي علمت ، أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية جوهرية أو عرضية ، ويقال لها أسماء الله تعالى عندهم باعتبار دلالتها عليه ويقول أيضا : وقيل خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصّها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالها (١) .

ولا نجد هذا في جميع الكائنات الأرضية غير الانسان . ومع هذا العلم فقد وهبه الله عزّ وجلّ الإرادة ، لأنّ العلم شيء سلبي والذي يجعله إيجابياً هو الإرادة ، والانسان هو أوسع المخلوقات علماً وأعلاها إرادة . ولذلك نراه يتصرف في الحادث الواحد بأكثر من أسلوب ، فإذا ظلم فإنه قد يعفو وقد ينتقم وقد يجبن أو يؤجل ، فهناك مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد تبعا لإرادة الانسان يستطيع القيام بها أمّا الحيوان فتصرفه واحد حيال الأمر الواحد مع أنّ مواقفه وتصرفاته ضئيلة محدودة .

---

(١) روح المعاني - الألوسي جـ١ ص٢٢٤ .

فالحيوان يتصرف وفقاً لغريزته ، أمّا الطبيعة فهي محكومة بمجموعة دقيقة من النواميس أو القوانين التي تنظّمها وتدبر أمرها على ما فيه المصلحة . قال تعالى:﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون ﴾ (١).

أمّا الانسان فتصرفه إرادي لا غريزي ولكن للغريزة أثر في توجيهه ، فقد يطاوعها وقد يهذّبها بإرادته ، ولا يعقل أن يكون هذا الانسان قد خلق لينتفع بالطبيعة ويشبع غرائزه ويتنعم في أرجاء الأرض فقط ، فالأكل والشرب ليس خلافة عن الله ، إنما إقامة شرع الله في الأرض وتنفيذ مشيئته هو المقصود الأهم من ذلك .

وفي قوله تعالى : ﴿ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ (٢) وقال عزّ وجلّ : ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون ﴾ (٣).

وفي سورة الأنبياء : ﴿ فجعلهم جذاذا إلاّ كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾(٤).

ولذلك نجد الطبري يقول : " وذلك وإن كان جائزاً في الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية الأجناس المختلفة بـ (ها ، هنّ)

---

(١) سورة يس ٤ .

(٢) سورة الصافات ٩١ .

(٣) سورة الأنبياء ٦٣ .

(٤) سورة الأنبياء ٥٨ .

قلت الأولى بالتأويل أن تكون الأسماء التي علمها آدم هي أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة . وإن كان غير فاسد أن يكون دالاً على جميع أصناف الأمم ، وقرأ ابن مسعود (عرضهنّ) وقرأ أبيّ (ثم عرضها) (١) .

ويرى الشيخ محمد عبده أنّ هذا العلم هو ما تهيّأ في فطرة الانسان واستعداداته من علم لم تعلمه الملائكة ، تبين له وجه استحقاقيته للخلافة . والذي يتبادر إلى الفهم أنّ العلم كان بالتدريج لجنس الانسان ولكنّه كان دفعة واحدة إذا أريد آدم بشخصه سواء بالفعل أو بالقوة (٢) .

وسواء كان هذا التعليم في آن واحد أو آنات متعددة فإنه لا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم فيكفي ثبوت هذه القوة لهم في معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال (٣) . ولذا فعلينا أن نجتهد لتكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا مستعدين لها دون سائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا بإسناد هذه الخلافة إلينا . " وليس المراد بهذا التعليم أنه سبحانه وتعالى أعطاه درساً في الكيمياء والطبيعة والفلك ونحوها إنما المراد أنه بثّ فيه من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها عن بعض (٤) " .

وهذا الاستعداد الفطري شامل لجميع أفراد النوع الانساني قال تعالى :﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴾ (٥) .

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن .

(٢) القرآن وقضايا الانسان عائشة عبد الرحمن ص٤٨ .

(٣) القرآن وقضايا الانسان ص٤٩ .

(٤) سورة العلق ٥ .

والإنسان متميّز في إدراكه وتصوّراته فلا يستطيع الحيوان أن يربط بين الأشياء ويقارن بينها ويخرج بنتيجة تعود عليه بالفائدة أو يختزن في ذاكرته معلومات سابقة يستفيد منها في مرحلة لاحقة . فالإنسان والحيوان يشاهدان نفس الأشياء ، ولكنّ الحيوان لا يستطيع أن يكوّن فكرة عامة عمّا يشاهد ، بينما نجد الإنسان يمارس هذا الدور بسهولة ويحاول دائماً أن يستخلص من ذلك ما يعود عليه بالنفع والفائدة .

وإمكانات الإنسان وقدراته هائلة إذ يكفي لمعرفة تميّزها أن نذكر على سبيل المثال أنّ الحيوانات جميعاً لم تستطع أن تصنع سيفاً تحمي به نفسها بينما صنع الإنسان الأقمار الصناعية والقنابل الذرية (١) .

فقدرة الإنسان ليست في قوّة جسمه ، فالفيل والبعير أقوى منه ، ولا في طول عمره فالحيّة والسلحفاة أطول عمراً منه ، ولا بزينته فالطاووس جميل مزيّن، ولا بعنصره فإبليس بزعمه من عنصر أفضل (٢) ، وإنّما استحقّ ذلك لعلمه الذي وهبه الله له ولقدرته على أن يعبد الله ويعمر أرضه وفق ما قضت به سنّة الله وحكمته .

قال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ (٤) .

---

(١) الرسول ص٦ سعيد حوى . دار الكتب العلمية ، دمشق ، بيروت .

(٢) تفصيل النشأتين ص٣٥٠ الأصفهاني / المطبعة العربية حلب .

(٣) سورة هود ٦١ .

(٤) سورة النور ٥٥ .

ففي ذلك إشارة إلى تولّي الإنسان أموراً لا يصلح لها إلاّ هو كما نبّه إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّي أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١) .

ولقد خصّ الله عزّ وجلّ الإنسان بملكة البيان ليعبّر بذلك عمّا يجول في فكره وتصوّره ليسهل تفاهمه مع بني جنسه ، ولنقل هذه المعاني والأفكار من شخص إلى آخر ، قال تعالى: ﴿ الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان ﴾ (٢) وهو كذلك متميّز باستعداده الخُلقي فهو على استعداد ليكون من أهل الخير أو من أهل الشر ، كما يستطيع أن يميّز بين القيم المختلفة من الغلّ والبخل والحسد إلى التسامح والكرم والتواضع وبالتالي كان استعداده الخلقي سمة بارزة تميّزه عن أي مخلوق آخر .

وهذه الطاقات والمواهب إذا وجّهت للقيام بأمر الله فإنّها تنطلق في طريقها الصاعد نحو الكمال ، وإذا تركت أمر الله وأعرضت عنه فإنّ ذلك يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الهابطة . وقد وصف الله عزّ وجلّ هذا النوع من البشر الذي يعرض عن شرع الله ولا يسعفه النظر في ملكوت السماوات والأرض إلى طاعة ربّه وخالقه ويتبع شهواته ونزواته بأحطّ الأوصاف الحيوانية، ونزّله منزلة البهائم، قال تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة الرحمن ١ – ٤ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٩ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ مثل الذين حمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ (٣) .

وتتحدّث الآيات الكريمة عن أبي الإنسانية الأول عندما ضعفت إرادته ولم يلتزم بأمر الله، ليكون ذلك درساً لذريّته من بعده ، كي لا ينقادوا وراء الأوهام والسراب الذي يحرفهم عن طاعة الله ، فإنّهم لن يحصدوا عندها إلاّ الندم والخسران .

فعندما أكل آدم وزوجه من الشجرة وأدركا أنّهما ارتكبا ما نهى الله عنه ، بادرا بالتوبة وطلب المغفرة ، وفي هذا تنبيه إلى خصائص الإنسان الكامنة لمزاولة اختصاصه في الخلافة والعودة إلى الله والإنابة إليه كلّما غفل أو سهى عن اتباع منهج الله وأوامره ، وكتب على آدم وذريته أن يستقرّوا في الأرض ويمكّنوا فيها ويستمتعوا فيها إلى حين عودتهم إلى دار الخلود . قال تعالى : ﴿وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين .قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين ﴾ (٤).

---

(١) سورة محمد ١٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٦ .

(٣) سورة الجمعة ٥ .

(٤) سورة الأعراف ٢٢ - ٢٤ .

فهذه النظرة الكريمة للإنسان تفرّد بها الإسلام من بين سائر الأديان والعقائد الأخرى ، فخلافة الإنسان لله تكشف عن إنسانية الإسلام الشاملة ونظرته الإيجابية للكون ، وعلاقة الإنسان به ، كما تفتح أمام الإنسان باب العلم والمعرفة والارتقاء بغير حدود، وعلى المسلم واجب إزالة كلّ العوائق والموانع التي تقف في طريق خلافته في الأرض لينعم البشر جميعا بالأمن والدعة والسرور والسكينة ، لكي تثمر الحضارة الإنسانية ثماراً طيبة تجني أكلها البشرية جمعاء في رعاية العقل والبدن والفكر والوجدان . وفي إزالة كلّ أسباب التأخر والاضطهاد والظلم المتفشية في عصرنا الحاضر .

والإسلام هو المبدأ الوحيد الذي يستطيع حلّ معضلات الحياة ويخلق توازناً تاما في المجتمع أساسه العدل والإنصاف .

الأمانة وصلتها بالخلافة :

إنّ الذي يلقي الضوء على المعنى المراد من استخلاف الإنسان في الأرض وعمارته لها، ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (١) .

والأمانة هنا هي طاعة الله عزّ وجلّ على القول الراجح .

قال الواحدي :معنى الأمانة في قول جميع المفسرين الطاعة والفرائض التي يتعلّق بأدائها الثواب وتضييعها العقاب (٢). وقال القرطبي إنّها تعمّ جميع وظائف

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

(٢) فتح القدير جـ٤ ص٣٦٨ الشوكاني .

الدين على الصحيح من الأقوال ونسب هذا القول إلى الجمهور (١) .

ولقد وردت في الأمانة أقوال مختلفة كلّها تعود إلى المعنى الأول وهو طاعة الله عزّ وجلّ .

فروي عن ابن مسعود أنّها أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، وعن أبيّ بن كعب ائتمان المرأة على فرجها ، وعن أبي الدرداء الغسل من الجنابة ، وعن السدي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل ، وهي كلّها راجعة إلى الطاعة وامتثال أوامر الله عزّ وجلّ واجتناب نواهيه (٢) .

وذهب البيضاوي إلى أنّ المراد بالأمانة العقل والتكليف، وإباؤهنّ هو الإباء الطبيعي الذي هو عدم القابلية والاستعداد (٣) .

واختار هذا أيضاً الراغب الأصفهاني حيث قال: إنّ العقل يتحصل به معرفة التوحيد وبه تجري العدالة وتعلّم حروف التهجّي ، وكلّ ما في طوق البشر وفعل ما في طوقهم من الجميل ، وبالعقل فضل الإنسان على كثير ممن خلق الله (٤) .

وأخذت بهذا الرأي بنت الشاطئ حيث قالت : إنّ الأمانة في مثل هذا السياق اختصاص متميّز يتصدّى لجملة الإنسان فالمراد به مطلق الانقياد الاختياري في المخلوقات (٥) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ٨ ص٥٣٣٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٨ ص٥٣٣٦ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٥٦٤ البيضاوي دار الفكر - بيروت .

(٤) المفردات ص٢٥ .

(٥) القرآن وقضايا الإنسان ص٦٧ .

واستدلّت بأنّ الأمانة هنا مفردة مميّزة بالتعريف ، وعندما يأتي ذكر الأمانات الدينية فإنها تأتي في سياق يجمعها مع أداء الفرائض قال تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ (٢) .

أمّا الأمانة هنا في الآية فبالإضافة إلى إفرادها وتمييزها بالتعريف ، قد جاء الخطاب لعموم الإنسان المؤمن وغير المؤمن . وذهب إلى هذا أيضاً بعض العلماء المحدثين ، فقالوا إنّ الأمانة هنا هي مطلق الانقياد الاختياري في المخلوقات (٣) .

وحريّة الاختيار هذه أو مطلق الانقياد الاختياري هو الأصل في قبول الأمانة ، فلولا هذه المقدرة والاستعداد لما استطاع الإنسان القيام بحمل الأمانة الثقيل وأدائه .

وقَبِل الإنسان الأمانة لأنه لم يكن في السماوات والأرض والجبال مخلوق لديه القدرة على قبول هذا الوضع .

فالإنسان هو المخلوق القادر على القيام بهذه الأمانة وإن قصّر البعض أحياناً في القيام بأعبائها .

---

(١) سورة المؤمنون ٨ – ٩ .

(٢) سورة المعارج ٣٤ – ٣٦ .

(٣) قاموس قرآني ص١٦٨ حسن محمد موسى ، الحكومة الإسلامية ص٨٤ المودودي .

(٤) إرشاد العقل السليم جـ٧ ص١١٨ أبو السعود .

وعلى هذا فيكون معنى الأمانة هنا مؤكّداً لمعنى الخلافة الوارد في سورة البقرة، فأنتم أيّها الملائكة لستم مهيّئين للقيام بدور الخلافة ، كما أنّ السماوات والأرض والجبال لم يكن لديها الاستعداد والمقدرة للقيام بهذا الدور كذلك .

وعندما قبل الإنسان القيام بهذه الأمانة وهي الابتلاء بتبعة التكليف وحريّة الإرادة ، فقد قبلها جاهلاً بثقلها وأخطارها وأهميتها حتى أنّ السماوات والأرض والجبال على عظمها لو كان لها عقل وتفكير وعُرضت عليها لأشفقت من حملها ، ولكنّ الإنسان تحمّل هذه المسئولية ، وفي هذا تنبيه وتأكيد على وجوب المحافظة عليها وعدم التفريط فيها (١) .

وهو ظلوم عندما تعدّى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنّه تعدّى تلك الحدود ومعه عقله الذي يهديه إلى العلم بها فلم يستعمله ، ولتركه ما يسعده مع تمكّنه من أدائها (٢) .

ووصف الإنسان بالظلم ليس لأنه لا تناط به معرفة الحدود ، وإنّما لأنه تعدّى أو قصّر ، فهو الكائن الوحيد الذي يوصف بالعدل والمعرفة كما يوصف بالظلم والجهل (٣) .

ولقد اختُلف في المعنى المقصود بحمل الإنسان للأمانة ، فذكر أبو إسحق أنّ الحمل هنا بمعنى الخيانة وأنّ المقصود بذلك الكفّار وأهل النفاق أمّا الأنبياء

---

(١) إرشاد العقل السليم جـ٧ ص١١٨ أبو السعود .

(٢) تفسير النسفي جـ٣ ص٣١٨ .

(٣) الإنسان في القرآن ص٤٤ عباس العقّاد / دار الكتاب العربي - بيروت .

فلا يوصفون بالظلم والجهل (١). واستدلّ على رأيه بأنّ الله عزّ وجلّ سمّى الإثم حملاً بقوله تعالى: ﴿ وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ (٢).
وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ (٣).
وذهب الحسن وسعيد بن جبير إلى أنّ الحمل بمعنى الالتزام بحقّها، وهو تعبير عن قبولها لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة (٤).
وهي عظيمة الشأن بحيث لو كلّفت الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة بمراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبَيْن قبولها وأشفقن منها. وصرف الكلام عن سننه وتصوير المفروض بصورة المحقّق روماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (٥).
ومن هذا نرى أنّ الأصوب في حمل الإنسان للأمانة إنّما هو الالتزام بحقّها، وهذا الالتزام لم يكن ظلماً وجهلاً وإنّما الظلم والجهل في التقصير فيها وعدم أدائها.
وعندما التزمها الإنسان كان هو الأقوى والأقدر على ذلك من السماوات والأرض والجبال بحسب استعداداته العقلية والفطرية، وفي ذلك مزيد اهتمام بطاعة الله، وأنّ الإنسان هو وحده المختار لإقامة سنة الله في هذه الأرض فعليه القيام بدوره خير قيام.

---

(١) لسان العرب جـ١١ ص١٧٥.
(٢) سورة العنكبوت ١٣.
(٣) سورة العنكبوت ١٢.
(٤) إرشاد العقل السليم جـ٧ ص١١٨.
(٥) إرشاد العقل السليم جـ٧ ص١١٨، النسفي جـ٣ ص٣١٨.

بطلان النظريات المعاصرة التي تبحث في طبيعة الإنسان :

الإنسان في نظر الإسلام روح وجسد ، ولكنّهما يشكّلان كياناً واحداً ، فليس هناك عمل معيّن مستقلّ غير مرتبط ببقيّة أعمال الإنسان . فالنشاط الروحي والعقلي والجسمي إنّما يصدر عن كيان الإنسان الواحد ، ولكلّ جانب تأثير على بقية الجوانب الأخرى ولا ينبغي أن تطغى إحدى هذه الجوانب على غيرها، فلا يصحّ أن يكون الاهتمام بالجسد على حساب القيم والأشواق الروحية . فكلّ ما يصيب الإنسان من اضطراب أو أزمات إنّما يرجع إلى الاهتمام بجانب منها على حساب الآخر . ولقد كشف الإسلام للإنسان عن حقيقة تكوينه وأفسح له الطريق إلى تحقيق رغباته ولكن دعاه إلى الاتّزان وعدم تجاوز الحدود التي لو تعدّاها لاختلّ كيانه واضطرب .

فالإسلام لا يقرّ الماديّة المفرطة ولا الروحانية المفرطة ،ويعمل على التوفيق بينهما في تناسق وتوازن .

ولقد ألغى الإسلام الفكرة القديمة التي تقول بأنّ الجسد سجن للروح واعتبرهما في الحقيقة متكاملان ويرتبط كلّ منهما بالآخر (١) . ولكنّ لكل منهما مجاله الخاصّ به في النشاط الذي يلتقي بالآخر ليؤدي في مجموعه إلى الغاية المتكاملة . فليس في الإسلام روحانية خاصة وإنّما هناك إنسان من جماع ذلك كلّه ممتزج في كيان واحد . بينما نجد الإنسان في نظر الحضارة الغربية وليد قوى اجتماعية واقتصادية وبيولوجية تحدّد دوره في الأرض دون أن يشعر هو بنفسه على الإطلاق (٢) .

---

(١) الإنسان عقل وقلب – أنور الجندي ص٥ – دار حواء القاهرة .

(٢) أخطار الفلسفة المادية ص٩ أنور الجندي – دار الاعتصام – القاهرة .

ويترتب على هذه النظرة فقدان كرامة الإنسان ، كما يترتب على ذلك إنكار حريّة الإرادة التي منحها ا لله له وقدرته على تغيير الواقع . ولا يخفى أنّ هذا جهل بحقيقة الإنسان ، ولا يعني مطلقاً أنّ تقدم هؤلاء في العلوم يلزمه تقدمهم في نظرتهم إلى الحياة والإنسان .

وهذه النظرية الجبرية للإنسان تجعله سلبياً مستسلماً للواقع متنازلاً عن حقه الطبيعي في الاختيار ، وبذلك يكون الإنسان حسب مدّعاهم متطابقاً مع الحتمية المادية الكاذبة . بينما نجد الإسلام لا يقرّ هذا المفهوم السلبي ويؤمن بالإرادة والقدرة على الاختيار لتغيير الواقع (١) .

وهذا هو السرّ في دعوة الإسلام الملحّة لبناء الإرادة قال تعالى : ﴿ فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ﴾ (٢) .

قال ابن تيمية في تفسير هذه الآية : " إنّ للعبد قدرة ومشيئة وعمل فهو مختار مريد والجبريّون هم المعطّلون للتكاليف الشرعية " .

وقال عبد الغني النابلسي عنهم " إنّهم زنادقة هذه الأمة " (٣) .

والذين أقاموا حضارتهم على الروح فقط كالمجتمعات المسيحية قاسوا كثيراً من الجمود والاضطراب ممّا دفعهم إلى أن يسيروا في الاتجاه المادي المضادّ فانفصلوا عن الدين وعكفوا على اللذات، بينما نجد أنّ الإسلام حافظ على توازن المجتمع من الانحراف ، فهو عندما يعمل لتزكية نفسه والقربة من ا لله يعمل

---

(١) أخطار الفلسفة المادية ص١٣ .

(٢) سورة الإسراء ١٥ .

(٣) أخطار الفلسفة المادية ص١٦ .

أيضاً من أجل تعمير الحياة . قال عليه الصلاة والسلام : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) .

وفي رواية : (اعمل عمل امرئ يظنّ أن لن يموت أبداً واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا) (١) .

وهذه النظرية الفريدة المتميزة لها أثرها البنّاء على الحياة بأكملها ، فليس هناك قسم لقيصر وقسم لله ، وليست هناك أمور لتنظيم الأرض لا دخل لله فيها ، أو أمور من هذا الدين لا صلة لها بشؤون الأرض (٢) .

والنظرة الإسلامية ترتفع بالإنسان عن النظرات الهابطة التي تصوّره حيواناً من الحيوانات ، كما ذهبت إلى ذلك الحضارة الغربية بنظرياتها المختلفة (لداروين وفرويد وماركس) ومن لفّ لفّهم وتخبّطوا ذات اليمين وذات الشمال ، فمرّة هو حيوان تفصله هوة سحيقة عن باقي الحيوانات ، ومرّة تفصله هوة صغيرة جدّاً . وهذا ما دفعهم إلى أن يبدّلوا أفكارهم كما يبدّلون أحذيتهم إلاّ أنّ الأصل فيها واحد وهو الجلد ، ولكنّنا نجدهم تحت ضغط الحقائق العلمية يضطرّون إلى إدراك طبيعة الإنسان المتميّزة ويفردون الكتب لتفصيل تلك الحقائق والبحث عن تلك الحلقات المفقودة بين الإنسان والحيوان على زعمهم .

فيذكر (جوليان هكسلي) في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) إنّ الإنسان حيوان خاصّ له خصائص لم تلاحظ في أيّ حيوان آخر . وإنّ هذه الخصائص

---

(١) الجامع الصغير جـ١ ص٤٨ ونسبه للبيهقي في السنن ورمز له بالضعف .

(٢) منهج الفنّ الإسلامي - محمد قطب ص٤٩ - ٦٥ .

آثاراً متميّزة كذلك ، وأوّل هذه الخصائص وأعظمها وضوحاً هي قدرته على التفكير التصوّري ، وكان من نتيجة هذه الخصيصة نموّ التقاليد الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية ، وبالتالي تحسين ما لدى الإنسان من معدّات وآلات وتقاليد موروثة (١) .

والسيادة البيولوجية خاصية من خواصّ الإنسان الفذّة ولذا نجد علم الحياة يضع الإنسان في مركز مماثل لما أنعم الله به عليه كسيّد المخلوقات كما تصرّح بذلك الأديان (٢) .

والإنسان في أبحاثهم لا مثيل له أيضاً كنوع مسيطر واحد ، وجميع سلالات الإنسان تعود إلى هذا النوع ، بينما نجد الأنواع الأخرى انقسمت إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة وتجمّعت في أجناس وفصائل عديدة .

ولا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوّره ، ونستطيع القول إنّ الإنسان متميّز منفرد في بنيانه الجسدي ، كما هو متميّز جدّاً في تكوينه العقلي،فالحيوانات والحشرات عاجزة عن معرفة طرق جديدة لتحسين ظروف حياتها . وما نشاهده من غرائز مختلفة فهو ثابت تقريباً في حدود ضيّقة بينما نجد الإنسان في سلوكه حرّاً نسبياً في الأخذ والعطاء على حدّ سواء .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة - سيد قطب - ص٣٩ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة .

(٢) المصدر السابق .

والإنسان هو الكائن الوحيد الذي لابدّ له أن يتعرّض للصراع النفسي ، والخواصّ النفسية التي امتاز بها الإنسان يمكن إرجاعها إلى واحدة أو أكثر من الخواص التالية :

١) مقدرته على التفكير الخاصّ والعام .

٢) التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

٣) وجود الوحدات الاجتماعية المتمسّكة بتقاليدها وثقافتها ، هذا بالإضافة إلى أوجه نشاط الإنسان المختلفة من علوم رياضية إلى مشاعر إنسانية وأحاسيس شعورية ، وقد يكون لتفرّد الإنسان نتائج أخرى لم نتوصّل إليها بعد، وبذلك يكون الإنسان فريداً أكثر ممّا نعرف الآن (١).

ويصرّح العالم الأمريكي (كريسي مورسون) في كتابه (العلم يدعو إلى الإيمان) " أنّ القائلين بنظرية التطوّر لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة " (٢). فهذه الوحدات تتحكّم في نقل صفات الأصل إلى الفرع ، كما تقرّر الشكل والملامح العامة في كلّ حيوان بما فيه الإنسان . ومن الملاحظ أنّ جميع الكائنات الحية منفصل بعضها عن بعض بهوّات كثيفة لا يمكن عبورها، حتى الحيوانات المتقاربة منها فإنها تنفصل عن بعضها البعض بفوارق عديدة(٣).

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ص٤١ .

(٢) العلم يدعو للإيمان ص١٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص١٤٢ .

وإذا كان الإنسان يشبه بعض الحيوانات من حيث الهيكل فإنّ هذا ليس بالضرورة برهاناً على أنّه من أصل واحد معها ، لأنّ ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكّر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتمّ عن طريق التطوّر المادي ودون قصد إبداعي (١) .

ومع اتقاد أصحاب هذه النظريات بتلك الفوارق العظيمة بين الإنسان والحيوان ، إلاّ أنّهم يعتقدون أنّ هذا الفرق هو فرق صورة ورتبة ، ويقصدون بالعقل الدماغ والشبكة العصبية الدقيقة المعقّدة التي لها من الخواصّ ما يفوق الجمل العصبية في الحيوانات الأخرى ، ولكنّ إيمان هؤلاء بالقوى الروحية وربط هذا الإنسان في تميّزه وتكريمه بالخالق عزّ وجلّ ما زال مهزوزاً ، لأنّ الظروف الدينية المشوّهة التي عاصروها في بلادهم أثّرت في نظرتهم الإجمالية للدين بشكل عام . وإن كانوا قد بدأوا يعترفون أنّ بعض البشر مزوّدون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس ، كما أنّ عملية الإدراك والتذكّر حقيقة علمية وإن كنّا نجهل الطريقة التي تتمّ بها .

ويعلّق أحد العلماء المشتغلين بأبحاث علوم الإنسان على هذا بقوله : " إنّ هذه الحقائق تدخلنا رويداً رويداً إلى عالم الدين " (٢) .

وما زالت معلومات الإنسان بسيطة عن كيفية الخلق والحياة ولكنّه بلغ درجة من التقدم تكفي لأن يوقن أنّ ا لله عزّ وجلّ قد منح الإنسان قبساً من نور، وهذا يرفعه من مرتبة الغريزة إلى درجة القدرة على التفكير،ولا يمكن أن يتولّد

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٤٢ .

(٢) الإسلام وشكلات الحضارة ص٤٣ سيد قطب .

هذا عن اتحاد لمجموعة عناصر أو ارتقاء في تشكيل عدد من الـذرّات أو الجزيئات (١) .

فالإنسان وإن استطاع أن يدرك عناصر تكوين الخلية إلاّ أنه لم يستطع أن يدرك سرّ الحياة فيها (٢) .

ويمكننا أن نصل من كلّ ذلك إلى أنّ الإنسان مخلوق متميّز بصفاته الجسدية والنفسية ، وأنّ الذين انساقوا وراء نظريات الغرب المختلفة ما حصدوا إلاّ الوهم والضياع ، وها هم أصحاب تلك النظريات يدركون أنّ فهمهم للإنسان كان خاطئاً وأنّ الشبه بين المخلوقات لا يستدعي تطوّرها فوحدة الخلق إنّما تنمّ عن وحدة الخالق .

ولقد أصبح واضحاً عند أهل العلم أنّ (داروين) في نظرياته إنّما كان صاحب افتراض ، وهذا الافتراض لم يعد يقوى على مواجهة الحقائق العلمية التي أصبحت من المسلّمات الأولية .

والمؤمنون بهذه الأفكار إنّما يأخذون بها لا عن أدلة علمية ، إنّما كفر بالدين ، وفي سبيل البحث عن أيّ بديل لنظرية الخلق . وليس غريباً أن نجد شعوباً بدائية آمنت بمثل هذه الخرافات منذ زمن بعيد ، فقبائل (المايانيين) كانت تعتقد في القرن السادس قبل الميلاد بأنّ إله الأمطار قد خلق الإنسان من النهر إلى سمكة إلى إنسان (٣) .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ص٤٢ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص١٧٨ .

(٣) مذهب النشؤ والارتقاء في مواجهة الدين – منيرة علي الغاياتي ص ٨ – ٩ .

وهناك قبائل بدائية ترمز إلى أسلافها بنبات أو حيوان انحدرت منه ، وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان الفيلسوف اليوناني (أميد وقليس) يعلّم طلابه نظرية النشوء ، وهي أنّ الكائنات قد تكوّنت خلال سلسلة طويلة من عمليات المحاولة والخطأ .

ويعلقّ الدكتور (أما كسفير ولسون) في منشورات أكسفورد الطبية " أنّ نظرية النشوء لا تقلّ عن أيّ قصة خرافية بأغرب المخلوقات كالغيلان ، وكائنات نصفها رجل ونصفها فرس وأخرى لها رؤوس نسوة وأجساد طيور[1]، وأنّ كثيراً من العلماء يخشون المجاهرة بآرائهم لئلا يتّهموا بأنّهم متدينون سذج وبسطاء ، وبعض الأدلة التي ساقها أصحاب نظرية التطوّر قد ظهر زيفها حتى لأصحابها، فقد اعترف (آرثركيت) قائلاً: إنّنا كنّا نتوقع أن يكرّر الجنين الصفات المميّزة لأسلافه من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين في كلّ مراحل تكوينه خابت آمالنا " . ولقد اعترف بعض هؤلاء أنّ بعض رسومه لجنين الإنسان والحيوان كانت مزوّرة تزويراً محضاً ، وأنّ مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة . ولقد جاء ذلك في اعتراف قدمه الدكتور (هيجل) الألماني بعد أن افتُضِح أمره ، ولقد قال في اعترافه إنّه يعزيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعوّل عليهم في التجارب العلمية[2] .

---

(١) مذهب النشوء والارتقاء ص٩ – منيرة الغاياتي .

(٢) جواهر القرآن جـ٢ ص ٤٩ – ٥٠ – طنطاوي جوهري .

ولقد أعلن (اوستوف كلارك) أنّه لا توجد علامة واحدة واحدة تحمل على الاعتقاد بأنّ آيّاً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر عن غيره ، بل إنّ كلّ مرحلة لها وجودها المتميّز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة ، فلقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن (١) . ولقد اكتشف علم الحفريات جمجمة بشرية وعظام ساق في كينيا يعود إلى مليونين ونصف مليون عام ، وهذا يهدم النظرية من أساسها التي تبني أسسها في التطور على فترة لا تتجاوز مليون عام من الزمن (٢) .

في حين أنّ الاكتشاف الجديد يدلّ على أنّ الكائن البشري المنتصب القامة يسير على ساقين اثنتين لم يتطوّر من كائن أكثر بدائية ، ولم ينحدر من سلالة آدمية شبيهة بالقردة ولكنّه عاصر تلك السلالات منذ مليونين ونصف مليون عام (٣) .

كما تمّ العثور على هيكل عظمي بدون رأس لإنسان يجلس القرفصاء بداخل كتلة فحمية على عمق ٦٩٠ قدم من سطح الأرض وقدّر عُمر هذا الهيكل بأحد عشر مليوناً من السنين (٤) .

ويقول الدكتور (جوستاف جولبر) إنّ الحشرة التي ظهرت في أقدم العصور تنقلب من دودة إلى حشرة طائرة ولا تأثير لشيء عليها من الخارج ، والهوّة

---

(١) مذهب النشوء والارتقاء ص١٣ .

(٢) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٣٠ .

(٣) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٣٠ عالم الفكر ص١١ عدد٤ مجلد ٣ سنة ١٩٧٣م .

(٤) مجلة الأزهر ص١٣٧٠ فساد نظرية داروين - مصطفى الطير جـ٩ سنة ٤٨ نوفمبر ١٩٧٦ - ذو القعدة سنة ١٣٩٦هـ نقلاً عن جريدة الشعب المصرية تاريخ ١٩٥٨/٨/٥م .

العميقة بين كونها دودة وبين الحالة الثانية وهي كونها طائرة ،وهذه هوّة تضيّع فيها جميع النظريات الداروينية ، فالحشرة أثبتت عجز نظرية داروين عن تفسير غرائزها أو أسرار تقلّبها السريع من دودة إلى حشرة طائرة (١).

ويقول (أنتوني ستاندن) في كتابه (العلم بقرة مقدسة) إنه لأقرب إلى الحقيقة أن نقول إنّ جزءاً كبيراً من السلسلة في نظرية داروين مفقود ، وليس حلقة واحدة ، بل إنّنا نشكّ في وجود السلسلة ذاتها من أساسها (٢). وحتى ما وجدوه من بعض الحفريات وأسموه بإنسان (جاوة) وإنسان (بكين) فهي كلّها لا تعتبر أدلة صحيحة بالإضافة إلى أنّ ظروف اكتشافها نفسها غير مقنعة، وفي هذا يقول البروفوسور برانكو " إنّ علم الأحاثة لا يعرف للإنسان أسلافا " (٣).

ولا نريد أن نطيل في ذكر أقوال العلماء وأدلتهم في نقض هذه النظريات التي تنحرف بالإنسان عن طبيعته وفطرته وتسيء فهمه ، فالبحث واسع فيها،وهناك عشرات الكتب المؤلفة في هذا الموضوع وليس هنا مجاله (٤).

وتكفي هذه الإشارة السريعة لبيان أنّ بعض اتباع الشيطان الذين أساءوا فهم الدين، جعلوا سلاح العلم المزيّف مطية يقلبون به الحقائق ، ويترتّب على هذا القلب والتشويه لمفهوم الإنسان مبادئ استعمارية شاعت وتبنّاها أهلها ورفعوا

---

(١) جواهر القرآن جـ٢ ص٥٨ .

(٢) مذهب النشوء والارتقاء ص١٤ .

(٣) مذهب النشوء والارتقاء ص١٦ .

(٤) انظر الإنسان في القرآن . أضواء من القرآن على نشأة الإنسان ، التطوّر والإنسان ... الخ.

شعار البقاء للأصلح ، وأنّهم هم أصلح الأجناس وأرقاها ولذلك عليهم أن يستعمروا الشعوب وأن يستغلّوها (١) .

كما أدّى هذا الفساد في التصوّر للإنسان إلى سلسلة متوالية من التحلّل الفكري والخلقي والاجتماعي ، لأنّ هذه قد بُنيت وتفرّعت عن الإيمان بحيوانية الإنسان .

ويمكن القول إنّ هذه النظرية (التطور) تقع على رأس النظريات الباطلة التي ناصبت الإنسان العداء ، وعملت للقضاء على إنسانيته ، وبدأ الإنسان يبحث عن قوانينه وأنظمته في حياة الوحوش والبهائم بعد أن كان يتلقّاها من المصدر الأول إلهه العظيم ، ولقد حاول بعض أصحاب هذه النظرية أن يضيفوا عامل الهداية الرباني في كلّ ما تخيّلوه من عمليات التطور إرضاء لمشاعر الناس الدينية، وسايرهم في ذلك عدد لا بأس به من المسلمين ، ووافقوا أن يكون آدم عليه السلام قد تربّى في الطين جرثومة صغيرة ثم تطور إلى حيوانات رخوة وغير رخوة ثم استمرّ في تطوّره وتكيّفه مع البيئة حتى أصبح إنسانا .

والغريب أنّ بعض هؤلاء يعترفون في كتبهم بأنه يستحيل قبول نظرية التطور إلاّ بكثير من التزمت العلمي وتحكيم العاطفة على العقل (٢) . وينقلون أقوالاً مختلفة لعلماء الداروينية تنصّ على أنّ أمثل الحيوانات الفقارية التي تمثل في وجهة نظرهم أهمّ مجموعة في عالم الحيوان ، لم يتمكّن حتى الآن من تفسير

---

(١) سقوط نظرية داروين ص١٠ – أنور الجندي – دار الاعتصام .

(٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ص٤٧ – محمد علي يوسف – دار مكتبة الحياة بيروت .

تطوّرها تفسيراً كاملاً ، وكذلك جميع أنماط الزواحف والسلاحف ظهرت فجأة ويستحيل ربطها بأيّ سلف أرضي ، ونفس المشكلة تنطبق على الثدييات ولا يمكن للعلم ربط هذه الكائنات بأسلاف تطوّرت منها بالتدريج (١) .

والغريب أنّنا نجد نفس هذا الكاتب وفي كتابه نفسه الذي ينقل هذه الأقوال ، يردّ على الشيخ محمود شلتوت (٢) لإنكاره نظرية التطور بقوله : " أمّا أنّ نظرية التطور لم يقم عليها برهان ولا حسّ ففيه من الغلوّ ما لا يليق أن يصدر من رجل كالأستاذ شلتوت خاصّة ونظرية التطور تحظى بقبول جمهرة العلماء اليوم (٣) .

ولست أدري ما هو البرهان الذي أقامه، والردّ العلمي الذي جاء به على الشيخ ، وقد يأتي رجل آخر ويقول إنّه من الغلو أن لا نعترف بصدق الشيوعية أو البوذية خاصة وإنّنا نراها تحظى بقبول جمهرة العلماء اليوم .

وكأنّ الحق يعرف بالرجال ؟ ولكنّها فتنة الهزيمة النفسية التي جعلتهم يأخذون كلّ ما يصدر عن الغرب والشرق من غثّ وسمين ، ويحاولون أن يلووا عنق هذا الدين ويخضعوه لها ، ولا يبقى منه إلاّ الرتوش والمظهر بعد أن ينزعوا روحه وجوهره . فأين هذه النظريات الفاسدة في أصولها وفروعها من الحقيقة الإسلامية التي تصوّرها الآية الكريمة : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (٤).

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ص٤٨ - محمد علي يوسف - دار مكتبة الحياة بيروت .

(٢) انظر الفتاوى ص٤٠١ ، ص٤٠٣ - محمود شلتوت - دار شروق القاهرة .

(٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ص٥٤ - محمد علي يوسف - دار مكتبة الحياة بيروت .

(٤) سورة الإسراء ٧٠ .

وأين تقف تلك النظريات المادية البهيمة التي تقتل في كيان الإنسان كلّ أمل وطموح وتسدّ في وجهه منافذ الرحمة والرجاء في الخلاص . من تلك النظرة الإسلامية التي ولّدت في الإنسان إحساساً بأنّه مركز هذا الكون وأنّ كل شيء إنّما هو مسخّر لأجله ؟!. قال تعالى : ﴿ وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ﴾ (١). وقال عزّ وجلّ : ﴿ وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كلّ ما سألتموه ، وإن تعدّوا نعمة ا لله لا تحصوها ﴾ (٢) .

فسبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرّمه بالعقل وفضّله على العالمين .

---

(١) سورة الجاثية ١٣ .

(٢) سورة إبراهيم ٣٤ .

(الباب الثالث)

حياة الإنسان على الأرض

الفصل الأول : الاهتمام بالإنسان .

الفصل الثاني : علاقة الإنسان بالأرض .

الفصـل الأول

(الاهتمام بالإنســان)

هدف الشريعة تحقيق المصلحة :

لقد بيّن القرآن الكريم التوجيهات والإرشادات التي ينبغي للمسلم مراعاتها في نفسه وفي علاقاته مع غيره ، ليتمّ بذلك الحفاظ على الذات الإنسانية مكرّمة معزّزة محفوظة حقوقها .

ولقد اعتبر علماء الإسلام أنّ مقاصد الشريعة الأساسية ترجع إلى حفظ المصالح في الخلق وهي لا تعدو ثلاثة أقسام : الضروريات والحاجيات والتحسينيّات .

وإذا فقدت المقاصد الضرورية فإنّ مصالح الدنيا تضطرب وتفسد ، وفي الآخرة فوت النجاة والخسران المبين .

ولقد حفظ الشرع الإسلامي هذه الضروريات فأكّد ما يقيم أركانها ويثبّت قواعدها ويدفع عنها الاختلال المتوقّع فيها .

ومجموع هذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل (١) ، وهناك أمور حاجية يفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع المشقّة في الغالب، وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات .

أمّا الأمور التحسينية فهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات كإزالة النجاسة وأخذ الزينة والتقرّب بنوافل الخيرات ، وفي المعاملات منع بيع النجاسات وفضل الماء والكلأ وما سواهما . وهذه المقاصد متكاملة فيما بينها يتمّ بعضها بعضاً ،وهي مبنية على المصالح الضرورية التي هدفها سعادة الخلق في الدارين .

---

(١) الموافقات في أصول الأحكام جـ٢ ص٥ للشاطبي / محمد علي صبيح وأولاده القاهرة .

وتقدير هذه المصالح إنّما يرجع إلى الله عزّ وجلّ وليس إلى أهواء العباد (١) .
قال تعالى : ﴿ ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ﴾ (٢) .
ولقد قرّر الفخر الرازي أنّ الأصل في المنافع الإذن وفي المضارّ المنع ، ولكنّ هذا يتوجه بحسب الأحوال والأشخاص والأوقات (٣) .
والمصالح الدنيوية تعرف بالتجارب والعادات والظنون المعتبرات ، ومن أراد أن يعرف المناسبات في المصالح والمفاسد راجحها من مرجوحها فليعرض ذلك على عقله بتقدير أنّ الشارع لم يَرِد به ثم يبني عليه الأحكام ، فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك . إلاّ التعبدات التي لم يوقف على مصالحها أو مفاسدها (٤) .
ويرى الشاطبي أنّ العادة تحيل استقلال العقول في الدنيا بإدراك مصالحها ومفاسدها على التفصيل .
اللهم إلاّ أن يريد الرازي أنّ المعرفة بها تحصل بالتجارب وغيرها بعد وضع الشرع لأصولها .
وهذا احتراز ذكيّ من الشاطبي لأنّنا لو أخذنا رأي الإمام الرازي على علاّته لكان في الإمكان وضع تشريع يعادل التشريع السماوي اعتماداً على العقل

---

(١) الموافقات في أصول الأحكام جـ٢ ص٥ للشاطبي محمد علي صبيح وأولاده القاهرة .

(٢) سورة المؤمنون ٧١ .

(٣) الموافقات ص٢٩ .

(٤) الموافقات ص٣٣ .

البشري . ومعلوم أنّ العقل البشري عاجز يتفاوت في تقديره للأمور من حيث خيرها وشرّها .

أمّا أن يكون إدراك العقول لحكمها بعد وضع الشرع لها فهذا هو الصحيح المعتبر ، لأنّ الله عزّ وجلّ يشرع لنا كلّ ما فيه الصلاح والخير ويحرّم علينا المفاسد والرذائل .

حرمة الإنسان :

الإنسان مخلوق مكرّم محترم الذات حيّاً وميتا ، قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (١) .

فهذا التكريم للإنسان لم يرد في أيّ دين أوملة كما ورد في القرآن الكريم . ولقد اعتبرت النفس الإنسانية مصونة لا يحقّ الاعتداء عليها إلاّ إذا اعتدت على نفسها أو على غيرها من الناس وأصبح وجودها في المجتمع جرثومة فساد لا بدّ من تطهيرها . قال ﷺ : (لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيّب الزاني والمارق من الدين التارك للجماعة) (٢) .

وقد وقف عبد الله بن عمر بجانب الكعبة وقال : (ما أعظم حرمتك عند الله عزّ وجلّ ولكنّ حرمة الإنسان المؤمن عند الله أعظم منك) (٣) .

---

(١) سورة الإسراء ٧٠ .

(٢) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص١٨ ، سنن الترمذي جـ٤ ص١٩ في البرّ والصلة رقم ٢١٥٩ وقال حديث حسن وأخرجه أبوداود وابن ماجه وانظر جامع الأصول ٦٥٣/٦ .

(٣) سنن الترمذي جـ٤ ص٣٧١ رقم٢٠٣٣ في البرّ والصلة ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ، وقال : إسناده حسن ، الترغيب والترهيب للمنذري ١٧٧/٣ .

ولذلك اعتبر الاعتداء على النفس الإنسانية الواحدة اعتداء على البشرية جمعاء قال تعالى : ﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعا ﴾ (١). وقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرّم ا لله إلاّ بالحق ﴾ (٢).

ولقد روي عن ابن عباس (أنّ من قتل نفساً واحدة بغير حق فحرمتها مثل من قتل الناس جميعاً ومن ترك قتل نفس واحدة مخافة ا لله عزّ وجلّ واستحياها فهو مثل استحياء الناس جميعا) (٣).

وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع ا لله إله آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم ا لله إلاّ بالحق ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ (٥).

وروي عن ابن مسعود أنّ رسول ا لله ﷺ قال : (أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء) (٦).

---

(١) سورة المائدة ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء ٣٣ .

(٣) تفسير الطبري جـ١٠ ص٢٣١ .

(٤) سورة الفرقان ٦٨ .

(٥) سورة الأنعام ١٥١ .

(٦) فتح الباري جـ١٠ ص١٨٧ (المتن) وأخرجه مسلم في القسامة رقم ١٦٧٨ .

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً فإذا أصاب دماً حراماً بلّح) (١) ، - والمعنق خفيف الظهر في سيره والعنق ضرب من المشي ، وبلّح أعيا وانقطع ، يقال بلّح الفرس إذا انقطع جريه - .

وقال ﷺ : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم) (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم لكبّهم الله في النار) (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله) (٤) .

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يرى أنّه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً ووافقه على ذلك زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، والحسن وقتادة والضحّاك (٥) .

وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : (أيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) (٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن رقم ٤٢٧٠ وصحّحه ابن حبّان رقم٥١ والحاكم ٣٥١/٤ .

(٢) الجامع الصحيح جـ٤ ص١٦ الترمذي .

(٣) الجامع الصحيح جـ٤ ص١٧ الترمذي .

(٤) الجامع الصغير جـ٢ ص١٦٥ السيوطي ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص٨٧٤ .

(٥) محاسن التأويل جـ٥ ص١٤٥٤ .

(٦) فتح الباري جـ٣ ص٥٧٣ (المتن) ابن حجر العسقلاني . المطبعة السلفية القاهرة .

ولقد حرّم الإنسان كلّ ما يلحق الأذى بالإنسان في نفسه كالانتحار وشرب المخدرات والمسكرات والانقطاع عن الزواج والامتناع عن الأكل والشرب بدعوى التقشّف والانهماك وراء اللذات والمتع والشهوات ، كما حرّم إلحاق الضرر بالمجتمع الإنساني عامّة كالزنا والربا ووأد البنات وقذف المحصنات الغافلات والتولي يوم الزحف والركون إلى الكفار وغيرها كثير .

كما جاء الإسلام ليربط الإنسان با لله وحده وليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد . ومعلوم أنّ احترام الإسلام للإنسان والتشديد على منع أيّ عدوان عليه حسّاً أو معنى إنّما يهدف أن تعيش الأسرة الإنسانية هادئة مستقرة ، ولا يخفى ما نسمعه ونقرأه يوميّاً عن الجرائم المنتشرة هنا وهناك وازديادها بشكل مستمر، وذلك لشعور أصحاب النفوس المريضة بأنّ الرادع ضعيف ولانعدام التربية الذاتية للنفس الإنسانية .

أخذ الزينة :

لقد اعتبر الإسلام المحافظة على جسد الإنسان قويّاً سليماً مطلباً أساسياً من مطالبه وأهدافه ، وعلّمه الوسائل التي عليه الاستعانة بها في تحقيق هذا المطلب، وراعى احتياجاته البدنية والنفسية وعلّمه من العادات الاجتماعية في المأكل والمشرب والملبس ما يحقّق له الحفاظ على بدنه ، كما يصون له كرامته واستعلاءه على غيره من المخلوقات .

قال تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأعراف ٣١ .

ففي الآية إرشاد إلى التجمّل في اللباس وخاصّة في أوقات الصلاة إضافة إلى وجوب ستر العورة ، وقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنّه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له : يا ابن رسول الله ﷺ لم تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إنّ الله جميل يحبّ الجمال فأتجمّل لربي وهو يقول : ﴿خذوا زينتكم عند كلّ مسجد﴾ (١) .

وقد كان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويقولون لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها ، فأمر الله عزّ وجلّ بستر العورة وحثّ على أن يأخذ الرجل أحسن هيئته في الصلاة (٢) .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية أنّه قال كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة .والزينة، اللباس وهي ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيّد البز والمتاع (٣) .

وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي والضحّاك وابن جبير .

وقد وضّحت السنة النبوية الشريفة المعنى المقصود من هذه الآية ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه وخاصّة في أيام الأعياد ووقت استقباله الوفود .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : قال رسول الله ﷺ : (من اغتسل يوم الجمعة ومسّ من الطيب إن كان له ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه

---

(١) روح المعاني جـ١٨ ص١٠٩ الألوسي .

(٢) الكشاف جـ٢ ص٧٦ الزمخشري .

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٢١٠ وابن كثير .

السكينة حتى يأتي المسجد ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً وأنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينهما) (١) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن سلام أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة : (ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته) (٢) .

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب أنمار فقال : (ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته) (٣) .

وعن سلمان الفارسي أنّ رسول الله ﷺ قال : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهّر ما استطاع من الطهر ويدّهن من دهنه أو يمسّ من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلّي ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلّم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمع الأخرى) . قال أبو هريرة وزيادة ثلاثة أيام فإنّ الحسنة فإنّ الحسنة بعشر أمثالها (٤) .

---

(١) مسند أحمد جـ٥ ص٤٢٠ . الترغيب والترهيب جـ١ ص٤٨٦ المنذري .

(٢) الجامع الصغير جـ٢ ص١٤٧ السيوطي . سنن ابن ماجه جـ١ ص٣٤٨ .

(٣) الجامع الصغير جـ٢ ص١٤٧ السيوطي . مجمع الزوائد جـ٢ ص١٧٤ والطبراني في الكبير وإسناده حسن .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٠٨/٢باب الدهن للجمعة وأخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو رقم ١١١٣ وهو موافق لما جاء في صحيح مسلم برقم ٨٤٦ وانظر مجمع الزوائد جـ٢ ص١٧٤ ، والتاج الجامع للأصول ٢٨٠/١ ، شرح السنة ٢٢٩/٤ .

وكما يستحبّ التطيّب والزينة في الجمع والأعياد ، فإنّه يستحبّ في كلّ حال، فكان عليه الصلاة والسلام يلبس أحسن ملابسه ويكتحل ويتطيّب ويأمر بتقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط ، والتخليل بين أصابع القدمين واليدين في الوضوء ، وغسل البراجم والاستنشاق والمضمضة وإزالة الأذى بالماء وعدم التغوّط أو البول في الماء الراكد أو على قارعة الطريق .

وعندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن خبر السماء قال : (يجيء أحدكم يسأل عن خبر السماء وأظفاره كأنّها أظفار الطير يجتمع فيها الخباثة والتفث) (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً شعثاً قد تفرّق شعره فقال : أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره (٢) ، ورأى رجلاً آخر عليه ثياب وسخة فقال : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه) (٣) .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (إذا وسّع الله عليكم فوسّعوا على أنفسكم... الخ الحديث) (٤) .

وروي عن علي بن الحسين رضي الله عنهم أنّه كان يلبس كساء بخمسين ديناراً يلبسه في الشتاء فإذا كان الصيف تصدّق به أو باعه وتصدّق بثمنه وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع مصر ممسقين (مصبوغين) (٥) وكان يقول : ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ (٦).

---

(١) أحكام القرآن جـ١ ص٦٦ الجصّاص .

(٢،٣) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص١٦٦ سنن أبي داود جـ٤ ص٥١ باب اللباس .

(٤) التاج الجامع للأصول جـ١ ص١٥٦ موطأ مالك ٢/٩١١ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن القرطبي جـ٤ ص٢٦٣٢ .

(٦) سورة الأعراف ٣٢ .

وقد اشترى تميم الداري حلّة بألف درهم كان يصلّي فيها (١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما لّما بعثه عليّ كرّم الله وجهه إلى الخوارج أنّه لبس أفضل ثيابه وتطيب بأطيب طيبه وركب أحسن مراكبه وخرج إليهم فقالوا يا ابن عباس كيف تلبس لباس الجبابرة وتركب مراكبهم فتلا قوله تعالى : ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (٢).

وقد روي أنّ رسول الله ﷺ خرج وعليه رداء قيمته ألف درهم(٣).

وكان عليه الصلاة والسلام يلبس ما فيه نفع البدن ووقايته فلم يكن يطيل أكمامه ويوسعها لئلا تمنعه خفّة الحركة (٤).

وكان ذيل قميصه وإزاره لا يجاوز الكعبين لئلا يتأذّى في مشيه بهما . كما لم يكن يقصّر عن عضلة ساقيه فتتأذّى بالحرّ والبرد ولم تكن عمامته بالكبيرة التي تثقل الرأس ولا بالصغيرة التي لا تقي حرّاً ولا برداً وكان يدخلها تحت حنكه لوقاية العنق من الحرّ والبرد (٥).

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يرتدي رداء قيمته أربعمائة دينار ، وكان محمد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي جـ٤ ص٢٦٣٢ .

(٢) روح المعاني للألوسي جـ٨ ص١١١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) زاد المعاد جـ١ ص١٤١ .

(٥) المصدر السابق .

صاحبه يلبس الثياب النفيسة ويقول : (إنّ لي نساء وجواري فأزيّن نفسي كي لا ينظرن إلى غيري) (١) .

وقيل لبعضهم أليس عمر رضي الله عنه كان يلبس قميصاً عليه كذا رقعة فقال : بلى فعل ذلك لحكمة وهي أنّه أمير المؤمنين وعمّاله يقتدون به وربّما لا يكون لهم مال فيأخذون من مال المسلمين (٢) .

ولقد كره أبو الفرج الجوزي لبس المرقعات : وقال إنّ بعض السلف كان يلبس ذلك ضرورة . وأنه يتضمّن كتمان نعم الله على العبد وفيه تشبّه بالرهبان .

وكان السلف الصالح يتخيّرون أجود الثياب في الأعياد وعند لقاء الإخوان ولم يكن تخيّر الأجود قبيحاً .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : (إنّ الله طيّب يحب الطيّب، نظيف يحبّ النظافة، كريم يحبّ الكرم، جواد يحب الجود، فنظّفوا أفنيتكم وساحاتكم ولا تشبّهوا باليهود يجمعون الأكباء في دورهم) (٣) وقال عزّ وجلّ في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ ﴾ (٤) .

فقد رويت عدة روايات في هذا الابتلاء منها مارواه طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية أنّه قال :

ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد، والخمسة التي في الرأس هي

---

(١) روح المعاني للألوسي جـ٨ ص١١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطب النبوي ص٢١٦ والأكباء هي الزبالة . سنن الترمذي جـ٣ ص١٦٢ .

(٤) سورة البقرة ١٢٤ .

قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك . والتي في الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء(١).

ولا شكّ أنّ مراعاة هذه الأمور هو منتهى الاهتمام بالنظافة والحثّ عليها، ولا يخفى أنّ الاهتمام بالنظافة والزينة مطلب فطري تميل إليه النفس الإنسانية كما هو مطلب شرعي . وكثيراً ما يكون الاهتمام بالمظهر العام باعثاً على احترام صاحبه،ولا يصحّ أن يبقى المسلم رثّ الثياب شعث الهيئة فإنّ ا لله جميل يحبّ الجمال وهو يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وأثر النعمة كما يكون بالإنفاق على الغير والتصدّق، يكون بالإنفاق على النفس وتلبية مطالبها الحسيّة والمعنوية .

إباحة الطيبات :

قال ا لله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير ا لله فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إنّ ا لله غفور رحيم ﴾ (١) .

قال الإمام ابن تيمية إنّ الطيبات التي أباحها ا لله تعالى هي المطاعم النافعة للعقول والأخلاق ، والخبائث هي الضارّة في العقول والأخلاق . وأباح الطيبات للمتقين يستعينون بها على عبادة ربهم وحرّم عليهم الخبائث التي

---

(١) أحكام القرآن جـ١ ص٦٦ الجصّاص ، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٢٧٢/١ وقال : أخرجه عبد الرازق الصنعاني وابن جرير الطبري والحاكم وصحّحه والبيهقي في سننه .

(٢) سورة البقرة ١٧٢ .

تضرّهم . وأمرهم مع أكل الطيبات بالشكر ، فمن أكلها ولم يشكر ا لله عزّ وجلّ فقد ترك ما أمر ا لله به واستحقّ العقوبة . ومن حرّمها كالرهبان فقد تعدّى حدود ا لله واستحقّ العقوبة (١) .

وفي الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ قال : (إنّ ا لله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها) (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) (٣) .

ولقد جاء ذكر إباحة الطيبات وتحريم الخبائث في مقام المنّة على هذه الأمة التي رفع ا لله عنها الإصر والأغلال قال تعالى : ﴿ الذين يتّبعون الرسول النّبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ (٤) .

فكلّ ما هو طيب نافع في البدن والدين فقد أحلّه ا لله عزّ وجلّ وأباحه وكلّ ما هو ضارّ خبيث في البدن والدين فقد حرّمه ا لله عزّ وجلّ (٥) .

ولقد ذكر في المعنى المقصود بالطيبات والخبائث أقوال مختلفة (٦) منها أنّ الطيبات بمعنى الحلال فيكون المعنى يحلّ لهم الحلال .

---

(١) محاسن التأويل جـ٣ ص٣٧٧ القاسمي .

(٢) صحيح مسلم شرح النووي جـ١٧ ص٥١ الذكر والدعاء (المتن) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ٩ ص٥٨٢ باب الطاعم الشاكر (المتن) .

(٤) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ابن كثير جـ٢ ص٢٥٤ .

(٦) زاد المسير في علم التفسير جـ٣ ص٢٧٣ .

وقيل الطيبات هي ما كانت العرب تستطيبه في الجاهلية ، وقيل الشحوم التي حرّمت على بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ﴾ (١) .

وقيل ما كانت العرب تحرّمه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (٢) .

واختلف في المعنى المراد من الخبائث على أقوال كذلك منها :

إنّ الخبائث هي المحرمات فيكون المعنى أي يحرّم عليهم الحرام .

وآخر يرى أنها ما كانت العرب تستخبثه كالحيات والحشرات .

ورأي يقول إنّ المقصود بالخبائث ما كانوا يستحلّونه في الجاهلية من الميتة والدم والخنزير .

والأظهر أنّ المقصود بالخبائث هي ما كان المشركون يبيحونه في الجاهلية كالدم والميتة والخنزير ، أمّا الطيبات فهي ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة .

ولم تعتبر الشريعة الإسلامية ما كانت العرب تستخبثه أو تستطيبه إلاّ فيما لم يرد فيه نص .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .

(٢) البحيرة هي الناقة مشقوقة الأذن ، وإذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثاً بحروا أذنها وحرّموا ذبحها أو ركوبها ، أمّا السائبة فهي الناقة التي تسيّب بنذر يكون على صاحبها إن وصل دياره سالما ، والحام هو البعير الذي قد حمى ظهره لأنه أنتج عشرة إناث من صلبه وهذا من فعل العرب في الجاهلية (تفسير القرطبي ٦/٣٣٦) .

أمّا التحليل والتحريم فقد كان مخالفاً في الغالب لما كان جارياً في عادة المشركين ، وترك غير ذلك على أصله بحسب عرف الناس وعاداتهم .

ولقد أمر الله عباده المؤمنين بالأكل من الطيبات كما أمر عباده المرسلين قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا .. ﴾(٢).

وجاء الخطاب لعامة الناس كذلك : ﴿ يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً ﴾ (٣) فالذي أحلّه الله عزّ وجلّ هو الطيب والذي حرّمه هو الخبيث .

ومن الخبائث المحرمة التي لا يخفى ضررها وقذرها ، الميتة، لأنها قد تكون ماتت لمرض ألّم بها فأفسد تركيبها أو قد وصلها التعفّن والفساد بعد الموت (٤) .

كما أنّ عدم خروج الدم بطريق الذبح ، معناه احتقان الدم وتسرّبه إلى الأنسجة ، والدم يحتوي على كمية كبيرة من حامض البوليك وهو مادة سامة تضرّ بالصحة فيما لو استعملت كغذاء (٥) .

والخنزير يتغذّى على النجاسات والقاذورات ويظهر أنّ الذي يتغذى من لحم الخنزير ويعايش الخنزير قد يكتسب بعض طباعه (٦) . ويدلّ على ذلك قول

---

(١) سورة البقرة ١٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون ٥١ .

(٣) سورة البقرة ١٦٨ .

(٤) تفسير آيات الأحكام جـ١ ص٤٧ محمد علي السايس / محمد علي صبيح القاهرة .

(٥) الإسلام يتحدّى ص١٣٢ .

(٦) تفسير آيات الأحكام للسايس جـ١ ص٤٧ ، محاسن التأويل جـ٣ ص٣٨٢ .

رسول الله ﷺ : (الكبر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفداديـن أهل الوبـر والسكينة في أهل الغنم) (١) .

ولقد ذكر البقاعي أنّ من أراد أن يحافظ على نفسه من الأخلاق الذميمة فلا يأكل لحم الخنزير لما فيه من الأوصاف الذميمة (٢) .

هذا بالإضافة إلى ضرره المتيقّن ، فقد ثبت أنّه يسبّب أمراضاً عديدة لاحتوائه على كمية كبيرة من حامض البوليك من بين سائر الحيوانات الأخرى على الأرض .

أمّا باقي الحيوانات غير الخنزير،فهي تفرز هذه المادة السامّة بمساعدة الكليتين، والخنزير لا يتمكّن من إخراج هذه المادة الضارة إلاّ بنسبة٢٪، والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه،ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل والذين يأكلون لحمه هم الآخرون يشكون من آلام المفاصل والروماتيزم وما يماثلها من الأمراض،فالذي يأكل لحم الخنزير إنّما يأكل معه كمية كبيرة من بوله (٣) .

ولا يخفى أنّ هذه الأضرار ليست العلة في التحريم ، ولكنّها حكمة من الحكم الربانية في تحريم الخبائث المضرّة بالإنسان في دنياه وآخرته .

فمن ذلك أنّ الذبح لغير الله يعود الشأن في تحريمه إلى صيانة الدين والتوحيد، وجعل الصلة بين الإنسان وكلّ ما في هذه الدنيا طريق السعادة إلى الآخرة بالتزام أمر الله وابتاع شرع الله ، وإن غابت عن الأذهان أحياناً الحكمة المرتبة على هذه الأوامر والنواهي .

---

(١) فتح الباري جـ٦ ص٣٥٠ باب خير مال المسلم (المتن) .

(٢) محاسن التأويل جـ٣ ص٣٨٢ .

(٣) الإسلام يتحدى ص١٣٢ .

ولا يخفى أنّ الخمور بأنواعها تقع على رأس الخبائث المحرمة ، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنت منتهون ﴾ (١) ولقد تأكّد بالوسائل العلمية أنّ الخمر يتسبّب في أمراض مختلفة لبدن الإنسان بالإضافة إلى ما يثيره بين الناس من العداوة والبغضاء عند غياب الإدراك والشعور .

فمن هذه الأضرار أنّ الغشاء المخاطي للمعدة يحتقن ويخرج مقداراً من المخاط ليحمي نفسه ، وتعمل غدد المعدة وقواها الدافعة إلى إخراج ما وصل إليها بأسرع ما يكون وهذا ما تفعله عند تناول السموم (٢) .

ولقد صرّح (د. ملر الاسكتلندي) أنّ الخمر لا يشفي شيئاً ، كما صرّح أحد الأطباء أمام الجمعية الطبية البريطانية : (لا أعلم مرضاً قط شفي بالخمر)(٣) .

ولقد ردّ أحد الأطباء على الذين يدعون أنّ الخمر الصافي لا يضرّ وإنّما يضر الخمر المخلوط بقوله : إنّ الخمر الصافي سمّ صافي (٤) .

---

(١) سورة المائدة ٩٠ - ٩١ .

(٢) جواهر القرآن جـ١ ص١٩٧ طنطاوي جوهري .

(٣) المصدر السابق .

(٤) جواهر القرآن جـ١ ص١٩٧ .

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الخمر فنهاه أن يصنعها ، فقال : إنني أصنعها للدواء فقال ﷺ : (إنه ليس بدواء ولكنه داء) (١) .

وقال ﷺ : (إنّ الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم) (٢) وقد صدق خبر رسول الله ﷺ بأنّها داء وليست دواء .

فقد ثبت بالإحصاءات العلمية أنّ ثلث المدمنين مصابون بالتهاب مزمن في المعدة ، وأنّ سمّ الخمر يسري في بدن الإنسان إلى جميع أعضائه ، وقد يصل إلى الجنين في بطن أمه فيصيبه بتشوّهات وآلام قد ترافقه مدى العمر (٣) .

وإذا بلغت كثافة الكحول في دم الشارب ٣جم في اللتر فإنّه يصاب بعوارض حادة كالقيء وبرودة الأطراف وسرعة النبض وتوسّع حدقة العين والغيبوبة .

وإذا دامت نسبة هذه العوارض اثنتا عشرة ساعة فما فوق ، فعندها تكون نسبة الوفاة عالية جدّاً (٤) .

ولقد اتفق الأطباء على أنّ الخمر أحد المسبّبات لأمراض قرحة المعدة وتشمّع الكبد والتهابات الكلى ومرض الصرع والهذيان الارتعاشي والشلل الجزئي في الأطراف والتهابات الأعصاب ، هذا عدى من الصدمات النفسية التي جعلت

---

(١) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص١٤١ ،سنن الترمذي جـ٤ ص٣٩٨ ،سنن ابن ماجه جـ٢ ص١١٥٧ .

(٢) سبل السلام جـ٤ ص٣٦ ، مجمع الزوائد جـ٥ ص٨٦ .

(٣) الخمر ومضارها على الجسم والعقل ص١٦ د. نبيل الطويل . المكتب الإسلامي .

(٤) الخمر ومضارها على الجسم والعقل ص١٦ د . نبيل الطويل المكتب الإسلامي .

عيادات الأطباء النفسانيين تستقبل آلافاً عديدة من كبار الشخصيات في تلك المجتمعات الغربية التي أوشكت على الانحلال (١) .

ولقد قرّر خمسون طبيباً في أحد المؤتمرات أنّ المسكرات لا تروي الظمأ بل تزيده ، وأنّها توقف النموّ العقلي والجسدي في الأولاد . وأنها تفضي إلى إضعاف قوة الإرادة فتؤدي إلى ارتكاب الموبقات وتجرّ إلى الفقر والشقاء وأنها تضرّ في ذات الرئة والحمى التيفودية أكثر مّما تنفع .

وأنها تغيّر مادة القلب والأوعية الدموية ، وأنها تسرّع بحويصلات الجسم إلى الهرم ، وأنّها تطيل مدة الشفاء في الأمراض التي تفتك بالصحة وتعجّل بالوفاة في الأمراض المستعصية وأنّها تهيّء الظروف المناسبة للأمراض المعدية والتدرّن والسلّ ولضربة الشمس في أيام الحرّ (٢) .

وأنّ الامتناع عن تناولها يفضي إلى صحة وسعادة الجنس البشري .

ولقد ذكر معهد الإحصاء القومي الفرنسي سنة ١٩٥٦م أنّ عدد الذين ماتوا بتأثير الخمر في فرنسا بلغ (١٧,٤٠٠) فرنسي بينما لم يمت بالسل سوى (١٢,٠٠٠) إنسان . وقبل خمس سنوات كانت ضحايا السلّ أكثر من ضحايا الخمر (٣) .

وبالتالي يمكننا أن نقول إنّ الإكثار من الخمر معناه الإكثار من الضحايا ، وحتى القليل منه مهما بلغ فهو حرام وسيكون طريقاً إلى الإدمان عليه . وقد قال ﷺ : (ما أسكر كثيره فقليله حرام) (٤) .

---

(١) الخمر ومضارها على الجسم والعقل د. نبيل الطويل . (٢) محاسن التأويل جـ٣ ص٥٥٤ .

(٣) الفتاوى ص٣٧٢ محمود شلتوت .

(٤) مسند أحمد جـ٢ ص١٦٧ .

تلبية حاجات الإنسان والحفاظ على صحته :

قال تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يطوف الرجل بالنهار والنساء بالليل، فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا ويواروا سوآتهم ويلبسوا كامل ثيابهم من جيد البز والمتاع (٢) .

وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أمروا بلبس الثياب وأخذ الزينة ، والشملة من الزينة (٣) .

ورجّح ابن كثير أنّ المراد بالزينة ما يستر العورة لأنّ المستفاد من (خذوا) الوجوب ولباس التجمل مسنون (٤) .

والزينة اسم جامع لكلّ شيء يتزيّن به وقد نقل الرازي إجماع المفسرين على أنّ المراد بالزينة لبس الثياب التي تستر العورة (٥) .

ولقد قال البعض إنّ المستفاد من قوله تعالى (وكلوا واشربوا) الإباحة فيكون المعطوف عليه وهو أخذ الزينة مباح كذلك وتكون الزينة هي مطلق التجمل في لبس الثياب .

---

(١) سورة الأعراف ٣١ - ٣٢ .

(٢) شرح صحيح مسلم جـ١٨ ص١٦٤ .

(٣) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٥٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٢١١ ابن كثير .

(٥) التفسير الكبير جـ١٤ ص٦١ الفخر الرازي دار الكتب العلمية طهران .

ولكن أجيب عن ذلك بأنّه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف تركه في المعطوف عليه (١) .

وقال بعض العلماء إنّ الآية لّما فهم منها وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة، فهم منها في الجملة حسن التزيّن بلبس ما فيه حسن وجمال .

قال (الكيا الهراسي) : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كلّ مسجد ، للفضل الذي يتعلّق به ، تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه (٢) .

وقال ابن الفرس : استدلّ مالك بالآية على كراهية الصلاة في مساجد القبائل بغير أردية (٣) .

وذهب قوم من السلف إلى أنّه لا ينبغي للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين(٤) . وقال ابن كثير : ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمّل عند الصلاة ولا سيّما يوم الجمعة والأعياد والطيب والسواك من الزينة (٥) .

وقد أرشد عليه الصلاة والسلام إلى أنّ أفضل اللباس البياض، فقال عليه الصلاة والسلام : (البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم) (٦) .

---

(١) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٦٠ .

(٢) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٦٢ .

(٣،٤) المصدر السابق .

(٥) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٢١٠ ابن كثير .

(٦) الجامع الصحيح جـ٣ ص٣٢٠ الترمذي .

(وإنّ من خير أكحالكم الأثمد يجلو البصر وينبت الشعر) (١).

وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : (عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفّنوا فيها موتاكم) (٢).

وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أنّ تميما الداري اشترى رداء بألف درهم، وكان يصلي فيه .

ووجه ارتباط الأكل والشرب بالزينة هو أنّ المشركين كانوا يحرّمون عليهم الودك (٣) ما أقاموا في الموسم .

وروى ابن عامر أنهم كانوا لا يأكلون في حجهم دسما ويقتصرون على القوت فنزلت هذه الآية (٤).

والإسراف في الأكل والشرب هو مجاوزة الحدّ ، ويتأتّى ذلك بوجهين الأول الإنفاق في المعاصي كالزنا والخمر وغيرها .

والثاني مجاوزة الحدّ في الإنفاق المباح ، لأنّ من له مال يسير وأنفقه على ضيافة أو طيب ، وعياله بحاجة إليه فهذا من الإسراف الدّاخل في النهي .

قال رسول الله ﷺ : (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده) (٥).

---

(١) الجامع الصحيح جـ٤ ص٢٣٤ الترمذي .

(٢) الجامع الصحيح جـ٥ ص١١٧ .

(٣) الودك هو دسم اللحم (مختار الصحيح) .

(٤) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٦٣ .

(٥) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص١٦٣ ، مسند أحمد جـ١٠ ص٦٦٩٤ ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص١١٩٢ .

وأخرج البخاري عن ابن عباس : (كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة) (١) .

ولقد ذكر الزمخشري أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال : لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيئا . فالعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان . فقال له : قد جمع ا لله الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب . فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة . قال وما هي ؟ قال : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كلّ بدن ما عوّدته (٢) .

فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً (٣) .

ولقد روى الخلاّل عن عائشة (الأزم دواء والمعدة داء وعوّدوا بدنا ما اعتاد)(٤). والأزم أي الحمية،وهو لغة إمساك الأسنان بعضها على بعض .

ولقد ذكر البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي ا لله عنه أنّ رسول ا لله ﷺ قال : (المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحّت المعدة صحّت العروق بالصحة وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم) (٥) .

---

(١) فتح الباري جـ١٠ ص٢٥٢ (المتن) .

(٢) لم يثبت رفعه إلى رسول الله ﷺ ، وإنّما هو من قول طبيب العرب الحارث بن كلدة .

(٣) الكشاف جـ٢ ص٧٦ .

(٤) زاد المسير في علم التفسير جـ٣ ص١٨٦ . ابن الجوزي . المكتب الإسلامي بيروت . ولم يصحّ رفعه كذلك .

(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ٥ ص٨٦ ،كتاب الطب،وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى البابلتي وهو ضعيف .

وينبّه القرآن الكريم إلى أنّ أمر التحليل والتحريم بيد الله وحده ، وأنّ الله عزّ وجلّ أباح الطيبات لعباده في الحياة الدنيا وهي لهم خالصة يوم القيامة .

قال المهايمي : زعموا أنّ التزيّن والتلذّذ ينافيان التذلّل الذي هو العبادة، فيحرمان معها فأعلمهم أنّه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته، ليتزيّنوا بها حال العبادة، فعل العبيد عند الملوك، ولا ينافي ذلك تذلّلهم له .

والطيبات من الرزق التي خلقها الله لعباده لا تنافي العبادة بل تقتضي تطييب قلوب عباده ليشكروه وليكون ذلك داعية لهم إلى عبادته سبحانه وتعالى (١) .

وقال الرازي : يدخل تحت لفظ الزينة جميع أنواع التزيّن ومنه تنظيف البدن وأنواع الحلي للنساء . ويدخل تحت الطيبات كلّ ما يستلذّ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات (٢) ولقد منع رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون من التبتّل ولو أذن له في ذلك لاختصى (٣) .

ولقد أنكرت الآية الكريمة على من حرّم الطيبات على نفسه أو حرّمه على غيره ، ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتّان مع وجود السبيل إليه من حلّه ، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البرّ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة (٤) .

فالحكمة في خلق الأشياء واستعمالها على سبيل المنفعة لا الضرر .

---

(١) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٧ .

(٢) التفسير الكبير جـ١٤ ص٦٢ الفخر الرازي .

(٣) الطبقات الكبرى جـ٣ ص٣٩٤ ابن سعد .

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ١٢ ص٣٩٥ دار المعارف القاهرة .

وذكر المهايمي : أنّ هذه اللذات الدنيوية خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة وإن شاركهم الكفار في لذّات الدنيا ، لئلا يكون حرمانهم منها ملجئاً لهم إلى الإيمان ، وهي خالصة للمؤمنين وحدهم يوم القيامة (١) .

ولقد ذكر ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وغيرهم أنّ الإقتار هو منع حقّ الله تعالى والإسراف هو الإنفاق في معصية الله وإن قلّ .

وذكر الطبري أنّ الإسراف هو التعدّي والمغالاة في أحكام الله بالتحليل والتحريم، فالله عزّ وجلّ يحبّ أن يُحلّ ما أحلّ ويحرّم ما حرّم ، ولكن لا يعني إباحة الطيبات الانغماس فيها متابعة شهوات النفس وإن كانت مباحة (٢) .

فقد أخرج الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب أنّ رسول الله ﷺ قال : (ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) (٣) .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن الحسن عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : (إنّ من الإسراف أن تأكل كلّ ما اشتهيت) (٤) .

ويدلّ على هذا قول عمر بن الخطاب : (كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كلّ ما اشتهى) (٥) .

---

(١) محاسن التأويل جـ٧ ص٢٦٧٢ .

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ١٢ ص٣٩٥ .

(٣) الترغيب والترهيب جـ٣ ص١٣٦ . سنن الترمذي جـ٤ ص٥٩٠ .

(٤) الترغيب والترهيب جـ٣ ص١٤١ . سنن ابن ماجه جـ٢ ص١١١٢ وبه ضعف .

(٥) زاد المسير في علم التفسير جـ٦ ص١٠٢ .

ولقد ذكر العلماء في الإسراف أقوالاً مختلفة منها أنّ الإسراف هو تحريم ما أحلّ الله ، ذكره ابن عباس .

وذكر ابن زيد أنّ الإسراف هو في أكل الحرام .

وذكر الزجّاج أنّ الإسراف هو الأكل من الحلال فوق الحاجة (١) .

ويفسّر هذه الآية ما جاء في قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (٢) .

أي لم يجاوزوا الحدّ في الإنفاق ولم يضيّقوا على أنفسهم بل متوسّطين وخير الأمور أوسطها (٣) .

وقال الزمخشري وصفهم الله تعالى بالقصد الذي هو بين الغلوّ والتقصير (٤) .

وبمثله أمر الرسول ﷺ : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط ﴾ (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنّ النبي ﷺ قال : (من فقه الرجل رفقه في معيشته) (٦) .

وكان عليه الصلاة والسلام يأكل طعامه بالأرض ويلعق يده ويلبس الغليظ ويركب الحمار (٧) .

---

(١) زاد المسير في علم التفسير حـ٣ ص١٨٦ .

(٢) سورة الفرقان ٦٧ .

(٣) محاسن التأويل ص٤٥٩ .

(٤) الكشاف حـ٣ ص١٠٠ .

(٥) سورة الإسراء ٢٩ .

(٦) مسند أحمد حـ٥ ص١٩٤ . مجمع الزوائد حـ٤ ص٩٨ .

(٧) جامع البيان عن تأويل القرآن حـ١٢ ص٣٩٧ .

وكان إذا جلس للأكل قعد مستوفزاً ولا يتكئ .

فعن أبي حذيفة أنّ رسول الله ﷺ قال : (أمّا أنا فلا آكل متّكئاً) (١) .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : ما أكل النبي ﷺ متّكئاً إلاّ مرة ثم نزع (٢) .

وذكر ابن بطال من طريق أيوب عن الزهري أنّه أتى النبي ﷺ ملك لم يأت قبلها فقال إنّ ربك يخيّرك بين أن تكون عبداً نبياً أو ملكاً نبياً ، قال فنظر إلى جبريل كالمستشير له ، فأومأ إليه أن تواضع فقال : بل عبداً نبيّاً قال : فما أكل متكئاً) (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ النبي ﷺ ما رؤي يأكل متكئاً قط (٤) .

وكأنّ عبد الله لم يسمع بتلك المرة التي أكل فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام متكئاً .

والاتّكاء هو التمكّن في الجلوس للأكل وقيل أن يعتمد على يده اليسرى (٥) .

وقال الخطابي يحسب العامة أنّ المتكئ هو الآكل على أحد شقّيه ، وليس كذلك بل هو المعتمد على الوطاء عند الأكل ، لأنّه ﷺ قال إني أذمّ فعل من يستكثر من الطعام فإني لا آكل إلا البلغة من الزاد . ولقد كره مالك الأكل متكئاً ولم يخصّ صفة بعينها (٦) .

---

(١) نيل الأوطار جـ٩ ص٤٢ . سنن أبي داود جـ٣ ص٣٤٨ ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص١٠٨٦ .

(٢،٣) نيل الأوطار جـ٩ ص٤٢ .

(٤،٥) نيل الأوطار جـ٩ ص٤٤ .

(٦) نيل الأوطار جـ٩ ص٤٤ .

وجزم ابن الجوزي في تفسير الاتّكاء بأنه الميل على أحد الشقين ولم يلتفت لإنكار الخطابي .

وأخرج النخعي أنهم كانوا يكرهون الأكل حال الاتكاء لئلاّ تعظم بطونهم (١).

ولقد أثبت الطبّ الحديث أنّ الأكل متكئاً يضرّ بالصحة لعدم جريان الأكل بسهولة في طريقه المعتاد ، كما أنّ الأكل حال كون المرء جاثياً على ركبتيه يقلّل امتلاء معدته بالطعام ، وبالتالي يخفّف من سمنته التي تعتبر مكاناً ممتازاً لتفشّي الجراثيم .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بغسل اليدين حال الاستيقاظ من النوم ، فقال عليه الصلاة والسلام : (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده حتى يغسلها ثلاثاً فإنّه لا يدري أين باتت يده) (٢) ولا يخفى مالغسل اليدين والوجه صباحاً من أثر في تنشيط الجسم وإزالة إمكانية علوق الجراثيم والميكروبات التي قد تعلق باليدين من أثناء النوم ، ولملامستها المواطن المستقذرة من جسم الإنسان في العادة .

وفي مقام التعليل هذا ذكر صاحب نيل الأوطار عن الشافعي وغيره من العلماء أنّ السبب في الحديث، هو أنّ أهل الحجاز كانوا يستنجون بالأحجار وبلادهم حارّة ، فإذا نام أحدهم عرق فلا يأمن النائم أن تطوف يده على ذلك الموضع النجس أو على غيره (٣) .

---

(١) نيل الأوطار جـ٩ ص٤٤ .

(٢) متفق على صحته ،أخرجه البخاري ٢٢٩/١ في الوضوء باب الاستجمار ومسلم رقم ٢٧٨ في الطهارة باب كراهية غمس المتوضئ يده المشكوك في نجاستها في الإناء . وأخرجه مالك في الموطأ٢١/١ باب وضوء النائم (أنظر شرح السنة٤٠٦/١ رقم ٢٠٧ وانظر نيل الأوطار ١٧٠/١ .

(٣) نيل الأوطار جـ١ ص١٧٠ .

وسواء كانت هذه العلة صحيحة أم أنّ هناك تفسيرات أخرى لذلك ، فإنّ الأمر في الحديث جاء للنظافة والعناية بصحة الإنسان ، وليس كما يتوّهم البعض أنّ اليد تفارق جسد الإنسان أثناء نومه .

وفي مقام الحفاظ على صحة الإنسان ووقايته من الأضرار والأخطار ينهى عليه الصلاة والسلام عن الشرب من في السقاء قال أبو هريرة رضي ا لله عنه (نهى النبي ﷺ أن يشرب من في السقاء) (١) وفي رواية لابن ماجه: أنّ رجلاً قام من الليل بعد النهي ، إلى سقاء فاختنثه فخرجت عليه منه حيّة (٢) .

فلا يؤمن دخول السقاء بعض الهوام والحشرات فيتأذّى الإنسان بهذا الشرب، ولملاصقة فم الإنسان لفم القربة، فقد يحتاج غيره ليشرب منها فتنتقل الجراثيم من مصاب إلى آخر أو قد تكون لفم أحدهم رائحة فينتن السقاء .

كما حرّم الإسلام استعمال الإناء الذي ولغ فيه الكلب، وقال عليه الصلاة والسلام : (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهنّ بالتراب)(٣).

ولم يكن مفهوماً هذا التشدّد في لعاب الكلب حتى أثبت العلم أنّ الكلب يحمل في لعابه جراثيم خطيرة تسبّب داء الكلب وإن غسل الإناء سبع مرات إحداهن بالتراب كافية لتطهيره من هذه الجراثيم الضارّة (٤) .

---

(١) فتح الباري جـ١٠ ص٩٠ .

(٢) فتح الباري جـ١٠ ص٩١ .

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٧٩ ، سنن الترمذي جـ١ ص١٥١ شرح السنة جـ٢ ص٧٤ ، سبل السلام جـ١ ص٢٢ .

(٤) الإعجاز الطبي في القرآن ص١٥٨ د.السيد الجميلي . دار التراث العربي . القاهرة .

ولقد اعتبر علماء الإسلام إزالة الضرر مطلباً إسلامياً أساسياً وأسسّوا في ذلك قاعدة أساسية من القواعد الفقهية (الضرر يزال) وفرّعوا على ذلك كثيراً من الفروع الفقهية التي نصّ عليها العلماء بحيث إذا تيقّن منها الضرر بالنفس أو بالغير فإنهم يحرمونها ويمنعونها (١) .

وبالتالي كان تحريم السموم والأفيون والقات والدّخان عند بعض العلماء لتيقّن الضرّر فيه لديهم ، والذين أفتوا بعدم حرمة ذلك لم يتأكّد لهم هذا الضرر المؤكّد بصحة الإنسان ، فأجازوا استعماله فيما لا يتحقّق به الضّرر .

ولقد اعتبر الإسلام حقّ البدن مصاناً كحق الرب قال ﷺ : (إنّ لربك عليك حقّاً وإنّ لأهلك عليك حقاً وإنّ لبدنك عليك حقّاً فاعط كلّ ذي حقّ حقّه) (٢) .

ولذلك حرّم الإسلام الرهبانية والغلوّ في العبادة قال عليه الصلاة والسلام : (إنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له وإنّي لأصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منّي)(٤) .

وكان هذا في مجال ردّه عليه الصلاة والسلام على نفر من الصحابة همّوا

---

(١) الأشباه والنظائر ص٨٣ السيوطي .

(٢) فتح الباري جـ٣ ص٢١٧ (المتن) .

(٣) كشف الخفاء جـ١ ص٢٥٧ (رواه البزار عن جابر) .

(٤) صحيح البخاري جـ٧ ص٢ كتاب النكاح ، سبل السلام جـ٣ ص١١٠ .

بالمغالاة في العبادة ظنّاً منهم أنّ هذا يرضي ا لله عزّ وجلّ ، فبيّن لهم الرسول ﷺ أنّ من العبادة تلبية متطلبات البدن وحاجاته الحسية والمعنوية .

وحتى الأفعال التي هي محض عبادة لله عزّ وجلّ لا تخلو من فوائد عامّة تعود على الإنسان في تعامله مع الناس أو في حفظه لذاته الإنسانية .

فإنّ الصوم الذي هو عبادة محضة لله عزّ وجلّ وهو يجزي به ، فقد ثبت نفعه في مجال المحافظة على صحّة البدن إضافة لما فيه من المحافظة على صحة النفس .

ولقد أصبح غير المسلمين يخصّصون لأنفسهم أيّاماً يصومون فيها ومنهم من يصوم مع المسلمين لاعتبار صحيّ .

ولقد جاء في بعض الصحف الأمريكية أنّه طرأ تحوّل في الطب عند كثير من الأطباء ، فإنهم أخذوا يصفون الصوم للمصابين بفقر الدم (١) .

وفي الولايات المتحدة مستوصفات ومستشفيات يعالج فيها من يصف لهم الأطباء الصوم ، وتتفاوت مدة المعالجة بين (٤٠ – ٥٠) يوماً يكون فيها المريض تحت مراقبة الطبيب .

ولقد كان من نتيجة هذا الصوم جلاء بصر من يشكو ضعف بصره وشفاء المرض بالبول السكري ، واندمال قروح المعدة وعودة القوة إلى الذين انحطّت قواهم من جرّاء الإفراط في العمل (٢) .

ويكفي الإنسان مدّة ثلاثة أيام ليعتاد الصوم ويتخلّص الجسم من السموم العابثة بعد ستّة أو سبعة أسابيع .

---

(١) جواهر القرآن جـ١٦ ص٢٢٢ .

(٢) جواهر القرآن جـ١٦ ص٢٢٢ .

ويعتبر الصوم علاجاً لاضطرابات الأمعاء المزمنة ولزيادة الوزن وزيادة الضغط ولالتهابات الكلى والأمراض الجلدية، إذ أنّ الامتناع عن الطعام والشراب مدة من الزمن يقلّل من وجود الماء في الجسم، وهذا بدوره ينعكس على وجود الماء في الجلد فتزداد مقاومته لتلك الأمراض وتزداد سرعة الشفاء(١) .

وأفعال الوضوء التي نستعمل الماء فيها خمس مرات في اليوم والليلة على الوجه واليدين والرأس والقدمين . فإنّ الماء المراق يعمل على قبض وبسط العروق الشعرية السطحية للجلد ، وبهذا القبض والبسط تزداد حركة القلب وتنشط المبادلات في الجسم ، وتقوّي الحركات التنفسية ويزداد استنشاق الأكسجين وإخراج الكربون ، وبذلك يحصل تنبّه الأعصاب المدركة المحرّكة . ثم يسري هذا التنبيه إلى جميع الأعصاب القلبية والرئوية والمعدية ومنها إلى جميع الأعضاء والغدد (٢) .

وعملية الوضوء تقي العيون من إصابتها بالرمد لأنّ العين تغسل بالماء النظيف خمس مرات في اليوم . وكذلك الاستنشاق والاستنثار يطهّران الأنف من الجراثيم التي تتجمّع في جوانبه .

ويلاحظ أنّ الغسل في الوضوء يتركّز على الأعضاء الظاهرة المكشوفة المعرّضة للإصابة بالأمراض الجلدية والالتهابات ، إضافة إلى الاغتسال من الجنابة الذي يعمّ البدن كلّه ، والذي قد يتعرّض له المسلم عدّة مرات في الأسبوع .

---

(١) الله والعلم الحديث ص٢١٢ عبد الرازق نوفل .

(٢) روح الصلاة في الإسلام ص٨٢ عفيف عبد الفتاح طباره .

والصلاة في حركاتها وأفعالها تشكّل علاجاً ناجعاً للمصابين بآلام الظهر وتعطي قوّة ومرونة لسلسلة عظام الظهر الفقرية . وهذا ما لاحظه البروفوسور (دلاكروا) الفرنسي أثناء تجواله في العالم الإسلامي (١)

ولقد اهتمّ رسول الله ﷺ بالسواك وحثّ أمته عليه وقال : (لولا أن أشقّ على أمّتي لأمرتهم بالسواك عند كلّ صلاة) (٢) وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام ليتهجّد يشوّص فاه بالسواك (٣) . وصحّ عنه ﷺ أنه استاك عند وفاته (٤) .

ولقد أبان العلم عن فوائد صحيّة عديدة في السواك للإنسان واللّثة ، إذ أنّ تركيبه يضمّ مواد مضادّة للجراثيم والميكروبات تفوق في فعاليتها البنسلين وتمنع التهاب الفم وتقرّحه ، كما تمنع تسرّب الأمراض من الفم إلى المعدة .

ولقد أثبتت الأبحاث العلمية في جامعة رستوك بألمانيا الشرقية أنّ بعض المواد المضادة للميكروبات وخاصّة التي تحتمي في المواد الدهنية موجودة في السواك (٥) .

والغربيون يسمّون السواك شجرة محمد ، ويذكر صاحب جواهر القرآن أنّ هناك كتاباً باللغة الفرنسية يؤكّد فيه صاحبه ، أنّ السواك الذي من شجر الأراك أفضل للاستعمال من الفرشاة المعتادة (٦) .

---

(١) مجلة الوطن العربي سنة ٣ عدد ١٠٦ مارس سنة ١٩٧٩م باريس .

(٢) شرح صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٣ (المتن) .

(٣) شرح صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٤ (المتن) .

(٤) نيل الأوطار جـ١ ص١٢٥ .

(٥) مجلة الدعوة عدد٣٣ ص٥٩ سنة ٢٨ .

(٦) جواهر القرآن جـ١٣ ص٥٨ .

وكان عليه الصلاة والسلام يتمضمض بعد تناوله الطعام ، ولا يخفى ما لذلك من أثر في إزالة بقايا الطعام بين الأسنان التي تعمل على تسوّسها وتخريبها .

ولقد روي عن سويد بن النعمان أنّه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر وفي مكان الصهباء دعا عليه الصلاة والسلام بطعام فما أتي إلاّ بسويق فأكلنا ثمّ قال إلى الصلاة فتمضمض وتمضمضنا (١) .

كما كان عليه الصلاة والسلام يحثّ على تغسيل اليدين قبل الطعام وبعده حيث قال عليه الصلاة والسلام (بارك الله في طعام غُسّل له وغسّل منه) (٢) .

والتغسيل قبل الأكل لنظافة اليدين وعدم انتقال العدوى والأوساخ إلى الطعام، وبعد الأكل لنظافة اليدين والفم من بقايا الطعام ، فسبحان من علّم رسوله طريق الخير والهداية في شتّى مجالات الحياة .

---

(١) فتح الباري جـ٩ ص٥٧٦ (المتن) .

(٢) الترغيب والترهيب جـ٣ ص١٥١ حيث قال : (من أحبّ أن يكثر الله خير بيته فليتوضّأ إذا حضر غذاؤه وإذا رفع) والوضوء هو غسل اليدين ، سنن أبي داود جـ٣ ص٣٤٥ باب في غسل اليد قبل الطعام ، وقال أبو داود : ضعيف .

الاهتمام بصحّة الإنسان :

لقد دعا الإسلام إلى المحافظة على الصحة العامة ، واعتبر الإهمال بها حتّى يلحقها الضرر مخالفة شرعية ، ولذلك رخّص الشرع الحنيف في كثير من التكاليف الشرعية إذا كان الإتيان بها يسبّب ضررا أو مشقّة كبيرة بالإنسان .

فأباح الفطر في الصوم في حالة المرض والسفر ، قال تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر ﴾ (١) وأباح الفطر لحفظ صحة الإنسان وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر أو المرض . كما أباح للمريض أو من به أذى من رأسه أن يحلق رأسه في الإحرام بالحج ، بقوله تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾(٢) كما أباح للمريض أن يترك استعمال الماء إذا كان يضرّه ، وأباح التيمّم بتراب الأرض خوفاً أن يصيب جسده الماء فيؤذيه قال تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ (٣) وهذا هو مبدأ الحمية عن استعمال كلّ ما يضرّ ببدن الإنسان (٤) .

ولقد اهتمّ رسول الله ﷺ بأمر المعالجة ، وحثّ أصحابه على التداوي ، مبيّنا أنّ لا علاقة للخرافات والأوهام بالأمراض التي تصيب بدن الإنسان .

---

(١) سورة البقرة ١٨٤ .

(٢) سورة البقرة ١٩٦ .

(٣) سورة النساء ٤٣ .

(٤) الطب النبوي ص٣ .

فقال ﷺ : (تداووا فإنّ ا الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلاّ وضع له شفاء غير داء واحد هو الهرم) (١) وفي لفظ : (إنّ ا الله لم يُنزِل داء إلاّ أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله) (٢) وفي المسند من حديث ابن مسعود ويرفعه إلى رسول ا الله ﷺ : (إنّ ا الله عزّ وجلّ لم ينزل داء إلاّ أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله) (٣) .

وفي مسند أحمد بن حنبل وسنن الترمذي عن أبي خزامة قال :(قلت يا رسول ا الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتّقيها هل ترد من قدر ا الله شيئاً ؟ فقال هي من قدر ا الله (٤) .

وعن جابر بن عبد ا الله أنّ النبي ﷺ قال : (لكلّ داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن ا الله عزّ وجلّ) (٥) .

وفي الصحيحين عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول ا الله ﷺ : (ما أنزل ا الله من داء إلاّ أنزل له شفاء) (٦) . وقد أرشد رسول ا الله ﷺ في علاج بعض الأمراض فقال في الحمّى : (إنّما الحمّى أو شدّة الحمّى من فيح جهنّم

---

(١) سنن الترمذي جـ٤ ص٣٨٣ .

(٢) مسند أحمد ٢٧٨/٤ ، وانظر سنن ابن ماجه جـ٢ ص١١٣٨ رقم ٣٤٣٦ كتاب الطب وأخرج البخاري (ما أنزل ا الله داء إلاّ أنزل له شفاء) جـ١٠ ص١١٣ أوّل كتاب الطب .

(٣) سنن الترمذي جـ٤ ص٤٠٠ .

(٤) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص١٩١ (المتن) .

(٥) فتح الباري جـ١٠ ص١٣٤ (المتن) .

(٦) فتح الباري جـ١٠ ص١٧٤ (المتن) .

فأبردوها بالماء) (١) . ومن المعلوم أنّ حالات الحمّى عند اشتداد الحرارة تعالج إمّا بوضع الماء البارد من الخارج أو بتناوله عن طريق الفم وهذا يساعد الكليتين على النهوض بوظائفها الحيوية في الجسم (٢) . ولقد رأى بعض العلماء أنّ هذا خاصّ بأهل الحجاز وما فيها من حمّى سببها الإصابة بحرارة الشمس ، ومنهم من حصر الماء بماء زمزم ، ومنهم من قال بعموم استعمال الماء في حالة الحمّى (٣) ، وكان رسول الله ﷺ إذا حمّ دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل ، وفي الطبّ الوقائي أرشد عليه الصلاة والسلام في الطاعون بقوله : (إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً) (٤) وهذا هو المتّبع في وقتنا الحاضر المسمّى بالحجر الصحّي . وكان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ : (ارجع فقد بايعناك) (٥) وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال : (فرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد) (٦) وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : (لا يوردنّ ممرض على مصحّ) (٧) ويذكر عنه

---

(١) فتح الباري جـ١٠ ص١٧٤ (المتن) .

(٢) الطب النبوي ص١٨ .

(٣) الطب النبوي ص٢٢ (المتن) .

(٤) فتح الباري جـ١٠ ص١٧٩ (المتن) .

(٥) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢٢٨ (المتن) .

(٦) فتح الباري جـ١٠ ص١٥٨ (المتن) .

(٧) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢١٥ (المتن) .

ﷺ : (كلّم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين) (١)، ولا تعارض بين هذه الأحاديث وما روى عن رسول الله ﷺ : (لا عدوى ولا طيرة) (٢)، وعندما سئل عن النقبة تقع بمشفر البعير فيجرّب لذلك الإبل قال : فما أعدى الأول ؟ فلكلّ معنى منهما وقت وموضع . وليست كلّ الأمراض معدية وقد لا يكفي هذا الفصل بين السليم والمريض لأنّ أسباب المرض عديدة مختلفة . وقالت طائفة إنّ حديث لا عدوى ولا طيرة رواه أبو هريرة ثمّ شك فيه وتركه وراجعوه فيه وقالوا سمعناك تحدث فأبى أن يحدّث به قال أبو سلمة : فلا أدري أنسى أبو هريرة أم نسخ أحد الحديثين بالآخر (٣) .

وما رواه الترمذي أنّه ﷺ أخذ بيد مجذوم معه في القصعة فحديث لا يثبت ولا يصحّ وغاية ما قال فيه الترمذي إنّه غريب (٤) .

وقد فهم الصحابة الكرام روح هذه النصوص وعملوا بها عندما خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فلقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أنّ الوباء قد وقع بالشام . فقال لابن عباس ادع لي المهاجرين الأولين قال : فدعوتهم فاستشارهم وأخبرهم أنّ الوباء قد وقع بالشام فقال بعضهم : خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه .

وقال آخرون : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله فلا نرى أنّ تقدم بهم على هذا الوباء . فقال عمر : ارتفعوا عنّي .ثم قال : ادع لي الأنصار .

---

(١) الجامع الصغير جـ٢ ص٩٥ ، مجمع الزوائد جـ٥ ص١٠١ .

(٢) شرح صحيح مسلم جـ١٤ ص٢١٦ (المتن) .

(٣) الطب النبوي ص١٢١ .

(٤) الطب النبوي ص١٢١ .

فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا مثلهم . فقال : ارتفعوا عني . ثم قال : ادع لي من ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه منهم رجلان وقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء .

فأذّن عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه .

فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا أمير المؤمنين أفرارا من قدر الله تعالى ؟ فقال : لو غيرك قالها يا أبو عبيدة ! نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله؟!

قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً في بعض حاجاته فقال : إنّ عندي في هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا كان الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه) (١) .

وهذا هو أفضل ما توصّل إليه الطب الحديث في حالة انتشار الأوبئة ، إذ أنّ العزل الصحي يكفل عدم انتشار المرض والقضاء عليه في مهده .

---

(١) فتح الباري جـ١٠ ص١٧٩ (المتن) .

(الفصل الثاني)

علاقة الإنسان بالأرض

الفصل الثاني

القرآن الكريم والعمارة :

إذا أمعنّا النظر في آيات القرآن الكريم فإننا نجد توجيهات وأحكاماً لابدّ للإنسان المسلم إذا أحسن القيام بها أن يأخذ بأسباب العمارة بأشكالها المختلفة.

ونستطيع القول إنّ التقدم العلمي بأشكاله أيام النهضة الإسلامية إنّما كان مبنيّاً في أساسه على القرآن الكريم .

وهذا الكتاب الربّاني ربط الإنسان بالكون في أكثر من مجال وجعله مضطراً للبحث فيه والكشف عن أسراره .

ففريضة الصلاة التي هي عماد الدين ويمارسها المسلم خمس مرات أو أكثر في اليوم الواحد ، توجب على المسلم أن يعلم بداية كلّ وقت ونهايته ، وتحديد ذلك إنّما يرجع إلى حركة الأرض حول نفسها في مقابلة الشمس ، أو بصورة أخرى إلى حركة الشمس الظاهرية في السماء من ظهور الفجر الصادق إلى شروق الشمس ووقت زوالها وميلها إلى الغرب ثم تشابك النجوم وتعاركها في كبد السماء (١) .

فلا بدّ للمسلم أن يتوجّه إلى معرفة هذه العلوم ليؤدي عبادته لربه في أوقاتها الصحيحة .

---

(١) العلم والإيمان في بناء الأمم والمجتمعات ص٩٨. عبد الغني عوض الراجحي -مجمع البحوث الإسلامية .

هذا بالإضافة إلى ضرورة علمه بالفلك والجغرافيا وتحديد الجهات ، وكم سمعنا بأنّ أدنى انحراف في اتجاه القبلة للمسجد يستدعي توجّه أهل العلم والخبرة ليتم التوجّه الصحيح إلى بيت الله الحرام . وهذا يحتاج إلى آلات ومهارات وعلوم وخاصة مع اتساع رقعة العالم الإسلامي (١) .

والزكاة لا بدّ فيها من معرفة المقدار الواجب إخراجه ، والمقدار الذي تجب فيه الزكاة ، وأنواع المال على اختلافها ومصارف هذا المال وموارده كلّ هذا يحتاج إلى التوسّع في العلوم الحسابية والتجارية المتعلّقة بذلك . وصيام شهر رمضان نحتاج فيه إلى معرفة إطلالة هلاله وفجره ومغربه ، وكلّ هذا يتصل بالحساب والفلك والظواهر الكونية .

والحج كذلك بميقاته الزماني والمكاني وأشهره المعلومات تحتاج في تعيين ذلك إلى الاستعانة بالعلوم الفلكية والرياضية المختلفة (٢) .

وفي معرفة الماء الذي تصحّ به الطهارة ، ومتى يفقد طهوريته ، ومتى يحتمل النجاسة ، دافع للإنسان المسلم للبحث في هذا السائل وتحديد طرق الاستفادة منه ووسائل جمعه واستنباطه (٣) .

ولقد ذكر أبو الفضل المرسي في تفسيره (أنّ القرآن الكريم جمع علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط به علما حقيقة إلاّ المتكلم به ثم رسول الله ﷺ . خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس ثم عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم) (٤) .

(١،٢،٣) العلم والإيمان في بناء الأمم والمجتمعات ص٩٩ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن جـ٢ ص١٢٥ جلال الدين السيوطي .

ولقد اهتمت طوائف بضبط لغاته ومخارج حروفه وعدد كلماته وأوسعوا الكلام في النحو والبلاغة .

وخاض الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد النظرية مثل قوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ﴾ (١) .

ومنهم من تتبّع أخبار الأمم الماضية وقصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم وما في ذلك من المواعظ والحكم ولقد نظر قوم آخرون من أهل العلم والفهم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازل القمر والبروج وغير ذلك (١) .

ولقد وجد قوم آخرون فيه علوماً أخرى ، كعلم الطب والهندسة والهيئة وغير ذلك . كما استنبطوا أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها في الصناعة (٣) .

فمن ذلك في الخياطة : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (٤) .

وفي الغزل : ﴿ كالتي نقضت غزلها بعد قوة أنكاثا ﴾ (٥) .

وفي الملاحة : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأنبياء ٢٢ .

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٢٥ .

(٣) الإتقان جـ٢ ص١٢٥ .

(٤) سورة الأعراف ٢٢ ، طه ١٢١ .

(٥) سورة النحل ٩٢ .

(٦) سورة هود ٣٧ .

وقوله تعالى : ﴿ أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ (١) .

وفي الصناعة : ﴿ وتستخرجون منه حلية تلبسونها ﴾ (٢) .

وفي النحت : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ (٣) .

وفي الألوان : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ (٤) .

وذكر في ذلك أمثلة متعددة ذكر فيها من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات والمشروبات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات .

قال تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٥) .

وقال ابن سراقة : من وجوه إعجاز القرآن ما ذكر فيه من إعداد علم الحساب والميراث خاصة وأنه من نبي أمّي لم يخالط الفلاسفة ولم يتعلّم الحساب (٦) .

وقد اشتمل كتاب الله العزيز على كلّ شيء ، أمّا أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسئلة هي أصل إلاّ وفي القرآن ما يدلّ عليها . وفيه من عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى (٧) .

---

(١) سورة الكهف ٧٩ .

(٢) سورة النحل ١٤ .

(٣) سورة الشعراء ١٤٩ .

(٤) سورة فاطر ٢٧ .

(٥) سورة الأنعام ٣٨ .

(٦) الإتقان جـ٢ ص١٢٦ ، الإكليل في استنباط التنزيل ص٥ للسيوطي دار الكتب العلمية -بيروت.

(٧) الإتقان جـ٢ ص١٢٦ ، الإكليل في استنباط التنزيل ص٥ للسيوطي دار الكتب العلمية -بيروت.

وذكر الإمام الغزالي في كتابه جواهر القرآن أنّ القرآن الكريم وضع سياسات ومصالح وحكماً وفوائدَ يدركها المتأمّل في محاسن الشريعة ، ثم مثّل بآيات اعتبرها أساساً في العلوم المتعلقة بها .

ففي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك ﴾ (١) .

لا يعرف كمال المعنى المراد من هذه الآية إلاّ من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها (٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر ﴾ (٣) .

﴿ والشمس تجري لمستقرّ لها ﴾ (٤) ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ (٥) .

لا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما ، وولوج الليل في النهار ، وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر إلاّ من عرف هيئات تركيب السماوات والأرض وهو علم برأسه (٦) .

ولقد صرّح الإمام الشافعي أنه ليست تنزل بأحد في الدارين نازله إلاّ في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها .

---

(١) سورة الإنفطار ٦ – ٧ .

(٢) جواهر القرآن ص٢٩ أبو حامد الغزالي – مكتبة الجندي القاهرة .

(٣) سورة القيامة ٨-٩ .

(٤) سورة يس ٣٨ .

(٥) سورة الرحمن ٥ .

(٦) جواهر القرآن ص٢٩ .

فإن قيل من الأحكام ما يثبت ابتداء بالسنة ، قلنا ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة ، لأنّ كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ وفرض علينا الأخذ بقوله .

وقال الشافعي بمكة مرة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله . فقيل له : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور . فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١) .

وقد قال ﷺ : (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر وقد أمر المحرم بقتل الزنبور) (٢) .

وقال الإمام الشافعي جميع ما تقوله الناس شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن (٣) .

ولقد استنبط البعض من القرآن الكريم أنّ السبائك تتميّز بالصلابة والمتانة أكثر من المعدنيين الصافيين كلّ على حده .

ففي الكلام على ذي القرنين عندما بنى السد : ﴿ قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحشر ٧ .

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٢٦ ، والحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه الجامع الصغير ٥١/١ ورمز له بالصحة . مسند أحمد ٣٨٢/٥ ، ٣٨٥ والترمذي في المناقب رقم ٣٦٦٣ وابن ماجه رقم ٩٧ في المقدمة وصححه ابن حبان والحاكم. انظر شرح السنة جـ١٤ ص١٠١ رقم ٣٨٩٥ .

(٣) الإتقان جـ٢ ص١٢٦ .

(٤) سورة الكهف ٩٦ - ٩٧ .

فعندما بنى السد من الحديد نفخ فيه النار حتى ذاب ثم أضاف إليه النحاس بمقدار وهذه السبيكة أقوى من الحديد بذاته ومن النحاس كذلك (١).

ولقد وجد الناظرون في مثل هذه الآيات من الباحثين المتعمقين مجالاً واسع المدى للبحث العلمي الدقيق في فروع الثقافة بأنواعها طبيعية وكيميائية وهندسية ونحو ذلك.

وإذا كانت هذه الآيات في هذه المجالات من هذه البحوث العلمية الدقيقة، قد جاءت في كتاب الله الذي هو بالنسبة للإيمان المحور والأساس واللباب، فإنّ ذلك يكون من أوضح الواضحات في التدليل على مدى العلاقة الوثقى والارتباط الدقيق بين العلم والإيمان في نظر الإسلام (٢).

ولقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (أنزل في القرآن كلّ علم وبيّن لنا فيه كلّ شيء، ولكنّ علمنا يقصر عمّا بيّن لنا في القرآن الكريم) (٣).

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّ الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة) (٤).

وأكّد الرافعي أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى أصل العلوم وغايتها بقوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنّه على كل شيء شهيد ﴾ (٥).

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٩٩.

(٢) العلم والإيمان في بناء الأمم والمجتمعات ص١٢٠.

(٤،٣) الإكليل ص٥.

(٥) سورة فصلت ٥٣.

فلو جمعت العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها عمّا جاء في هذه الآية، ولئن أخطأ الناس في تفسير بعض آيات القرآن الكريم لضعف وسائلهم العلمية فإنّ تقدم العلوم وظهور حقائق الطبيعة كأنه موجه نحو تفسير هذه الآيات القرآنية (١)، وهذا الشيخ محمد حسين الذهبي الذي لا يرى تفسير آيات القرآن الكريم بالعلوم الكونية والطبيعية نجده يقول : إنّ العلوم الكونية والطبيعية وسيله إلى الكشف عمّا أودعه الله كتابه ، واسترعى إليه أنظار عباده من دلائل قدرته وأسرار ملكوته وعجائب مخلوقاته التي بثّها في الأنفس والآفاق... وهكذا بقية العلوم مهما كثرت وعلا شأنها كلها مسخرة لخدمة القرآن الكريم ولا عجب فهو كتاب رب العالمين : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٢).

ومن هنا كانت عناية المسلمين بالعلوم عناية دونها كل عناية (٣).

ولم يقف أمر بيان معاني القرآن الكريم عند رسول الله وحده بل تعدّاه إلى صحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

واستمر فهم المسلمين المتفاوت للقرآن الكريم ومرّ في مراحل مختلفة ، ولا عجب فالقرآن كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد(٤).

---

(١) إعجاز القرآن ص١٢٨ - مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - القاهرة .

(٢) سورة هود ١ .

(٣) علم التفسير ص٩ د. محمد حسين الذهبي - دار المعارف القاهرة .

(٤) علم التفسير ص١١ - الذهبي .

ولم يكن فهم الصحابة الكرام لهذا القرآن الكريم بتفصيلاته ودقائقه وأسراره بحيث لا تخفى عليهم منه خافية ، فذلك أمر لا يقول به أحد ممن يعد برأيه (١) .

وكأنّ الشيخ الذهبي رحمه الله إنّما أنكر إخضاع الآيات القرآنية لكلّ ما كشفه العلم من نظريات وآراء والمغالاة في ذلك ، لدرجة تشويه مقاصد القرآن الكريم وأهدافه ، وهذا يتورّع عنه كلّ صاحب دين وتقوى .

وكذلك نجد الأستاذ مصطفى المراغي الذي تشدّد في الأخذ بالتفسير العلمي يضطرّ في بعض الآيات إلى الأخذ بهذا التفسير فنجده يرى في قوله تعالى : ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها﴾ (٢) . إنّ العمد هو نظام الجاذبية .

وفي قوله تعالى : ﴿ استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ (٣) أنّ الأرض كانت قطعة من الشمس ثم مرت عليها الأطوار المختلفة ، وبالتالي فإنّ الشمس هي مركز السيارات وليست الأرض (٤) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (٥) .

يرى أنّ الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها على بعد منها وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة

---

(١) علم التفسير ص١٢ - ١٤ .

(٢) سورة لقمان ١٠ .

(٣) سورة فصلت ١١ .

(٤) التفسير والمفسرون جـ٣ ص٢٧٢ محمد حسين الذهبي - دار الكتب الحديثة .

(٥) سورة النحل ١٥ .

كالشمس وتكوّنت عليها قشرة صلبة وبعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعّدت وحدث من التجعد نتوءات وأغوار . وهناك جبال وجدت عن اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحر وجبال نارية حدثت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات حتى صارت أوتاداً مغروزة فيها (١) .

وأكّد الأستاذ محمد الغزالي أنّ العقلية التي اخترعت علوم القواعد والبلاغة لخدمة القرآن الكريم ، لو بقيت إلى يومنا هذا وانتقلت من السلف إلى الخلف لكانت علوم الكيمياء والنبات والحيوان علوماً دينية أدنى صلة بالإسلام من علوم النحو والصرف والمعاني والبديع (٢) .

(١) التفسير والمفسرون جـ٣ ص٢٧٢ .

(٢) نظرات في القرآن ص٧٤ محمد الغزالي دار الكتب الحديثة .

الحث على العمل :

لقد اعتبر الإسلام العمل عباده وحثّ عليه ورغب فيه ، قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ (١) ، فالمراد من الأكل في هذه الآية طلب النعم مطلقاً وتحصيلها أكلا وغيره (٢) . وفيها حث على السفر في أقطار الأرض والتردّد في أقاليمها وأرجائها لجني أنواع المكاسب والاشتغال بالتجارة (٣) .

وفي قوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ (٤) .

سوّى الله عزّ وجلّ في الآية بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال . وقال السيوطي في هذه الآية إنّها أصل في التجارة (٥) ، وروي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال : (ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحبّ إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل الله تعالى (٦) ثم تلا هذه الآية .

---

(١) سورة الملك ١٥ .

(٢) محاسن التأويل جـ١٦ ص٥٨٨٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٤٣٩ .

(٤) سورة المزمل ٢٠ .

(٥) محاسن التأويل جـ١٦ ص٥٩٦٦ .

(٦) روح المعاني جـ١٩ ص١٤٢ .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال : (إنّ الله يحبّ العبد المحترف) (١) وقال عليه الصلاة والسلام : (إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : (من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً يده) (٣) .

وعن رافع بن خديج قال : (قيل يارسول أي الكسب أفضل ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) (٤) .

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : (لئن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه) (٥) .

وعن كعب بن عميرة قال : مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه فقالوا : يارسول الله لو كان هذا في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله) .

وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ ص٥٢٤ ، مجمع الزوائد جـ٤ ص٦٢ ورواه الطبراني في الأوسط .

(٢) الترغيب والترهيب جـ٢ ص٥٢٥ ، مجمع الزوائد جـ٤ ص ٦٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سبل السلام جـ٣ ص٤ ، مجمع الزوائد جـ٤ ص٦٠ .

(٥) شرح صحيح مسلم جـ٧ ص١٣١ .

ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان (١) .

وعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : (سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره وبعد موته : من علّم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته) (٢) .

وكان عليه الصلاة والسلام يرشد أصحابه إلى ضرورة الكسب من عمل أيديهم ، ويحثهم على بذل الوسع في تحصيل الرزق أفضل من أن يسألوا الناس ويصبحوا عالة على المجتمع .

فقد جاء رجل من الأنصار يسأل الرسول ﷺ مساعدته فقال له : أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء. فقال : ائتني بهما ، فأتاه بهما : فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، فقال : رسول الله من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً . فقال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري . وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوماً فائتني به ، فأتاه به ، فشدّ فيه رسول الله عوداً بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا أرينّك خمسة عشر يوماً .

ففعل وجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضهم طعاما . فقال له رسول الله ﷺ : (هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة) (٣) .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٣ ص٦٧ والطبراني في الكبير . (٢) الترغيب والترهيب جـ٣ ص٣٧٧ورواه البزار وأبو نعيم والديلمي ،ذكر ذلك الناوي في فيض القدير جـ٤ ص٨٧ وقد أعلّه الهيثمي .

(٣)الترغيب والترهيب جـ٢ ص٥٢٣ ، سنن أبي داود جـ٢ ص١٢١ رقم ١٦٤١ .

والإسلام يشجّع على تعمير الأرض واستثمارها ، فهو لذلك يملّكها لمن يقوى على تعميرها وإصلاحها وتشجيرها قال عليه الصلاة والسلام : (من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحقّ بها) (١) .

وكما حثّ الإسلام على العمل ، فإنه حثّ على الإنفاق مؤكّداً أنّ المال لله والإنسان مستخلف فيه .

قال تعالى : ﴿ وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه ﴾ (٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ (٣) .

ولقد اعتبر الإنفاق على الفقراء والتصدق عليهم كفارة لبعض الذنوب التي يرتكبها المسلم ، كالظهار والإحصار في الحج وكفارة اليمين وغيرها .

ولقد حثّت السنة المشرفة على التكافل بين أفراد الأمة ، فهذا أبو سعيد الخدري يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه في أحد الغزوات : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال : ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحقّ لأحد منّا في الفضل) (٤) .

ولقد علّق أحد العلماء على هذا الحديث فقال : قد يظنّ البعض إنّ هذا في حالة خاصة وهو دخول المعركة ، ولكنّ سيرة السلف الصالح وتكافلهم تؤكد

---

(١) فتح الباري جـ٥ ص١٨ (المتن) .

(٢) سورة الحديد ٧ .

(٣) سورة النور ٣٣ .

(٤) سنن أبي داود جـ٢ ص١٢٥ رقم ١٦٦٣ .

أنّ ذلك إنّما كان مبدءاً إسلامياً التزموا به وضربوا أروع الأمثلة في البذل والإيثار ، ولقد ذكر عن مجاهد والشعبي وطاووس إن في المال حقّ سوى الزكاة وإنه لا يحلّ لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل من صاحبه المسلم أو الذمي .

لأنه يجب فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك ، فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل على ذلك فإن قتل فعلى قاتله القوَد (١) .

وإن قتل المانع فهو من الطائفة الباغية وقال تعالى : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ (٢) ولقد ذكر لنا القرآن الكريم قصصاً تتحدث عن أقوام بخلوا بما آتاهم الله من فضله فكان نتيجة بخلهم حسرة وندامة في نفوسهم بعد أن أخذهم الله بعاقبه .

قال تعالى : ﴿ إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ... ﴾ (٣) إلى آخر الآيات . وساقت لنا الآيات الكريمة حواراً بين أخوين غني بخل بماله ونمّاه ، وآخر تصدق به لوجه الله ، وكيف استطال الغني على الفقير ثم جاء أمر الله فأخذ الغنيّ يقلّب كفيّه حسرة وندامة . ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين .. ﴾ (٤) إلى آخر الآيات . وفي هذا توجيه للمسلمين بأنّ ما يقدمونه ويتصدقون به خير لهم ممّا يجمعون ويكنزون .

---

(١) عناصر القوة في الإسلام ص١٣٤ سيد سابق .

(٢) سورة الحجرات ٩ .

(٣) سورة القلم ١٧ - ٣٢ .

(٤) سورة الكهف ٣٢ وما بعدها .

الاهتمام بالزراعة :

لقد حثّ الإسلام على استثمار الأرض وزراعتها . وغصّت كتب الفقه بالأحكام الشرعية التي تتعلّق بإحياء الأرض وإهمال استغلالها والنتائج المترتبة على ذلك .

والأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في الحث على الغرس والزراعة عديدة نذكر منها ما يلي :

عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة) (١) . وما ورد عن جابر مرفوعا عن النبي ﷺ قال : (ما من مسلم يغرس غرساً إلاّ كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة ، ولا يرزؤه إلاّ كان له صدقة)(٢) .

وما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فليغرسها) (٣) . وفي هذا حثّ على اغتنام آخر فرصة من الحياة في سبيل زرع ما ينتفع به الناس .

وعن أنس بن مالك أنّ معاذ بن جبل كان يؤمّ الناس ، وكان خلفه حرام بن ملحان بينما كان في طريقه ليسقي نخله فأطال معاذ في الصلاة بسورة لم يحتملها حرام ، فأكمل صلاته وحده وانصرف لشأنه ، ليسقي نخله ،فقال معاذ

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٠ ص١٢٣ (المتن) .

(٢) سنن الترمذي جـ٣ ص٦٦٤ .

(٣) مجمع الزوائد جـ٤ ص٦٣ ورواه البزار ورجاله ثقات.وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني جـ١ ص١١ .

عنه بعد ذلك إنه منافق . ثم وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فقال لمعاذ: أفتّان أنت يا معاذ (١)؟ فأقرّ الرجل على اهتمامه بسقي غرسه والانتفاع به ونبّه معاذاً إلى أنّ الإطالة في الصلاة تفتن الناس في دينهم بسبب انشغالهم في أعمالهم وأرزاقهم .

وروي عن داود قال : قال لي عبد الله بن سلام إن سمعت بالدجال قد خرج وأنت على ودية (٢) تغرسها فلا تعجل أن تصلحه، فإن للناس بعد ذلك عيش)(٣) . وداود هذا هو ابن أبي داود الأنصاري .

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي : ما يمنعك أن تغرس أرضك ؟ فقال له أبي : أنا شيخ كبير أموت غداً ، فقال له عمر : اعزم عليك لتغرسنها . ولقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي (٤) .

وللذلك اعتبر بعض الصحابة العامل إذا عمل في إصلاح أرضه فهو عامل من عمّال الله تعالى .

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : (التمسوا الرزق في خبايا الأرض (٥) ، وقال ﷺ في النخل (هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل) (٦) .

---

(١) مسند أحمد جـ٣ ص١٢٤ .

(٢) غرسه .

(٣،٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ١ ص١٢ .

(٥،٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ٤ ص٦٣،٦٨ .

وفي مجال الصناعة والتجارة وردت نصوص شرعية كثيرة تبين أهمية ذلك وتحث عليه ، منها قوله ﷺ : (ألا من ولي يتيما له مال فليتّجر به ولا يتركه حتى تأكله الصدقة) (١). وقوله ﷺ : (التاجر الصّدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء) (٢) . ولا عجب أن رأينا أنبياء الله صفوة البشرية ، كلّ قد عمل في مهنة ، قال ﷺ : (ما بعث الله نبيّا إلاّ ورعى الغنم قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)(٣).

وذكر الحاكم من حديث ابن عباس أنّ داود كان يصنع الزرد والدروع ، وآدم حراثا ونوح نجاراً ، وإدريس خياطًا وموسى راعيا (٤) .

وكان عمر رضي الله عنه يقول أرى الرجل فيعجبني فاسأل هل له حرفة فإن قالوا لا سقط من عيني .

ولقد حثّ عليه الصلاة والسلام على السفر للتجارة والتنقل في الأرض بقوله (سافروا تستغنوا) (٥). ويذكر هذه الحقيقة ويعطيها ظلالها الواسعة قوله تعالى: ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ﴾ (٦) . وقوله : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (٧) .وهذا لمن خاف على

(٢،١) الجامع الصحيح جـ٣ ص٢٩٦ ، ٥١٥ الترمذي .

(٣) فتح الباري جـ٤ ص٤٤١ ، ٣٠٦ (المتن) .

(٤) فتح الباري جـ٤ ص٤٤١ .

(٥) الترغيب والترهيب جـ٢ ص٨٣ ، مجمع الزوائد جـ٣ ص١٧٩ والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .

(٦) سورة النساء ١٠٠ .

(٧) سورة النساء ٩٧ .

نفسه أو رزقه أو دينه ، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يضيّق عليه وأرض الله واسعة ، فعليه أن يبحث عن المكان الذي يلائمه في أموره المعاشية والأخروية .

ولقد أرسل رسول الله ﷺ أشخاصاً إلى جرش في الأردن لتعلم صناعة السيوف(1) .

كما أنه عليه الصلاة والسلام استعمل المنجنيق في حصار أهل الطائف (2) .

وبعث نفراً من أصحابه إلى قبيلة بني دوس باليمن وكانت مشهورة بإتقان صناعتها من أجل أن يتعلموا منها ذلك لما لإتقان الصناعة الحربية من أثر في حياة الأمة .

وقد حثّ عليه الصلاة والسلام على صناعة السهام وكان يقول : (إنّ الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه ومنبله ورامیه) (3) .

---

(1) أحاديث رمضان ص47 عبد العزيز كامل .

(2) الكامل في التاريخ جـ2 ص181 .

(3) الجامع الصحيح جـ4 ص174 الترمذي ؛ مسند أحمد جـ4 ص144 .

الإسلام والتملك :

لقد اعتبر القرآن الكريم الأرض بما فيها وما عليها مسخرة مهيئة لصالح البشرية جمعاء قال تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ (١) .

واستغلال الأرض واستثمارها مطلب شرعي أكّد عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وهناك ضوابط وضعتها الشريعة الإسلامية لئلا يصبح استغلال خيرات الأرض إحدى وسائل شقاء المجتمع وتعاسته ، فتتكدّس الأموال والثروات وتنتشر الإقطاعات الواسعة ويتحكم فيها نفر قليل من الناس يسيء استغلالها ، بينما نجد عامة الأمة لا يجدون قوت يومهم ، فاحتكار الملكية بمعناه الحقيقي ينكره الإسلام ولا يقبله ، أمّا مجرد الملكية فإنّ تقييدها والطعن فيها مكابرة للعقول والشرائع (٢) . وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ بروح الإسلام في سواد العراق ويستشير الناس ، فيرى عامتهم أن يقسمه بين المسلمين الفاتحين . وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك ، ومعه في ذلك عبد الرحمن بن عوف ، بينما كان يرى عمر أن يتركه بأيدي المزارعين ولا يقسمه لئلا تحتكر الأرض في أيدي قلة من الناس ، وكان معه في ذلك عثمان وعلي وطلحة . وبعد أن مكثوا في ذلك أياما قال عمر رضي الله عنه : قد وجدت حجة في تركه وعدم قسمته وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الرحمن ١٠ .

(٢) فتوى شرعية ص٣٢ حسنين محمد مخلوف دار الاعتصام .

(٣) سورة الحشر ٧ – ٩ .

فقال : كيف أقسمه لكم وأدع من يأتي بغير قسم ، فأجمع على تركه وجمع خراجه وإقراره في أيدي أهله ووضع الخراج على أراضيهم والجزية على رؤوسهم (١) .

وفي ذلك حكمة عظيمة تنبه لها الصحابة الكرام بالإضافة إلى مراعاة حق من يأتي من بعدهم ، وهو أنه إذا قسمت الأرض بين المسلمين فإنهم لا يستطيعون القيام عليها وعمارتها ويتركون الثغور والدفاع عن حوزة المسلمين ، فكان الأفضل أن تترك الأرض بأيدي أصحابها ويدفعون عنها قسما من ناتجها يعود على المسلمين جميعا بما فيه خيرهم وصلاحهم ونفعهم .

وهذه الضريبة المفروضة روعي فيها أن تكون مما تطيقه الأرض . وكان عمر يقول : لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهنّ لا يحتجن أحداً بعدي . وكان يوصي بأن يوفي لهم عهدهم وألاّ يكلّفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من وراءهم (٢) .

واحتكار الأرض واقتطاعها دون القدرة على إصلاحها وإعمارها ، يدعو إلى نزع ملكيتها ودفعها إلى صاحب القدرة والكفاءة من المسلمين .

قال رسول الله ﷺ : (عاديّ الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد . فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين) (٣) .

---

(١) الخراج ص٣٨ القاضي أبو يوسف المطبعة السلفية القاهرة .

(٢) الخراج ص٤٠ .

(٣) الخراج ص٦٥ ، منتخب كنز العمال على هامش مسند أحمد جـ٢ ص١٢٧ عن طاووس مرسلاً وعن ابن عباس موقوفا .

واتفق الفقهاء على أن يترك المحتجز مدة ثلاث سنوات ، فإذا مضت ولم يقم بإحيائها انتزعت منه وأعطيت لغيره . لأن المقصود من تمليكه أرض الموات أن ينتفع المجتمع والدولة بزيادة الثروة العامة وتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة (١) . وعندما أقطع رسول الله وادي العقيق لبلال بن الحارث المزني لم يستطع عمارته . فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : يا بلال إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة . فقطعها لك . وأن رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله وأنت لا تطيق ما في يديك فقال : أجل .

قال عمر : فانظر إلى ما قويت عليه منها فامسكه ، وما لم تطق ولم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين فقال : لا أفعل والله شيئا أقطعنيه رسول الله .

فقال عمر : والله لتفعلنّ ، فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين (٢) .

وقال عمر رضي الله عنه : (من عطّل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له) (٣) .

وعندما أقطع رسول الله ﷺ أبيض بن حمال ملح مأرب قال الأقرع بن حابس التميمي : يا رسول الله إني وردت هذا الملح في الجاهلية وهو بأرض ليس فيها غيره،من ورده أخذه وهو مثل الماء العدّ بالأرض . فاستقال عليه الصلاة والسلام الأبيض في قطيعة الملح . فقال : قد أقلتك على أن تجعله مني صادقة .

---

(١) اشتراكية الإسلام ص٨٨ مصطفى السباعي .

(٢) الأموال ص٢٩ ابن سلام ، منتخب كنز العمال جـ٢ ص١٣٠ .

(٣) اشتراكية الإسلام ص٨٩ ، منتخب كنز العمال جـ٢ ص٣٠ .

فقال النبي ﷺ : (هو منك صدقة ومن ورده أخذه) (١) .
والماء العدّ هو الماء الذي له مواد تمدّه مثل العيون والآبار أو الماء المتجمّع المعدّ.
وعلى هذا فالمعادن الظاهرة كالملح والقار والنفط تعامل كالماء الذي لا يجوز إقطاعه .
أمّا المعادن الباطنة التي لا يتوصّل إليها إلاّ بالعمل كمعادن الذهب والفضة والحديد وما أشبهها ففيها قولان : قول بأنه لا يجوز كالمعادن الظاهرة ويستوي حق الناس فيها جميعا (٢) .
وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك .
وقول بالجواز لرواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده (أنّ رسول الله أقطع بلال بن الحارث المعادن القبلية جلسيها وغوريها وحيث يصلح الزرع ولم يقطعه حق مسلم) وجلسيها وغوريها أعلاها وأسفلها وهو قول ابن وهيب (٣) أمّا الأرض الخاصة المملوكة فلا يصح الاعتداء عليها ، وكان ممّا قاله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : (أيها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) (٤) . ولقد اختلف العلماء في جواز تحديد الملكية فذهب بعضهم إلى أنّ هذا التحديد جائز شرعا ولا غبار عليه .

---

(١) الأحكام السلطانية ص١٩٧ الماوردي . سنن أبي داود جـ٢ ص١٥٧ ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص٨٢٧ .
(٢) الأحكام السلطانية ص٩٨ .
(٣) الفتح الرباني٢ جـ١٥ ص١٣٨ ، سنن أبي داود جـ٢ ص١٥٥ .
(٤) مسند أحمد جـ٥ ص٧٣ .

وذهب غيرهم إلى أنّ هذا التحديد لا يجوز بحال (١).

وهم متفقون على أنّ الأصل إباحة التملك بالوسائل المشروعة دون حدّ مقرر من عقار أو منقول .

ولكنّ الخلاف في تصرف الإمام وهل له التدخل إذا اقتضت المصلحة أم لا ؟

والواقع أنّ للحاكم المسلم الحق في تحديد ملكية شيء معين إلى حد معين في الظروف الاستثنائية التي تستدعي ذلك بعد أخذ رأي ذوي الخبرة والاختصاص والتقوى ، ويتم ذلك في الملكيات الكبيرة من الأراضي التي يسبب مجاوزة الحد فيها ضرراً عاما للأمة (٢). ولقد قرّر الفقهاء مبدأ التعويض على التملك القهري إذا دعت الضرورة ومصلحة المسلمين إلى ذلك .

كما حدث على عهد رسول الله ﷺ أنه كان لسمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار ، وكان سمرة يكثر من دخول البستان هو وأهله فيؤذي ذلك صاحب البستان . فشكا إلى رسول الله ﷺ فاستدعى سمرة وقال له : بعه نخلك ، فأبى . قال : فاقطعه ، فأبى . قال : هبه ولك مثله في الجنة فأبى فقال عليه الصلاة والسلام : أنت مضارّ ، ثم التفت إلى الأنصاري وقال : اذهب فاقلع نخلة (٣).

فالملكية الخاصة إذا تيقّن ضررها فإنه يعمل على إزالة هذا الضرر ويعوض على

---

(١) الملكية جـ٢ ص٣٩٩ عبد السلام العبادي .

(٢) الملكية جـ٢ ص٢٩٨ .

(٣) سنن أبي داود جـ٢ ص٢٨٣ .

صاحب الملك ، ولا يفهم من الحديث المذكور أن المصادرة كانت بلا عوض ، وإنّما كان الأمر للأنصاري بالقطع دلالة على تأكيد إزالة الضرر ، وقد فهم ابن القيم من الحديث وجوب البيع والمعاوضة لحاجة المشتري بثمن المثل(١) .

وروي أنّ رجلاً اسمه الضحاك ساق خليجا من العريض وأراد أن يمرّ به في أرض محمد بن سلمة فأبى . فكلم فيه الخليفة عمر بن الخطاب فأمره أن يخلي سبيله فقال : لا والله .

فقال عمر : لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع تسقي أولاً وآخراً وهو لا يضرك . فقال محمد : لا ، فقال عمر : والله ليمرّن به ولو على بطنك ثم أمره أن يمرّ به (٢) .

وبالإضافة إلى حق الإمام في التدخل عند إساءة استخدام الملكية ، فهناك تشريعات مختلفة لتفتيت هذه الملكية على أكبر عدد من الورثة ، فصّلها نظام الإرث في الإسلام ، كما حثّ على الوصية في وجوه الخير العامة وللأقارب غير الوارثين ورتّب على هذه الملكية حقوقاً مختلفة كالزكاة أو العشور والخراج .

وفوق ذلك فإنّ الرقابة الذاتية تجعل المسلم يحس بأن النفع المادي وحده ليس هدفاً بحد ذاته ، وإنما هو وسيلة لغاية جليلة أسمى وأشرف وهي عمارة الأرض، تحقيقاً لخلافة الإنسان فيها وطلبا لمرضاة الله عزّ وجلّ ومثوبته .

---

(١) الملكية جـ٢ ص٤١٤ العبادي .

(٢) النظام الاقتصادي في الإسلام ص٦٠ أحمد محمد العسال، فتحي أحمد عبد الكريم مكتبة وهبة القاهرة .

بينما نجد في الأنظمة المادية رأسمالية أو اشتراكية أن الكسب المادي هو المطلب الأساسي ، وأنّ الرقابة الذاتية معدومة والرقابة الحكومية في المجتمع الاشتراكي تدفع الإنسان للتسيّب والتحايل أو التراخي والكسل ، وهذا ما دفع بالخطط السوفياتية الاقتصادية إلى الفشل أكثر من مرة (١) .

كما يقيم النظام الإسلامي توازناً تاما بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فالنظام الرأسمالي ينظر إلى الفرد على أنه محور الوجود والغاية منه ، ولهذا يهتم بمصلحة الفرد ويقدمها على مصلحة الجماعة .

ويعلّل ذلك بأن مصلحة الأفراد عندما تتحقق فإنها تحقق مصلحة الجماعة ، ولكن نتج من تقديم المصلحة الخاصة على العامة مساوئ عديدة أبرزها تفشّي البطالة والاحتكارات والتفاوت الكبير في الثروات ، وأصبح أصحاب رؤوس الأموال مركز ضغط يمارسونه على الأكثرية الحاكمة فيسقطونها تارة ويدفعون بها إلى الحكم تارة أخرى .

فمهمة الرأسمالية هي توفير وسائل إشباع حاجات الإنسان إشباعاً كلياً بغضّ النظر عن أي اعتبار .

وليس ضروريا أن تتوفر السلع والحاجات لكلّ فرد من أفراد المجتمع بالتساوي أو أن يكون هناك نوع من التوزيع العادل .

ومن المعلوم أنّ جميع الأنظمة الاقتصادية بغضّ النظر عن اتجاهها تهدف إلى رفع مستوى الإنتاج ، ولكن المهم هو توزيع هذا الإنتاج والتصرف فيه .

والنظام الاشتراكي على عكس ذلك يضحّي بمصلحة الفرد في سبيل مصلحة

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ص٣٠ .

الجماعة تضحية يفقد الفرد توازنه فيها ، وتتمثل الجماعة في الطبقة الحاكمة التي تدير شئون البلاد .

وبناء على ذلك فقد تم إلغاء الملكية الفردية لأدوات الإنتاج وكذلك الحرية الاقتصادية الفردية واستبدل بهما ملكية الجماعة وحريتها .

ولقد بدأت الأنظمة الاشتراكية تتراجع عن منهجها فسمح برفع القيود عن عدد المواشي المسموح بامتلاكها للأفراد في المزارع الجماعية ، كما وضعت أجور متفاوتة للعمال حسب إنتاجهم مؤكدة حافز الربح والتملك عند الأفراد(١) . كما تراجع النظام الرأسمالي وبدأ يتدخّل في بعض أوجه النشاط الاقتصادي ويمارس التأميم وذلك بعد الحرب العالمية الثانية .

أمّا النظام الإسلامي فلا يرى هناك تعارضاً بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فهو يقرّ بالملكية الفردية والجماعية ، وإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة فإنّ مصلحة الجماعة تقدم . ولذلك نهى عليه الصلاة والسلام عن تلقي الركبان لأنّ فيه إضرار بمصلحة أهل السوق (٢) . كما حرّم الإسلام الاحتكار وكلّ وسائل الكسب التي تثير الضغينة والحقد بين أبناء المجتمع ، كالربا والرشوة والقمار ووسائل الترف واللهو ، وكلّ ما يفضي إلى التنازع في البيوع كالغش والغبن الفاحش وجهالة المبيع أو الثمن .

فسياسة الاقتصاد في الإسلام ليست لرفع مستوى المعيشة فحسب ، دون النظر إلى ضمان انتفاع كل فرد من هذا العيش ،ولا هي لجلب الرفاهية للناس

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ص٢٩ .

(٢) الجامع الصحيح للترمذي جـ٣ ص٥٢٤ .

وتركهم أحراراً في الأخذ منها بقدر ما يتمكنون دون النظر إلى ضمان حق العيش الكريم لكل فرد منهم . وإنّما هي معالجة المشاكل الأساسية لكل فرد، باعتباره إنسانا يعيش وفق علاقات معينة مع غيره . وتمكينه من رفع مستوى معيشته ، وتحقيق الرفاهية لنفسه وفق طراز خاص من العيش .

فالأحكام الشرعية ضمنت توفير إشباع جميع الحاجات الأساسية إشباعا كليا ، لكل فرد من أفراد الرعية الإسلامية ، وذلك بتوفير فرص العمل ، ووجوب النفقة بين الأقارب وتعيين العطاء من بيت مال المسلمين .

فالإسلام يرى أنّ الناس متفاوتون في قواهم الجسمية والفكرية ، كما أنهم متفاوتون في إشباع حاجاتهم وتلبية رغباتهم .

وكلّ محاولة للمساواة التامة عن طريق القسر والإكراه ، إنما تتناقض مع طبيعة الفرد وفطرته . كذلك فإنّ إطلاق عنان النفس وراء شهواتها ورغباتها دون تنظيم أو قيود ، فإنّ معنى ذلك أن تعمّ الفوضى ويأكل القويّ الضعيف .

ولذلك فإنّ الأمر الطبيعي الموافق لغريزة الإنسان وفطرته أن يجري تنظيم هذه الغريزة لا إلغاؤها .

هلاك الأمم التي تسيء الخلافة في الأرض :

لقد نبّه القرآن الكريم إلى علاقة الإنسان بالأرض في أكثر من آية قرآنية ، قال تعالى : ﴿ هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (١). وهذه العمارة بجانبها المادي يمكن أن تنمو وتزدهر ، ولكن لا يكتب لها البقاء والاستمرار إلاّ إذا كانت متصلة بمنهج الله في الحياة وفق سننه ومشيئته ، فإذا كانت هناك عمارة مادية استغلت نتائجها وثمارها في غير مرضاة الله عزّ وجلّ وطاعته ، فإنّ هذه العمارة تحمل في ذاتها مقومات فنائها والتعاسة لأبنائها .

ولقد ساق القرآن الكريم أمثلة مختلفة لأصحاب هذه العمارات ، وكيف كانت نهايتهم ونتيجة كدّهم ونشاطهم ، وفي ذلك عظة ودروس لمن كان بعدهم ، ليكون كلّ عمل على الأرض موصولاً بطاعة الله في السماء ، لأنّ الأرض لله يورثها عباده الصالحين .

فمن انحرف عن منهج الله حقّ عليه أن تسلب منه وراثة الأرض ، ويستبدل الله عزّ وجلّ قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

قال تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٢) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود ٦١ .

(٢) سورة محمد ٣٨ .

(٣) سورة يونس ١٣ - ١٤ .

وهذا الاستخلاف في الأرض مرهون بكيفية العمل ، فإذا ما حصل هناك انحراف وبعد عن منهج الله ، تبع ذلك الهلاك والاستبدال بأقوام آخرين .

والأمثلة على صحة هذه الدعوى كثيرة متعددة .

قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (١) .

فالآية الكريمة تتحدّث عن استخلاف الله عزّ وجلّ قوم ثمود من بعد قوم عاد. وقوم عاد هؤلاء آتاهم الله عزّ وجلّ من القوة والعمارة المادية ما جعلهم يقولون ﴿ من أشدّ منا قوة ﴾ (٢) .

ولقد زادهم الله عزّ وجل بسطة في الخلق ، وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح عندما انحرفوا وفسدوا ، قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٣) .

ولقد وصل قوم عاد لدرجة من العمارة المادية لم تكن في أيامهم لأحد غيرهم ، قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأعراف ٧٤ .

(٢) سورة فصلت ١٥ .

(٣) سورة الأعراف ٦٩ .

(٤) سورة الفجر ٦ - ٨ .

وقد وصف الله عزّ وجل جزءاً من مظاهر عمارتهم بقوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون أمدّكم بأنعام وبنين وجنّات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (١) .

فهؤلاء قوم عاد الذين استخلفهم الله عزّ وجل من بعد قوم نوح ، وآتاهم من الخيرات وأنواع العمارة ما لم يؤت أحداً مثلهم في عصرهم ، انحرفوا وطغوا فحقّ عليهم العذاب والهلاك واستخلف الله من بعدهم قوم ثمود .

وهذا منهج رباني في الاستخلاف في الأرض ، يجري على عاد وثمود ما جرى على بني إسرائيل والأمم جميعا .

قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٢) .

والصلاح المطلوب لا يكون بمجرد ادعاء الإيمان والإسلام والقيام ببعض الأعمال البدنية من غير إقامة العدل في الناس والإصلاح في الأرض ، والإصلاح إنما هو إصلاح الأعمال السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكلّ ما فيه سعادة المجتمع والهلاك إنما يتم بالظلم والفساد (٣) . والهلاك يكون بالجوائح والاستئصال كما يكون بالذلّ وفقد الاستقلال ، ولا يعني إعطاء الله عزّ وجلّ لبعض الأقوام وسائل وأسباب التقدم المادي وزيادة الخيرات والنعم

---

(١) سورة الشعراء ١٢٨ - ١٣٥ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٥ .

(٣) تفسير المنار جـ٢ ص٢٦١ .

الدنيوية ، أنهم يسيرون على المنهج السليم ، وأنه تعالى منحهم ما منحهم استحقاقاً منهم لهذا الفضل ، بل قد يكون ذلك ابتلاء وامتحاناً لهم ، فإنه يمهلهم ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أو يسلّط عليهم من يهلكهم ويصبح عمرانهم وتقدمهم حسرة في نفوسهم والأمور بخواتيمها (١).

قال تعالى : ﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (٢) . والأخذ بغتة على تلك الحال من النعيم والرخاء أشدّ لحسرتهم على ما فاتهم .

قال رسول الله ﷺ : (إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو يقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج) (٣) . ومعلوم أنّ فتح أبواب كلّ شيء إنما هو مؤقت مرهون بما يتبعه من العذاب والهلاك ، وهذا يختلف عن المعنى المقصود في الآية الكريمة : ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٤) .

فالفتح هنا بالبركات على اختلافها التي يصاحبها ويعقبها هدوء النفس وراحة البال والاستقرار، يختلف عن الفتح من أبواب كلّ شيء على الذين نسوا ما ذكّروا به ، وإن عمرت بلادهم وازدهرت في مرحلة من مراحلها ، لأنّ الأمور بخواتيمها.

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص٢٦٢ .

(٢) سورة الأنعام ٤٤ .

(٣) مسند أحمد جـ٤ ص١٤٥ ، الجامع الصغير [illegible] .

(٤) سورة الأعراف ٩٦ .

ويحدّثنا الله عزّ وجلّ عن أقوام آتاهم من نعمه وخيراته الشيء الكثير ، وعمروا الأرض وأثاروها ولكنهم انحرفوا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وأصبحت مساكنهم كأن لم تغن بالأمس .

قال تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

فهؤلاء الأقوام قلبوا الأرض للزراعة وعمروها بالأبنية والصناعات ووفرة العَدد والعُدد ، والتزين بزخارف أعجبوا بها واستطالوا بأبهتها (٢) . كما استخرجوا المياه والمعادن من الأرض وكانوا أطول أعماراً وأكبر أجساماً وأكثر أموالاً ، ولكن كلّ ذلك لم يغن عنهم من الله شيئاً ، عندما ابتعدوا عن منهج الله فكلّ ما هو لله فهو المتصل ، وكل ما لغيره فهو المنقطع المندثر ، وإن استطال في فترة من الزمن .

وفي عصرنا الحاضر أمثلة كثيرة لعمارات مادية وصلت القمة ولكن حق أمر الله عليها لانحرافها وطغيانها وفسادها . وبدأنا نسمع الكثيرين من القادة ينبّهون أممهم وشعوبهم إلى أنّ حضاراتهم تحمل بذور فنائها وشقائها ، ويؤكدون أنه سيلحق بهم الدمار إن استمرت على هذا الطريق النكد المعوج ، وصدق الله العظيم : ﴿ والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٣) .

---

(١) سورة الروم ٩ .

(٢) محاسن التأويل جـ٣ ص٤٥٦٩ .

(٣) سورة يوسف ٢١ .

وإذا ما أراد الإنسان المسلم أن يتجه إلى كتاب الله يستهدي به في حياته ، ليرتقي في سلّم التقدم والعمران ، انبرى له هذان الفريقان بالهجوم والتأنيب .

ولقد قدّرت منذ البداية التي اخترت فيها هذا الموضوع أنني سأتعرّض لمسائل شائكة ، مازالت عقلية مجتمعنا لم تعطها حقها من الفهم والعناية، ولكنّني استعنت بالله وتوكلت عليه .

وتبيّن لي بوجه لا يرقى إليه الشك أنّ كثيراً من الحقائق العلمية ، التي يفتخر العلماء باكتشافها في عصرنا الحاضر ، إنما أكّدها القرآن الكريم، ونبّه إليها كدحوّ الأرض ورسوّ الجبال ، وحفظ السماء وإنزال المطر وتفجير الينابيع .

وكما سخّرت علوم النحو والبلاغة لخدمة القرآن الكريم ، علينا أن نسخّر علوم الحياة أيضاً لخدمة كتاب الله وليس هناك تنافر أو تضادّ فيما بينها .

ولقد استفدت كثيراً من الكتب العلمية التي قرأتها ، ومن أقوال المفسّرين المبثوثة بين السطور توجّه الأنظار إلى مظاهر الإبداع في الآفاق والأنفس ، وتدفع الإنسان للتعرّف على كلّ ما يحيط به من الخيرات واستثمارها .

كما اتضح لي أهمية دور الإنسان على الأرض ، وحقيقة استخلافه فيها، والنظرة المتوازنة التي ينظر بها الإسلام للإنسان ، وأثرها على سلوكه وإنتاجه في شتّى مجالات الحياة .

ولقد ربط القرآن الكريم الإنسان بالكون في أكثر من نص كريم ، وحثّ على العمل والسعي في طلب الرزق ، واستخراج ما في باطن الأرض من خيرات وكنوز .

كما اتضح لي أن أنّ أحكام الإسلام وتشريعاته ، إنّما تهدف إلى حفظ مصلحة الإنسان في ذاته وفي علاقاته مع الآخرين .

ولقد شعرت بالسعادة البالغة وأنا أرى (الداروينية) وأشباهها تتهاوى وتسقط بالأدلة الدامغة ، واتضح لي أنّ الأمر في ذاته ليس أكثر من تقليعة من التقليعات الغربية ، التي يلبسونها ثوب العلم ، بقصد إسكات المخالفين وإفحامهم ، ولتمرير أفكار اجتماعية وسياسية مسمومة ، قام على رعايتها أبناء صهيون وأتباعهم ، ممّن يحرصون على خراب القيم وإفسادها .

وأصبحت لديّ القناعة والقدرة على مواجهة أنصاف المثقفين والمستغربين الذين يتلقّفون كلّ غثاء الغرب ، ويصوّرونه باسم العلم ، ليصوّبوه في صدر هذا الدين خناجر مسمومة .

كما اتضح لي أنّ الإسلام يربط الإنسان بالأرض ليكون طريق السعادة له في الآخرة ، وأنه إذا ما انحرف عن هذا المنهج وافتتن بما حوله من زخارف ، واغترّ بما آتاه الله من علم وعمارة ، فإنّ النهاية المحتومة هي الخسران المبين .

وإنني إذ أتقدم بهذا الجهد المتواضع ، أسأل الله سبحانه وتعالى مرضاته ورحمته ومغفرته ، إليه توجهت وإليه أنيب ، عليه توكلت ، ربّي وربّكم ربّ العرش العظيم ، وأصلّي وأسلّم على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهارس الرسالة

١- فهرس الآيات القرآنية الكريمة .

٢- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة .

٣- فهرس المراجع .

٤- فهرس الموضوعات .

فهرس الأحاديث الشريفة :

طرف الحديث	رقم الصفحة

طرف الحديث	رقم الصفحة

طرف الحديث	رقم الصفحة
١٠٠. هل يكبّ الناس في النّار	١٤٥
١٠١. هو منك صدقة	٢٨٠
١٠٢. هي الراسخات	٢٧٣
١٠٣. يجيء أحدكم يسال	٢٢٥
١٠٤. يقول ا لله إني خلقت عبادي	١٣٣

فهرس المراجع

أولاً : مراجع التفسير:

١- الاتقان في علوم القرآن /جلال الدين السيوطي / دار الكتب العلمية – بيروت .

٢- أحكام القرآن / أبو بكر الرازي الجصّاص / دار الفكر – يروت .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / أبو السعود العمادي / دار المصحف – القاهرة .

٤- الاكليل في استنباط التنزيل / جلال الدين السيوطي / دار الكتب العلمية– بيروت .

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ناصر الدين البيضاوي / دار الفكر – بيروت .

٦- تفسير آيات الأحكام / محمد علي السايس / مكتبة محمد علي صبيح وأولاده – القاهرة .

٧- تفسير البحر المحيط / أبو حيان الأندلسي / دار الفكر – بيروت .

٨- تفسير سورة الأنعام / د. أحمد السيد الكومي ، د. محمد سيد طنطاوي / مطبعة السعادة – القاهرة .

٩- تفسير القرآن العظيم / الحافظ ابن كثير الدمشقي / دار المعرفة بيروت .

١٠- التفسير القيّم / ابن قيّم الجوزية / دار الكتب العلمية – بيروت .

١١- التفسير الكبير / فخر الدين الرازي / دار الكتب العلمية – طهران .
١٢- تفسير المنار – محمد رشيد رضا / مكتبة القاهرة – ميدان الأزهر .
١٣- تفسير النسفي المسمّى : " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " .أبو البركات النسفي – محمد علي صبيح وأولاده – القاهرة .
١٤- التفسير الوسيط / د. أحمد السيد الكومي ، د. محمد سيد طنطاوي – دار الجيل القاهرة .
١٥- جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن / أبو جعفر ابن جرير الطبري / دار المعارف – مصر .
١٦- الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / دار الشعب – القاهرة .
١٧- جواهر القرآن / طنطاوي جوهري / المكتبة الاسلامية – بيروت .
١٨- روح المعاني / شهاب الدين الألوسي / دار الفكر – بيروت .
١٩- زاد المسير في علم التفسير / أبو الفرج ابن الجوزي / المكتب الاسلامي– بيروت .
٢٠- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية في التفسير / محمد علي الشوكاني / دار المعرفة – بيروت .
٢١- في ظلال القرآن / سيّد قطب / دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٢٢- الكشّاف / الزمخشري / دار الكتب العلمية – طهران .
٢٣- قصص الأنبياء / عبد الوهاب النجار / دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٢٤- محاسن التأويل / جمال الدين القاسمي / دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة .

٢٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبد الباقي / مطابع الشعب - القاهرة .
٢٦- المفردات - الراغب الأصفهاني / دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

ثانياً : مراجع الحديث :

٢٧- التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول / منصور علي ناصيف - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
٢٨- الترغيب والترهيب / الحافظ المنذري / دار إحياء التراث العربي - بيروت .
٢٩- الجامع الصحيح / أبو عيسى الترمذي / المكتبة الاسلامية - بيروت .
٣٠- الجامع الصغير / جلال الدين السيوطي / دار الكتب العلمية - بيروت .
٣١- سبل السّلام / الصنعاني / مصطفى البابي الحلبي - القاهرة .
٣٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمد ناصر الدين الألباني / المكتب الاسلامي - بيروت .
٣٣- سنن أبي داود / أبو داود السجستاني / دار المعرفة - بيروت .
٣٤- شرح صحيح مسلم / النووي / المطبعة المصرية ومكتبتها - القاهرة .
٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري / ابن حجر العسقلاني / المطبعة السلفية - القاهرة .

٣٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / ابن حجر الهيثمي / دار إحياء التراث العربي - بيروت .
٣٧- مسند الإمام أحمد / أحمد بن حنبل / دار المعرفة - بيروت .
٣٨- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف / أ.ي. ونسنك - مكتبة بريل / ليدن سنة ١٩٣٦ م - لندن .
٣٩- نيل الأوطار / محمد علي الشوكاني / دار الفكر - بيروت .

ثالثاً : مراجع اللغة :

٤٠- تاج العروس من جواهر القاموس / محمد مرتضى الزبيدي / دار مكتبة الحياة - بيروت .
٤١- القاموس المحيط / الفيروز أبادي / دار الفكر - بيروت .
٤٢- لسان العرب / ابن منظور / دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت .

رابعاً : مراجع التاريخ :

٤٣- الطبقات الكبرى / ابن سعد / دار المعرفة - بيروت .
٤٤- الكامل في التاريخ / ابن الأثير - دار الفكر - بيروت .

خامسا : مراجع عامة :

٤٥- الأحكام السلطانية / الماوردي / دار الكتب العلمية – بيروت .

٤٦- أخطاء الفلسفة المادية / أنور الجندي / دار الاعتصام – القاهرة .

٤٧- آدم عليه السلام / البهي الخولي / مكتبة وهبة – القاهرة .

٤٨- الإسلام في عصر العلم / محمد أحمد الغمراوي / مطبعة السعادة – القاهرة .

٤٩- الاسلام يتحدّى / وحيد الدين خان / المختار الإسلامي – القاهرة .

٥٠- الإسلام ومشكلات الحضارة / سيد قطب / دار إحياء الكتب العربية– عيسى البابي – القاهرة .

٥١- الاسلام والانسان المعاصر / فتحي رضوان / دار المعارف بمصر – سلسلة اقرأ رقم ٤٠٦ .

٥٢- الأشباه والنظائر / جلال الدين السيوطي / مصطفى البابي الحلبي – القاهرة .

٥٣- اشتراكية الاسلام / مصطفى السباعي / الدار القومية للطباعة – القاهرة.

٥٤- اعجاز القرآن الكريم / مصطفى صادق الرافعي / دار الكتاب العربي – بيروت .

٥٥- الاعجاز الطبي في القرآن / السيّد الجميلي دار التراث العربي – القاهرة.

٥٦- الأموال / أبو عبيد بن سلام / مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة .

٥٧- الانسان في القرآن / عباس محمود العقاد / دار الكتاب العربي – بيروت.

٥٨- الانسان بين المادية والاسلام / محمد قطب / عيسى البابي الحلبي – القاهرة .
٥٩- الانسان العقل والقلب / أنور الجندي / دار الاعتصام – القاهرة .
٦٠- الانسان والطاقة / علي كامل الحمامصي / دار المعارف / مصر .
٦١- براهين / محمود القاسم / دار الهجرة – دمشق .
٦٢- بساطة العلم / ترجمة زكريا فهمي / الادارة العامة للثقافة – القاهرة .
٦٣- تاريخ الحياة / محمد كامل سند / الهيئة المصرية العامة للتأليف / القاهرة.
٦٤- التفسير العلمي للآيات الكونية / حنفي أحمد / دار المعارف – القاهرة.
٦٥- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين / الراغب الأصفهاني / المطبعة العربية – حلب .
٦٦- توفيق الرحمن / محمد بخيت المطيعي / مطبعة السعادة – القاهرة .
٦٧- ثروات جديدة من البحار / أنور عبد العليم / دار الكاتب العربي – القاهرة .
٦٨- الجفوة المفتعلة بين العلم والدين / محمد علي يوسف / مكتبة الحياة / بيروت .
٦٩- جواهر القرآن / أبو حامد الغزالي / مكتبة الجندي القاهرة .
٧٠- الحكومة الاسلامية / أبو الأعلى المودودي / المختار الاسلامي – القاهرة.
٧١- الحكمة في مخلوقات الله عز وجل / أبو حامد الغزالي / مكتبة الجندي – القاهرة .

٧٢- الحواس بين الانسان والحيوان / لوراس ميلين / مارجيري ميلين / ترجمة ثابت قصبجي / المؤسسة الوطنية للطباعة - بيروت .
٧٣- الحياة الاجتماعية عند الحيوان / د. عزالدين فراج / مكتبة مصر - القاهرة .
٧٤- الخراج / القاضي أبو يوسف بن إبراهيم / المطبعة السلفية - القاهرة .
٧٥- الخمر ومضارها على الجسم والعقل / د. نبيل الطويل / المكتب الاسلامي - بيروت .
٧٦- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاني / دار المعارف - القاهرة .
٧٧- دلائل الحق في عظمة الخالق / عزت محمد خيري / المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية - القاهرة .
٧٨- رسالة العلم والايمان / محمد جمال الدين الفندي / المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية - القاهرة .
٧٩- الرسول / سعيد حوّى / دار الكتب العلمية - بيروت .
٨٠- روح الصلاة في الإسلام / عفيف طبارة / دار العلم للملايين - بيروت.
٨١- زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن قيّم الجوزية / دار الكتب العلمية - بيروت .
٨٢- شبكة الحياة / جون ستور - ترجمة أ.د رمسيس لطفي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
٨٣- الطب النبوي / ابن قيم الجوزية / دار الكتب العلمية - بيروت .

٨٤- الطب محراب الايمان / د. خالص جلبي - جـ١ مؤسسة الرسالة بيروت، جـ٢ دار الكتب العربية - دمشق .
٨٥- طبيعيات الجوهر وظواهره / محمد جمال الدين الفندي / مكتبة نهضة مصر - القاهرة .
٨٦- عالم النمل / ترجمة علي مرسي / تأليف جلبرت نكسون / دار الفكر العربي رقم ٣٨٣ - القاهرة .
٨٧- عالج نفسك بالغذاء / د. إبراهيم فهمي / دار المعارف سلسلة اقرأ ٣٧٤ القاهرة .
٨٨- العسل / د. محمد نزار الدقر / المكتب الاسلامي - بيروت .
٨٩- العلم والايمان في بناء الأمم والمجتمعات / عبد الغني عوض الراجحي / الهيئة العامة لشؤون المطابع / مجمع البحوث الإسلامية القاهرة .
٩٠- العلم ومشكلات الانسان المعاصر / زهير الكرمي / عالم المعرفة رقم٥ الكويت .
٩١- العلم في دنيانا / ترجمة سيد رضا ، زكريا فهي / تأليف وليام منير جارا دار النهضة العربية - القاهرة .
٩٢- العلم يدعو للإيمان / ترجمة محمود صالح الفلكي / تأليف كريس موريسون - مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
٩٣- علم التفسير / محمود حسين الذهبي / دار المعارف - مصر .
٩٤- عناصر القوة في الاسلام / سيد سابق / دار الكتاب العربي - بيروت .
٩٥- الغذاء لا الدواء / صبري القباني / دار العلم للملايين - بيروت .

١٠٩- الله جلّ جلاله/ سعيد خوى / مكتبة وهبه - القاهرة .
١١٠- الله والعلم الحديث / عبد الرازق نوفل / دار الجيل للطباعة - القاهرة.
١١١- الله والكون / محمد جمال الدين الفندي / الهيئة المصرية العامة للتأليف- القاهرة .
١١٢- ماذا نستخرج من البترول / د. جورج وهبه / دار المعارف - القاهرة.
١١٣- الماء والحياة / لوراس ميلن ، مارجيري ميلن / ترجمة ثابت قصبجي وعياد بباوي مؤسسة سجل العرب - القاهرة .
١١٤- مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين / منيرة على الغاياتي / مكتبة وهبه - القاهرة .
١١٥- الملكية في الشريعة الاسلامية / عبد السلام العبادي / مكتبة الأقصى - عمّان (رسالة دكتوراه) .
١١٦- من روائع حضارتنا / مصطفى السباعي / مكتبة الشباب - عمّان .
١١٧- الموافقات في أصول الأحكام / الشاطبي / محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة .
١١٨- النظام الاقتصادي في الاسلام / أحمد محمد العسال / فتحي أحمد عبد الكريم / مكتبة وهبه - القاهرة .
١١٩- النحلة تسبح لله / محمد حسن الحمصي / دار الرشيد - دمشق .

سادسا : المجلات الاسلامية والعلمية :

١- الأزهـــــر :	القاهرة .
٢- مجـلة الدعـوة :	القاهرة .
٣- حضارة الاسلام :	دمشق .
٤- الـعـربـي :	الكويت.
٥- عـالـم الفكـر:	الكويت.
٦- المجلة العـربيـة :	السعودية .
٧- المسلم المعاصر :	الامارات العربية .
٨- منـبر الاسـلام :	القاهرة .
٩- المنـطـلـق :	بيروت .

فهرس الموضوعات